إبراهيم مياسي

لمحات...
من جهاد الشعب الجزائري

ديوان المطبوعات الجامعية

لمحات...
من
جهاد الشعب
الجزائري

الدكتور / إبراهيم مياسي

لمحات...
من
جهاد الشعب الجزائري

ديوان المطبوعات الجامعية

© ديوان المطبوعات الجامعية 5-2007
رقم النشر : 4.07.4892
رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.1061.7
رقم الايداع القانوني : 2007/677

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من ضحى في سبيل تحرير
هذا الوطن الغالي،
الجزائر الحبيبة.

تصدير

بقلم الدكتور: محمد الأمين بلغيث - جامعة الجزائر.

من العسير أن تكتب في بلد تختلط فيه المفاهيم، ويتصدر فيه المرجفون المنابر، لهذا أحسست بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقي، وأن أكتب تصديرًا لهذا المولود المفعم بالحيوية للدكتور والباحث الجامعي إبراهيم مياسي الموسوم بـ" لمحات من جهاد الشعب الجزائري". فالباحث معروف ولا ينكر جهوده في تجلية الحقائق عن تاريخ وطنه إلا مكابر، أو حسود جاهل.

إن كتاب الباحث إبراهيم مياسي لبنة متينة وجهد معتبر، لا يقدر قيمته إلا من كابد الكتابة التاريخية مستنطقًا الوثائق، راسمًا صورة ناصعة للبناء التاريخي، في هذه الظروف التي اختلطت فيها المفاهيم إلا على العارفين المستنيرين.

كيف السبيل إلى افتكاك تاريخنا من هيمنة المدرسة التاريخية الغربية عمومًا والفرنسية خصوصًا،؟ هذا هو سبيل جيلنا الذي استوعب منهج الرواد من المؤرخين المرموقين في الجزائر، ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي عمل في صمت دون ضجيج، ومهرجانات فلكلورية، وعويل لا طائل من ورائه. من خلال تعرية الاستعمار الفرنسي الذي أسند خيرات الجزائر إلى أوزاع من طليان وأسبان وكورسيكيين ومالطيين، جاءت فرنسا بأجدادهم من مطارح البؤس والفقر، وغرستهم في أرض الجزائر من حيث اقتلعت الجزائريين، وأفاضت عليهم النعم، وسهلت لهم وسائل الاستثمار، ودللتهم كما يدلل وحيد أبويه، ففي سبيل هؤلاء ونزولا عند مرضاتهم ومطامعهم التي لا حد لها تسوق فرنسا على الجزائريين الأصلاء

مع مطلع كل شمس الجيوش الجرارة، كما عبر ذات يوم الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي.

إن تحرير تاريخنا من الهيمنة الفرنسية من أوكد واجباتنا بعد تحرير الأرض والعرض من طرف المجاهدين المخلصين طيلة ليل الاستعمار البغيض، لهذا استبشرنا خيراً بظهور ثلة من الباحثين الشباب الذين رفعوا راية العمل في هذا الحقل الملغم بالأراجيف وتحريف الكلم عن مواضيعه، ولا نزال ننتظر الكثير من هذا الجيل الشاب الطموح المخلص للوطن المتسلح بالعلم والمعرفة للقيام بهذا الواجب، واجب المشاركة في تنوير المجتمع بمخاطر الغزو الحضاري الشامل لأمتنا وشعبنا.

لقد ساهم الباحث إبراهيم مياسي بأعماله السابقة مساهمة متينة في سد هوة واسعة من خلال الكتابة التاريخية عن توسع فرنسا في الصحراء الجزائرية في أكثر من عمل أكاديمي، ولا يزال يحاضر ويكتب عن المؤامرة الاستعمارية عامة وفي صحرائنا الشاسعة خاصة من خلال الوثائق الأرشيفية والشهادات الشفوية، والأشعار الشعبية، وكل ما يمت بصلة للوثائق المعترف بها في العملية التاريخية.

مقدمة

يصب مصنف لمحات.. من جهاد الشعب الجزائري، في عمق بعض محطات تاريخية، يبين فيها المؤلف مدى جاهد كافح الشعب الجزائري من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق للاستعمار الفرنسي البغيض، وقد تصدى لهذا الغاصب المحتل منذ الوهلة الأولى عندما وطأت أقدام الهمجية والإستكبار أرض الوطن الطاهرة في صيف 1830م إلى آخر يوم من الثورة النوفمبرية المظفرة، حيث تعددت أشكال الكفاح واختلفت أساليب المواجهة وعلى جميع الجبهات سواء كان ذلك بالبندقية والأسلحة المختلفةد أو بالكلمة والقلم والفكر، أو بهما معا.

ولاشك أن كتابة كل تاريخ جهاد الشعب الجزائري يحتاج إلى جيش من المؤرخين والعلماء والباحثين، وإلى زمن طويل نسبيا، حتى يسبروا أغوار مجاهل التاريخ العريق لهذه الأمة المجيدة الممتدةجذورها عبر العهود والدهور والأزمنة.

وتتركز هذه اللمحات عن تاريخ الجزائر خلال حقبة الاحتلال الفرنسي للبلاد، أي التاريخ المعاصر، الذي تمخض عن تفاعلات للأحداث العالمية عقب فترة التاريخ الحديث، حيث عرف العالم الحديث حركة واسعة للكشوفات الجغرافية من أجل التعرف على أسرار العوالم الجديدة واغتصاب خيراتها، فتمخضت عن ذلك موجة مسعورة من التكالب الاستعماري على المستعمرات.

وقد تعرضت الجزائر إلى أبغض نوع من أنـــواع الاســتعمار الأوروبي الحديث المنمثل في الغزو العسكري والاحتلال السافر والإستطان القـــاهر، والهيمنة الثقافية والفكرية وغير ذلك، وبقدر ما تعرض له الشعب الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية المظلمة من مظاهر الاحتقـــار والإذلال، ومن محاولات طمس الهوية الوطنية، لدمج الجزائر في فرنسا، ازداد اهتمامي بدراسة تاريخ الجزائر عامة والتاريخ المعاصر منه خاصة، لأتعـــرف عـــن الأحرار من الشعب الجزائري، الذين قارعوا هذا الاستعمار بكـــل شـــدة وقوة، وجاهدوا بكيفية متواصلة، وصمدوا كالطود الشامخ، وحافظوا على دينهم وعروبتهم، وأفشلوا كل الخطط الاستعمارية الماكرة لفسخ ومـــسخ المجتمع الجزائري.

وقد تحمل الشعب الجزائري كل مظاهر التقتيل الجماعي، والتشريد والتفقير والتجهيل في سبيل الحفاظ على عقيدته الإسلامية السمحة، ولغتـــه العربيـــة المقدسة، لغة القرآن الكريم، ودافع على وطنه العزيز، وعاداته وتقاليده العريقة السامية وتاريخه المجيد الحافل بالبطولات، وذلك طيلة ليل الاســـتعمار الحالـــك الذي دام أكثر من قرن وثلث القرن، لم يتزعزع فيها إيمانه أبدا، بل زاده ذلك إيمانا وإسرارا وصمودا وقوة وشجاعة على الجهاد والمواجهة والمقاومـــة حـــتى حقق معجزة القرن العشرين المتمثل في النصر المبين - الذي جاد لنا بها الدهر مرة واحدة -، وهو الانتصار على العدو وطرد الاســـتعمار الفرنـــسي مـــن الجزائر، والانتقام لكرامته المداسة، وذلك بعدما حرر البلاد والعباد واســـتعاد حريته واستقلاله والحمد لله.

إن اعتقاد فرنسا باستعمارها للجزائر قد يحقق لها حلمها الدائم، وهو تكوين امبراطورية عظيمة مترامية الأطراف، تمتد من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وهي امبراطورية لا تبعد كثيرا عن "الوطن الأم"، حيث يسهل تسييرها والسهر عليهاوالدفاع عنها إذا لزم الأمر.

وتحتوي هذه اللمحات عن دراسات وأبحاث كتبت في فترات متباعدة وفي مناسبات مختلفة غير أنها تصب كلها في موضوع واحد هو "جهاد الشعب الجزائري" منذ الصدمة الأولى للجيش الفرنسي مع المجاهدين خارج العاصمة، وهي مقاومة أهل متيجة الباسلة لزحف الاستعمار الفرنسي، وقد واكبت هذه المقاومة لثورة الأمير عبد القادر الذي قاد الجهاد لأكثر من خمسة عشر سنة متواصلة، بعد أن شيد دولة جزائرية ديموقراطية إسلامية وعصرية، وكنموذج لتنظيم هذه الدولة تعرضنا إلىخلفاء الأمير في الزيبان، ومنها جاء التطرق إلى جهاد الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري، وبعد أن قضى على الأمير عبد القادر وأحمد باي وثورة الزعاطشة، اتجه الاحتلال الفرنسي بكل ثقله إلى بلاد الزواوة منطقة جبال جرجرة الحصينة، وواجه هناك مقاومة بطولية وجهاد مستميت.

كذلك أن احتلال الجزائر والتوسع إلى الصحراء هو تحقيق هدف الاستعمار الفرنسي في ربط مستعمراتها الإفريقية في غرب القارة ووسطهاثم شمالها، ولايتأتى لها ذلك إلا إذا احتلت الصحراء الجزائرية، لأنها تعتبر كحلقة وصل بين هذه المستعمرات؛ فضلا على أن احتلال الصحراء الجزائرية هو ضمان سيطرة فرنسا على كامل البلاد، وهذا بعد إدراكها أن الثورات الشعبية التي

كانت تندلع من حين لأخر في الجزائر، كانت تجد في الجنوب والواحات معقلا يفر إليه المجاهدون للإعتصام والاستعداد، فهي إذن قواعد خلفية للمجاهـــدين. لذلك بدأت مغامرة الجيش الغرنسي بالتوسع نحو وادي ســوف ووادي ريــغ بمعركة فاصلة هي "معركة مقارين"؛ ثم دراسة "ثورات 1871م" ودور المقراني والحداد فيها. ونختم هذا المحور بالاشعار الشعبية في المقاومة الوطنية.

أما المحور الثاني تطرق إلى الجهاد الفكري والثقافي للزوايا والعلماء، لنــشر التعليم الأصلي وتحفيظ القرآن الكريم للأجيال الصاعدة، مثل دور زاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، ومساهمة العلامة إبراهيم العوامر السوفي في نهضة الجزائر، وكذلك بعض الذكريات مع المجاهد من نوع آخر، وهو الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري. كل هؤلاء وغيرهم جاهدوا ليحافظوا علـــى الـــروح المشتعة للكفاح من أجل العقيدة والوطن.

والمحور الثالث والأخير خصص لمحطات من تاريخ ثورتنا المجيــدة، والـــتي استعملت فيهاكل أساليب الجهاد، لهذا لابد من طرح الأشكالية الكبيرة وهـــي كيف يمكن لنا كتابة تاريخ الثورة بمنهجية دقيقة. حيث تعتبر الكتابة حـــول تدوين تاريخ البثورة الجزائرية جد مهمة، لما في ذلك مـــن حفـــظ لوقائعهـــا ومسارها وقيمها. وفي الذكرى 49 لهجوم 20 غشت 1955م، نبين دور القـــل من خلال شهادة مجاهد. وفي محطة تاريخية يتلاحم فيها الجهـــاد المـــشترك في إيسين بين الشعب الواحد في كل من الجزائر وليبيا، ثم وقفة عند ذكرى عيـــد الجمهورية في 19 سبتمبر 1958م/وبعض مآثر الثورة.

تحاول هذه الدراسة أن تبني تاريخ للأمة في إطار المدرسة التاريخية الجزائرية التي تسعى إلى كتابة التاريخ بطريقة علمية تتوخى الدقة والموضوعية لإبراز الحقائق التاريخية، ومن ثم تأتي البحوث والكتابات مطابقة للواقع قدر المستطاع، لتعمل على تصفية ذهن الإنسان الجزائري خاصة والعربي عامة، ليجدد حماسه في مواجهة عمليات الفسخ والمسخ والتدمير النفسي، الذي عطل إبداعه وطاقاته المتجدد.

هذا وقد سلكت في علاج مواضيع هذا الكتاب المنهج الوصفي التاريخي للوصول إلى الحقيقة التاريخية -بقدر المستطاع- ومن ثم بناء الأحداث حسب تسلسلها، وبرؤية موضوعية علمية لإفتكاك وتحرير تاريخنا من هيمنة المدرسة الاستعمارية من جهة، وتصفيته من التزييف والتحريف من جهة أخرى.

وأخيرا أرجو أن تكون هذه الدراسة مساهمة في كتابة تاريخنا بطريقة علمية نزيهة، ورغم أن النتائج المتوصل إليها ليست نهائية وأن بعض النقاط والوثائق لم تستغل بعد بكيفية شاملة وكاملة وتتطلب مجهودات أخرى كبيرة. والله ولي التوفيق.

د. إبراهيم ميلسي

الشراقة/ ديسمبر2005م.

قائمة المختصرات:

- A.M.G.,Archives du Ministére de la Guerre.(Chateau de Vincennes) Paris.
- A.O.M.,Archives d'Outre – Mer.-Aix-En-Province.
- B.C.A.F., Bulletin de Comité de l'Afrique Française..
- B.I.S.., Bulletin de Liaison Saharienne.
- B.S.G., bulletin de Société Géographique.
- R.H.M., Revue d'Histoire Maghrébine.
- R.A., Revue Africaine.
- R.T., Revue Tunisienne.
- S.D., sans Date.

المحور الأول
المقاومة الأولى لأهل متيجة

مدخل:

لقد اشتعل لهيب المقاومة الشعبية المسلحة منذ الوهلة الأولى التي وطأت فيها أقدام الغزاة الاستعماريين الفرنسيين أرض الجزائر، فما أن انهار الحكم المركزي في مدينة الجزائر بتوقيع **الداي حسين معاهدة الاستسلام** في 05 جويلية 1830، حتى أخذ شيوخ القبائل والزوايا من الأعيان والعلماء – على عاتقهم مهمة تنظيم صفوف الشعب الجزائري وشحذ همه للذود على أرضه وعرضه ودينه، وعبّر من خلالها الشعب الجزائري عن رفضه للاستعمار بأشكاله المختلفة.

لقد مست هذه الثورات والانتفاضات كل جهات الوطن، وإن إنعدم في ما بينها التنسيق وتوحيد القيادة مما أثر سلبًا على تحقيق أهدافها العسكرية، وقد مرت بمراحل وتطورات عديدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

المرحلة الأولى - (ما بين 1830 –1848م)، وتميزت بالمقاومة المسلحة والمقاومةالسياسية للوجود الفرنسي، وقد تولى المقاومة المسلحة لهذه المرحلة زعماء معروفون ورجال غير معروفين؛ فالمعروفون هم على الخصوص **الأمير عبد القادر وأحمد باي ومصطفى بومزراق**، وغير المعروفين منهم القائد ابن زعموم بمتيجة، والحاج سيدي السعدي في العاصمة وضواحيها، والآغا محي الدين بن مبارك شيخ القليعة وغيرهم؛ وهناك أيضا مقاومة سياسية تمثلت في

بعض الشخصيات كحمدان بن عثمان خوجة والشيخ المفتي محمود بن العنابي وأحمد بوضربة وغيرهم، وهناك أشخاص قاوموا وهم مجهولون وقد كانوا ينبهون النّاس ويؤلفون اللحان ويكتبون في الصحف ويراسلون بعضهم البعض من أجل تنظيم المقاومة وتخطيطها، لأنّ الإحتلال الفرنسي في الجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية، وحكم البلاد حكما مباشرا، حيث لايوجد من يتكلم بإسم الأهالي، لا في شكل حكومة أو في شكل حزب أو هيئات محلية ولا توجد واسطة بين السلطات الفرنسية وسكان الجزائر ؛ ذلك أن هذه المقاومة لم تكن تتمثل في أشخاص فقط، بل كانت تتمثل في شعب رافض للإحتلال، فهي إذن إرادة جماعية تلقائية لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى زعامة أو قيادة.

المرحلة الثانية: - (ما بين 1848 — 1871م) وقد تميزت هذه المرحلة بالمقاومة المسلحة التي خرجت من المدن إلى الأرياف والجبال والصحاري، وتمثلت في زعامة المرابطين وشيوخ الزوايا والعلماء والأعيان الذين قادوا هذه الثورات والمقاومات، وذلك أنّه بعدما رسخ الفرنسيون وجودهم على السواحل والمدن وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية أصدرت قرارا في مارس **1848**م ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي، فاتجهت الآلة الإستعمارية نحو المناطق الداخلية والنائية لإتمام عملية الإحتلال الكامل للجزائر، لكنّها اصطدمت في طريقها بالثوار الأحرار الرافضين للإحتلال، فاندلعت عدة ثورات ومقاومات.

المرحلة الثالثة: - وتمتدّ هذه المرحلة إلى آخر القرن التاسع عشر، حيث عرفت البلاد عدة انتفاضات وثورات منها على الخصوص ثورة واحة العامري

بالغروس ناحية بسكرة، وثورة الأوراس وثورة الشيخ بوعمامة ومقاومة أهل تيدكالت وغيرها.

– **مقاومة متيجة:**

بعد أن احتل الفرنسيون الجزائر العاصمة يوم 5 جويلية 1830، انطلقت المقاومة الشعبية المسلحة في متيجة مباشرة كنتيجة لعجز الدفاع والمقاومة الرسمية في العاصمة.

كانت مقاومة أهل متيجة رد فعل مبكر لخطر بات يهددهم بعد سقوط العاصمة في يد الاحتلال الفرنسي [1]، وانهيار السلطة المركزية، بقي الشعب الجزائري أعزلاً أمام جيوش الاحتلال في خضم هذه الظروف، لم يجد شيوخ **أوطان متيجة** الواقعة بين ححوط غربا **وبودواو** شرقا والساحل شمالا والأطلس البليدي جنوبا بدا من تنسيق الجهود بينهم لمقارعة الفرنسيين والحيلولة دون توسعهم داخل أراضي متيجة. عن طريق فرض حصار ومقاطعة اقتصادية. مما أثر سلبا على الاحتلال الفرنسي في العاصمة، ودفع بهم إلى محاولة تكسير الحصار. لهذا الغرض قاد قائد الجيش الفرنسي **"دي بورمون"(De Bourmont)** حملة عسكرية على مدينة البليدة لجس نبض السكان وشيوخ قبائل متيجة وذلك في 23 جويلية 1830 وتزامنت هذه الحملة مع انعقاد اجتماع شيوخ قبائل متيجة وقبائل أخرى محاذية لها بقيادة **الشيخ محمد بن زعموم والحاج سيدي السعدي** وأعيان من مدينة الجزائر. تقرر على إثره إعلان الجهاد ضد "الكفرة" الغزاة مع استمرار الحصار والمقاطعة الاقتصادية لمنع الفرنسيين من التموين من أسواق: سوق علي وبوفاريك والبليدة، هذا

الأسلوب الذي أعطى ثماره بإرتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب ندرتها حتى نفذ زاد الفرنسيين، فلا الخضر ولا ألبان ولا لحوم متيجة توفرت في المدينة، "فاشتاقوا قطعة لحم فلم يجدوها إلا في القطط الهائمة من حولهم... ".

ورغم التحذير الذي أرسله الشيخ **محمد بن زعموم** إلى الجنرال **"دي بورمون"** يحذره عواقب القيام بحملة على أوطان متيجة، ويدعوه في نفس الوقت إلى عقد معاهدة ترسم من خلالها العلاقات بين سكان متيجة والجيش الفرنسي في العاصمة، إلا أن الجنرال"دي بورمون" لم يعبأ بهذا العرض حيث قاد حملة تتألف من 1200 جندي وإذا كان قد وصل إلى مدينة البليدة دون حوادث تذكر، فإن عودته لم تكن كذلك حيث اعترضت طريقه قوات أهل متيجة بقيادة **محمد بن زعموم** ووقعت أول معركة بين الجيش الفرنسي وسكان متيجة أسفرت عن مقتل بعض الضباط ومئات الجنود الفرنسيين، وهي أول معركة خاضها الجيش الفرنسي بعد احتلاله العاصمة، وهو أول انتصار تحققه المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، ويذكر الضابط" نيل جوزيف روبان"(**Robin**) في دراساته حول تاريخ أهل الزرارة: " لقد لوحظ لأول مرة نوع من التنظيم في صفوف هؤلاء المتوحشين لما كنا أمام البليدة قابلنا جيش **ابن زعموم** على شكل مستقيم تقريبا، المشاة متمركزين في الجهة الجبلية مشكلين الميسرة والفرسان على الميمنة..."(2)

كان لهذا الانتصار أثره الإيجابي ليس في نفوس سكان متيجة فحسب بل حتى وسط سكان الحضر بالعاصمة إلى درجة أن الجيش الفرنسي بدأ يستعد لمواجهة اضطرابات داخل المدينة، ومنذ وقوع هذه المعركة تغير موقف **الباي**

مصطفى بومزراق فبعدما أعلن ولاءه للفرنسيين، تراجع يوم 21 أوت وأعلن الحرب ضدهم.

- معركة البليدة الثانية:

منذ الهزيمة الأولى عدل الفرنسيون عن فكرة غزو البليدة، إلى أن تولى الجنرال "كلوزيل" (Clauzel) الحكم في الجزائر خلفا للقائد العام **"دي بورمون"** في شهر أغسطس 1830م، قاد حملة ثانية على مدينة البليدة وأخرى ضد المدية، لتكسير الحصار، من جهة، ورد الاعتبار للقوات الفرنسية بعد الهزيمة الأولى، وتاديب **الباي مصطفى بومزراق**، من جهة ثانية (3).

شارك القائد العام" **كلوزيل**" شخصيا في هذه الحملة التي أوكل قيادتها للضابط "**بوايه**"(Boyer)، حيث انطلقت الحملة يوم 17 نوفمبر 1830 لتصل إلى البليدة في اليوم الموالي، وأحدثت فيها مجزرة رهيبة، بعد أن تعقب جنوده الأهالي العزل في الأنهج والأزقة وفي كل مكان، وأمرهم بحرق منازلهم ونهب المواد الغذائية لتغذية جيشه المحاصر، الذي كاد يهلك من الجوع؛ ولما رأى "**كلوزيل**" ما للمسجد من أهمية في تحريك نفوس المسلمين، استولى على هذا المكان المقدس وحوله إلى مستشفى عسكري، وبعد أن أحكم الجنرال **كلوزيل** قبضته على المدينة، أقام فيها حامية عسكرية، ثم اتجه في 21 من نفس الشهر إلى المدية، وما إن وصل إلى مضيق شفة حتى باغته أتباع الباي بومزراق واشتبكوا معه في معركة أسفرت عن مصرع 3 ضباط فرنسيين و24 جندي بالإضافة إلى جرح 80 من الفرنسيين.

لكن رغم ذلك، استطاع "**كلوزيل**" الوصول إلى مدينة المدية وعين **مصطفى بن الحاج عمر** عليها وكان من التجار الكبار وصاحب ثروة هائلة، وله العديد من الخدم، ولم يكن من أصحاب القيادة ولا الحكم لكنّ أعضاء بلدية الجزائر قد نصحوا "**كلوزيل**" به، فعيّنه باياً على بايليك التيطري مكان **مصطفى بومزراق**، وقد رافق ابن عمر حملة كلوزيل إلى المدية وهناك ترك له حامية من ألف ومائتي جندي بدون ذخيرة، وفي الوقت الذي كان فيه "**كلوزيل** " في المدية، شن **الحسين بن محمد بن زعموم** هجوما على الحامية الفرنسية المرابطة في البليدة بعد أن جمع فرسانا ومشاة من قبائل الخشنة وبني مصرة، وبني موسى وبني خليل، وكان قد قسم رجاله إلى مجموعتين، اتجهت واحدة إلى البليدة متخذة سفح الجبل طريقا لها وأخرى شقت طريقها وسط السهل لتقطع المدد على الحامية قرب بوفاريك، وتمكنت هذه المجموعة الأخيرة من القضاء على عدد من الفرنسيين كانوا يحملون المدد والذخيرة للحامية المتواجدة بالبليدة، واستحوذوا على سلاحها، ثم تابعت قوات **الحسين بن محمد بن زعموم** سيرها إلى أن وصلت يوم 22 نوفمبر إلى البليدة وشرعت في تطويق المدينة إلى جانب اعتمادها أسلوب المناوشات. وفي 26 نوفمبر اقتحمت المدينة بحوالي 6 إلى 7 آلاف مقاوم حسب المصادر الفرنسية، ولولا الخدعة التي لجأ إليها قائد الحامية "**روليرِ**" والمتمثلة في إيجاد ثغرة تمكن من خلالها مع فرقة من جنده الالتفاف وراء سور المدينة أين باغت قوات **ابن زعموم** من الخلف مما أربك المقاومين حتى ظنوا أن قوات "**كلوزيل**" قد داهمتهم فانسحبوا بعد خمس ساعات من القتال سقط خلالها تسعة عشر فرنسيا وجرح خمسة وخمسون، في

حين تذكر المصادر الفرنسية استشهاد أربعمائة مجاهد. ويظهر جليا أن نوعية الأسلحة التي بحوزة الفرنسيين كان لها الأثر السلبي على المقاومين، الذين كانت عدتهم تنحصر في السيوف والحراب وبعض البنادق التقليدية ذات النمط العثماني، أو على الشاكلة التي كانت قبائل فليسة تشتهر بصناعتها، أو التي يستحوذون عليها من العدو الفرنسي وتلك التي كانت تهرب من مدينة الجزائر بواسطة الأعيان الحضر. ورغم التفوق من حيث العدد فإن الإرادة والثقة بالله والدفاع عن الشرف ورفع الظلم كان أقوى من هذه الأسلحة للتعبير عن رفض الاستعمار.

بعد عودة "كلوزيل" من المدية، وأمام الضربات التي ألحقها المقاومون لا سيما في 27 نوفمبر 1830، قرر سحب جنده نحو مدينة الجزائر بعد أن انتقم مرة أخرى من السكان العزل. وهكذا باءت بالفشل محاولة فرنسا الثانية لتوسيع دائرة نفوذها خارج مدينة الجزائر.[4] في حين انتقل مقاومو متيجة من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، فاعتمدوا أسلوب الكر والفر في شكل فرق صغيرة والإغارة على بعض المزارع التي بدأ الكولون يقيمونها في ضواحي العاصمة، الأمر الذي جعل الفرنسيين على عهد الجنرال "**بيرتزين**" **(BERTHEZENE)** (تولى الحكم في20 فبراير1831م) يعتمدون سياسة التهدئة[5]، فقام "**بيرتزين**" بسحب حاميته من المدية تحت ضربات **أحمد بن الباي بومزراق**، وعين **الحاج محي الدين بن الصغير بن سيدى المبارك** (رجل دين وورع وصاحب زاوية في القليعة) في منصب آغا العرب، لما لهذه الشخصية من نفوذ وتأثير على سكان متيجة، وحتى يكون واسطة بين سكان

متيجة والحاكم الفرنسي، إلا أن هذه السياسة لم تعمر طويلا بمجيء الدوق "روفيقو" في شهر ديسمبر 1831م خلفا لـ"بيرتزين"، وقد اتسم عهده بالقهر والغطرسة، سعيا منه لسحق المقاومة بجميع الطرق بما فيها الإبادة الجماعية واغتيال شيوخ القبائل حتى بعد إعطائهم الأمان مكتوبا كما هو الشأن مع ما وقع لقائد بني خليل الشيخ العربي بن موسى، وقائد وطن السبت الشيخ عبد الوادي، حيث استدرجهما بحجة وفد عن أهل متيجة يرأسه الشيخ محي الدين آغا العرب للتحاور معهم، إلا أنه في الأخير أمر بقطع رأسيهما، ناهيك عن المجزرة التي ارتكبها في حق قبيلة العوفية، بعد أن أغار عليها ليلا بحجة اعتدائها على وفد فرحات بن سعيد في ليلة 07 أفريل 1832. وإن كان الفرنسيون قد اعترفوا فيما بعد أن هذه القبيلة بريئة من التهمة الملفقة لها [6]، إلا أن هذه الأعمال الوحشية ستبقى وصمة عار في سجل الجيش الفرنسي، وواحدة من جرائم فرنسا الاستعمارية، غير أن ذلك لم يثن من عزيمة المقاومين بل زادهم إيمانا بالنصر أو الشهادة، سيما بعد أن انضم الشيخ الحاج محي الدين آغا العرب إلى زعماء المقاومة.

اغتنم المقاومون بزعامة الحسين بن زعموم فرصة خروج فرقة من الجيش الفرنسي إلى الجهة الشرقية من متيجة، فانقضوا عليها بعد أن نصبوا لها كمينا قتل على إثره 37 جنديا من اللفيف الأجنبي، فحاول الفرنسيون تطويق المقاومين برا وبحرا، فتم إنزال الجنود بحرا في جهة يسر إلا أن المقاومين أفشلوا الإنزال وعاد الجنرال بوشي خائبا. استمرت المقاومة بزعامة الحاج سيدي السعدي وبن زعموم يحرضان على الجهاد [7]، ففي نهاية سبتمبر 1832 عقدا

تجمعا شعبيا لشحذ الهمم والتحريض على القتال قرب بوفاريك في المكان المسمى سوق علي، وأمام انتشار خبر هذا التجمع أرسل **الدوق "روفيقو"** حملة عسكرية في 02 أكتوبر 1832م بقيادة الجنرال"فودوواس" **(Fodoas)** إلى عين المكان، وأخرى إلى القليعة بقيادة الجنرال **بروسار**، وحتى يتجنب المقاومون المواجهة المباشرة مع العدو اعتمدوا خطة نصب الكمائن واستدراج الخصم إلى المروج والمستنقعات، فباغتوا جند الاحتلال بالقرب من قبة سيدي عايد بضواحي بوفاريك، وزرعوا فيهم الذعر والهلع، وسقط من الفرنسيين مائة جندي (حسب المصادر الفرنسية) وتكرر الاشتباك في اليوم الموالي حيث اضطر الفرنسيون لسحب قواهم إلى بئر خادم، في حين نالت حملة القليعة من السكان العزل، وفرضت عليهم غرامة مالية وأسرت أفرادا من عائلة **الشيخ محي الدين بن مبارك** كرهائن. هكذا استمر الوضع على حاله، حتى تمكنت الإدارة الفرنسية من اختراق الصفوف داخل القبائل والأوطان فعينت قيادا موالين لها، وزرعت الحقد بين بعض الشيوخ ضعاف النفوس، كما نجحت في إقامة مراكز عسكرية أمامية جديدة وكانت هذه العوامل مجتمعة وغيرها سببا في انحصار المقاومة في الجهة الشرقية من متيجة حيث المنطقة الجبلية، إلا أن الانتصارات التي حققها **الأمير عبد القادر**، وعقده معاهدة **دي ميشال**، واستيلائه على مدينة المدية، أعاد الأمل من جديد لأهل متيجة فسارع الشيخ السعدي لمقابلة **الأمير عبد القادر** بالمدية فولاه خليفة له على متيجة والجهة الشرقية واستمر الحاج السعدي يؤجج نار المقاومة رغم الفتور الذي ساد على عهد الجنرال **"الكونت ديرلون"** الذي فشل في احتلال البليدة واكتفى بإقامة

الحصون الأمامية في الدويرة، بوفاريك، وبعد أن اشتدت المقاومـــة في الغـــرب الجزائري على يد الأمير عبد القادر تراجعت وتيرة الحملات الفرنـــسية علـــى البليدة.

ففي بداية أكتوبر 1835م هاجمت قبائل بني صالح وحجوط وأوطان متيجة المركز العسكري ببوفاريك، مما جعل "**كلوزيل**" يثأر لقتلاه يوم 21 أكتوبر من سكان البليدة فقام بحرق دورها ونهب الأملاك ليعود بعدها إلى العاصمة.

وفي 30 مارس 1836م حاول "**كلوزيل**" شن حملة على المديـــة، إلا أنـــه اصطدم مرة أخرى بمقاومة عنيفة من لدن قبائل متيجة في مواقع ثنيـــة موزايـــة ووادي شفة، حيث المناطق الجبلية الوعرة، فقبائل متيجة لم تحم سهول متيجـــة فحسب، بل حالت دون إحكام السيطرة الفرنسية على المدية. ففي شهر أفريل من عام 1836 وقعت سلسلة من الاشتباكات دامت ثلاثة أيام.

وإلى غاية هذه الفترة لم تتمكن فرنسا من فرض وجودهـــا إلا في بعـــض النقاط **كبوفاريك والدويرة**، ومركز أولاديعيش.

وفي عهد الجنرال "**دامريمون**"(**DAMREMONT**) الذي خلف "**كلوزيل**" بعد أن قدم استقالته حين فشل في حملته على قسنطينة 1836م، حاول احتلال البليدة نهائيا فجمع قواتـــه في بوفاريك وسار نحـــو البليـــدة في 1837/04/29 فحاصرها بعد أن قسم جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى تحاصر المدينة من الجهـــة اليمنى والثانية من الجهة اليسرى وثالثة تقتحم المدينة من الوسط. ورغم المقاومة استطاع الجنرال "**دامريمون**" دخول المدينة، وأمر جنده بقطع كـــل الأشـــجار والبساتين وقد كلفته العملية خسائر بشرية، أجبرته على الانـــسحاب نحـــو

بوفاريك وبتوقيع معاهدة التافنة 30 ماي 1837م قـــرر المارشـــال "**فـــالي**" (**Valée**) فرض سيطرته نهائيا على البليدة [8].

- احتلال البليدة:

بعد أن تم احتلال قسنطينة، تفرغت القوات الفرنسية لمنطقة متيجة، بأن قاد المارشال شخصيا حملة على قبائل بني صالح وبني مصرة وحجوط، المرابطة حول مدينة البليدة. وفي 3ماي 1838م وصلت قواته إلى مشارف البليـــدة، ورغـــم محاولة شيوخ المدينة أمثال محمد بن عمروش وبعض علمائها مثل **سيدي محمد بن إبراهيم** إقناع المارشال بعدم دخول المدينة لكنه لم يبال بـــذلك وأصـــدر أوامره لإقامة مركزين عسكريين الأول في جوانفيل الذي تحول منذ 1843م إلى قرية استيطانية تحت اسم جوانفيل (زبانة حاليا) ومركزًا آخر تحول إلى حـــي استيطاني وهو ميدان البرتقال الذي أصبح يحمـــل اســـم (**Montpensier**) 1843م (بن بوالعيد حاليا).

وضع المركزان تحت قيادة الجنرال "قالبوا " (**Galbois**) ودعمـــا بنقـــاط عسكرية أخرى عند مدخل **ميـــدان مـــارس** (**Champ de Mars**)، بـــاب الرحبة، كدية ميمش حتى يتسنى للفرنسيين السيطرة على مجاري مياه ســـيدي الكبير.

وعلى إثر نقض معاهدة التافنة اشتدت المقاومة في متيجة بتدعيم من خليفتي الأمير في المدية ومليانة، في هذه الأثناء تمت مهاجمة القرى الاستيطانية في بـــني موسى وخميس الخنشنة وبني خليل وأجبروا المعمرين على تركها وتم القـــضاء

على بعضهم في حوش خيدر وحوش الخزناجي وحوش خضرة وبابا علي وشبلي.

وبشهادة الفرنسيين أنه على اثر هذه العمليات لم تبق أية قرية استيطانية تحت السيطرة الفرنسية عدا المراكز العسكرية الآنفة الذكر.

وأمام هذا التصعيد، اضطر الفرنسيون الى إخلاء معسكر ميمش يوم 25 نوفمبر ثم مركز سيدي خليفة في 28 نوفمبر، ثم العين الحمرة ووادي العلايق يوم 4 ديسمبر. بعدها تجمعت قوات العدو في البليدة وجوانفيل تحت قيادة الجنرال"جينيبه" (Ginirer)ثم انسحبوا من مركز أولاد يعيش — تحت قيادة الكولونيل"شانقاني" (Changarnie) — باتجاه بوفاريك.

وبوصول الإمدادات بقيادة الجنرال"روييه"(Rullier) يوم 14 ديسمبر إلى البليدة، حاول رجال المقاومة قطع الطريق أمام هذه القوات ما بين بوفاريك وبني مراد حيث وقع اشتباك قتل فيه 5 فرنسيينوجرح 20 آخرين، بينما تذكر المصادر الفرنسية[10] سقوط 40 من رجال المقاومة المرابطين والمتحكمين في مجاري المياه حيث أضحى معسكر العدو بجوانفيل بدون ماء مدة تزيد عن الأسبوع، مما جعل القوات الفرنسية تخوض معارك بالقرب من وادي سيدي الكبير للتحكم في مجاري المياه.

و في 16 ديسمبر دعّم المقاومون بمدفعين من المدية مما شجع المقاومة على مهاجمة الفرنسيين في البليدة حيث تم قتل 12 فرنسيا، وفي الأسبوع الموالي جرت معركة أخرى خسر فيها الفرنسيون 8 قتلى و30 جريحا، كما تم قطع الاتصال بين البليدة ومعسكر جوانفيل. ولطلب الإمدادات، بعث

الكولونيل"جونتي" (GENTIL) الغريف"بورديس" (Bourdis)ليلا إلى بوفاريك ولما علم الماريشال فالي بالوضع جمع قواته في الدويرة تحت قيادة" روستولون"(ROSTOLAN) يوم 1839/12/29م، وقضى ليلة في بوفاريك ومنها انتقل مع فرقة إلى جوانفيل عبر وادي العلايق وفي اليوم الموالي وصلت بقية القوات إلى جوانفيل حيث استطاعت رفع الحصار.

- معركة وادي العلايق ديسمبر 1839 م:

في الوقت الذي كان فيه قسم من رجال المقاومة (بني مصرة، بني صالح وسكان المداشر الجبلية) يحاصرون المدينة، هاجمت بمجموعة أخرى ناحية خميس خشنة وبني موسى من الناحية الشرقية، الفرق الفرنسية المتواجدة في بوفاريك ووادي العلايق، في حين وصلت قوات من قبائل حجوط من الناحية الغربية، وفي وادي العلايق دارت معركة أسفرت عن مصرع 30 فرنسي، في حين سقط 600 مقاوم. وفي مصادر أخرى قدرت الخسائر البشرية بـ1800 قتيل. وقد قاد المارشال حملة في الجهة الغربية من متيجة احتل على اثرها مدينة شرشال في 15 مارس 1840م، في حين اتجهت حملات أخرى عبر موزاية والعفرون، ووادي جر، بومدفع انتهت باستيلاء القوات الفرنسية على مليانة. ويعترف الفرنسيون أنهم بين سنوات 1839 ــ 1842 لم يعرفوا طعم الراحة جراء الهجومات المتتالية [11].

إن المنطقة رغم قربها من العاصمة وأهميتها الاقتصادية والجيوستراتيجية لم تتمكن فرنسا من السيطرة عليها إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

الإحالات:

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1900، الجزء الأول، بيروت، 1992، ص:118-129.

(2) Nil-Joseph ROBIN, «Notes historiques sur la grande Kabylie» de 1830 à 1851, «in Revue Africaine», n° 46 1902, pp. 213-262 .

(3) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق الدكتور العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، ص:247-268.

(4) عبد الجليل التميمي "... اتفاق كلوزيل – باي تونس "، المجلة التاريخية المغربية، تونس، يناير 1980. أنظر كذلك: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في تاريخ المغربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

(5) إبراهيم مياسي، " نهب الأوقاف الجزائرية "، جريدة البصائر، أعداد، 75 –76 – 77، الاثنين 25 رمضان –02 شوال 1422هـ/ 10-17 ديسمبر 2001م، 09-15 شوال 1422هـ/20-30 ديسمبر2001م، و16-23 شوال 1422هـ/31 ديسمبر2001م-07جانفي 2002م. أنظر كذلك: محمد الشريف سيدي موسى، "المقاومة بالمتيجة"، من 1830 – 1834، محاضرة بملتقى (متيجة عبرالتاريخ، 20ماي2001.)، البليدة.

(6) G. YVER , «Si Hamdan ben Othman Khodja», in Revue. Africaine. , n°57 (1913)،pp. 96 –138. –p. 123 .

أنظر كذلك: حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، **المرآة**، (لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر) عربه وقدم له وعلق عليه وفهرسه الدكتورمحمد بن عبد الكريم، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1972، 399صفحة.

(7) الدكتور أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**، [بداية الإحتلال]، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982،

(8) حميدة عميراوي، دورحمدان خوجة، في تطور القضية الجزائرية (1827–1840)، قسنطينة، دار البعث، ص:128–132.

(9) G. ESQUER,«Les debuts de la presse algérienne», in Revue Africaine, n°70 (1925), pp. 254 – 318

(10) Péllissier De Reynaud, Annales Algériennes: ; Tome I; Paris, 1854 .

(11) Charles André JULIEN, Histoire de l'Algérie Contemporaine, Les débuts de la Colonisation (1827-1871), Paris, P. U. F., 1979, p. 382.

ثورة الأمير عبد القادر

تمثل هذه الثورة مرحلة هامة من مراحل الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي في طوره الأول، تحت قيادة الأمير عبد القادر، هذه الشخصية الفذّة التي اكتشفها الشعب الجزائري في أحلك الظروف وأصعبها، ذلك أن الإستعمار الفرنسي حينما قدم إلى الجزائر ادعى بأنّ هدفه هو تأديب الأتراك البغاة وتخليص أهالي الجزائر من حكمهم الجائر، ثمّ أنزل قواته على أرض الجزائر، وبعد معارك ضارية ودامية، وبعد مناورات ومشاورات ودسائس وخيّانات، استسلم الداي، وأمضى معاهدة الجزائر في الخامس من جويلية سنة 1830م، والتي تنصّ على الخصوص احترام حرية الأهالي وعقيدتهم ونسائهم وممتلكاتهم ومتاجرهم، وأن تزول السيادة العثمانية، غير أن فرنسا لم تف بالعهد وقررت احتلال الجزائر احتلالا كاملا، بعد أن داست على العباد والبلاد.

وأمام هذه الأحداث الجسام لم تلعب الدولة العثمانية الدور الحاسم لإنقاذ الجزائر، مما جعل الأهالي وأتراك الجزائر يشعرون بخيبة الأمل ولا يعتمدون على السلطات الرسمية للدفاع عنهم، حيث أخذت سيادة هذه السلطة تذوب وتتناثر في أنحاء البلاد كتناثر أورق الخريف، وعرفت الجزائر فراغا سياسيا أدخلت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب ليس لهما مثيل.

ولما اشتدّ الأمر، وكثر القتل، وعظم الكرب، ألحّ أهل العقد والحل من المرابطين والأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء على الشيخ محي الدين بن مصطفى أن يقبل الأمارة نظرا لنسبه الشريف[1]، وزعامته لمشيخة الطريقة

القادرية، لأنّ الجزائر تعيش في وضع خطير من جراء الفراغ السياسي والهجوم الإستماري؛ اعتذر محي الدين لكبر سنه وبعد إلحاح من العلماء وشيوخ الجهة رشح ابنه عبد القادر قائلا: ... **ولدي عبد القادر شاب تقي، فطين صالح لفصل الخصوم ومداومة الركوب مع كونه نشأ في عبادة ربه، ولا تعتقدوا أني فديت به نفسي، لأنه عضو مني وما أكرهه لنفسي اكرهه له ...غير أني ارتكبت أخف الضررين حين تيقنت الحق فيما قلتموه، مع تيقني أن قيامه به أشد من قيامي وأصلح ...فسخوت لكم به ...".**

لقد فوجئ الجميع بهذا الحل السعيد، فانتشرت البشائر وعمّت الفرحة أرجاء البلاد، ويذكر نجله في كتابه- تحفة الزائر-: "...وتباشر النّاس لذلك، لما رأوا من إقدامه للزحف، واقتحامه الصف بعد الصف، وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية، فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم، وتداعى صغيرهم وكبيرهم، وخيّموا -بوادي فروحة – من غريس عند شجرة الدردارة، وهي شجرة عظيمة، كانوا يجتمعون إليها، للشورى بينهم... " [2].

جلس الأمير عبد القادر تحت الشجرة وقام والده، فبايعه على السمع والطاعة، ودعا له بالخير، ثمّ لقبه "ناصر الدين"، وقام عمّه علي أبي طالب وبايعه، ثمّ الاخوة وسائر الأقارب ولأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء، على حسب مراتبهم وطبقاتهم، وتجدر الإشارة هنا إلى الاتفاق الغريب بين هذه البيعة وبيعة الرضوان، واقتفاء أثر الرسول عليه الصلاة والسلام [3].

وبعد أن انتهت البيعة للأمير، دخل مدينة معسكر، وقد غصت كل الشوارع والطرق بالرجال والنساء والأطفال لتعبر عن سرورها وبهجتها

وترحيبها بسلطانها الشاب الجديد. وفي اليوم الموالي أي 22نوفمبر 1832م ذهب الأمير عبد القادر إلى وادي خصيبة – الذي يبعد بمسافة عشرة دقائق من معسكر– وكان هناك في الإنتظار عشرة آلاف فارس للاستقبال والترحيب بقائدهم المنتخب، كانوا قد اصطفوا في شكل هلال، حسب قبائلهم، حول خيمة ضخمة نصبت وسط السهل، وكان جميع أهالي معسكر قد تجمعوا أيضا في المنطقة فتقدم الموكب الرسمي وسط الزحام الشديد، وترجل الأمير عبد القادر نحو الخيمة ثمّ تقد محي الدين أخذا عبد القادر من يده لتقديمه إلى الشعب، وقال: "انظروا هذا هو السلطان الذي أعلنته النبوءة!" ثمّ أضاف: "هذا هو ابن الزهراء! أطيعوه كما لو كنتم تطيعونني، الله يحفظ السلطان!".؛ فردّ الناس: «حياتنا، وأملاكنا، وكل ما عندنا له!لن نطيع قانونا غير قانون سلطاننا عبد القادر».

وقد أجابهم الأمير على ذلك بقوله: «وأنا بدوري لن أخذ بقانون غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده، فلو أنّ أخي الشقيق قد أحلّ دمه بمخالفة القرآن لمات» (4).

وبعد مراسيم الاحتفال طلب الأمير من عمه علي أبي طالب بن مصطفى أن يحرر له صك البيعة، ثمّ أمر بجلس العلماء أن يكاتبوا رؤساء القبائل في جميع أنحاء البلاد لتبليغهم بأمر البيعة:" وأنّ الإمارة الإسلامية، والقيام بشعائر الملّة المحمدية، قد آل أمرها الآن إلى ناصر الدين السيد عبد القادر بن محي الدين..، وأنّه سوف يطبق الشريعة المطهرة... وقد نشر أيضا راية الجهاد، لصالح البلاد".

بعد انتشار أخبار البيعة الأولى، سارعت الوفود التي تمثل مختلف القبائل إلى المثول أمام الأمير، وما تقاعس إلاّ القليل منهم، وانعقد مجلس عـام، حـضره الجمهور من العلماء والأشراف والرؤساء من كل قبيلة، وقرية، وجرى فيه عقد البيعة الثانية، وقد حررت وثيقة أخرى لهذه البيعة قرئت على المـلإ، وتـولى كتابتها العلامة محمود بن حوى المجاهري بتاريخ 13 رمضان 1248 هجري/ 4 فبراير 1832م؛ وفيها انتقلت السلطة في الجزائر إلى الأمير عبد القادر ليس عـن طريق الوراثة أو التعيين وإنما عن طريق الانتخاب والبيعة ورضـى الأهـالي، وبذلك تعتبر سلطة الأمير سلطة شرعية قانونية، لأنه قد وضع بهـذا الإجـراء الحجر الأساسي لبناء دولة الجزائر المعاصرة على أسس ثابتة وقواعد سليمة، ثمّ أنّ الأمير قد أكّد أيضا استمرارية سيادة الدولة الجزائرية، ولكنّهـا في ثـوب جديد متمثل في عناصر جزائرية أكثر ارتباطا بالوطن، وأحرص اهتماما بشؤون الأهالي، وبذلك انتهى دور العناصر العثمانية ليحل محلها العناصر الوطنية.

في هذه الظروف تحمل الأمير مسؤولية الجهاد والدفاع عن الرعيـة وديار الإسلام وهو في عنفوان شبابه. وما يميز هذه المرحلة، انتـصاراته العـسكرية والسياسية، التي جعلت العدو الفرنسي يتـــردد في انتهاج سياسة توسعية أمام استماتة المقاومة في الغرب والوسط من جهة، ورفض أحمد باي في الشرق الجزائري لكل العروض الفرنسية الهادفة إلى استمالته، ففي الميدان العسكري، أدرك الأمير عبد القادر منذ البداية أن المواجهة لن تتم إلا بإحـداث جـيش نظامي مواظب تحت نفقة الدولة.

ويمكن تقسيم المقاومة إلى ثلاث فترات:

أ- فترة القوة: 1832 ــ 1837

و فيها تمكن الأمير من:

- بسط نفوذه على مختلف القبائل وإخضاعها حتى يتسنى لـه مواجهـة الفرنسيين بجبهة قوية.
- معسكر عاصمة له واستيلائه على ميناء أرزيو.
- اعتماد حرب العصابات.
- بناء جيش نظامي من ثلاثة أصناف: المشاة- الفرسان- المدفعية.
- توحيد اللباس وإصدار الأوامر والقوانين العسكرية الدالـة على الانضباط والصرامـة في المؤسسة العسكرية.
- وضع سلم تسلسلي للرتب العسكرية على النحو التـالي: رقيـب ــ رئيس الصف ــ السياف ــ الآغا.
- قسم الوحدات الأساسية في الجيش النظامي إلى كتائب وتضم الكتيبة الواحدة مائة جندي.
- وسـع دائرة نفوذه إلى أنحاء أخرى من الوطن شملت جزءا كبيرا مـن إقليم تلمسان ومليانة والتيطري (المدية).
- ابرم معاهدة مع الجنرال دي ميشال في 26 فبرايـر 1834، غـير أن خليفته الجنرال تريزيل منذ عام 1835، لم يحترمها وحاول إيجاد الفرصة لمعاودة قتال الأمير ونقض معاهدة الصلح. وفعلا اغتنم فرصـة لجـوء قبائل الدوائر والزمالة إليه، فطلب الأمير من تريزل أن يرفع حمايته عن

هذه القبائل ليعيدها إلى سلطته، إلا أن هذا الأخير رفض. فدخل الفريقان في حرب حيث التقيا في حوش غابة مولاي إسماعيل قرب مدينة سيق يوم 26جوان 1835 وجرت بينهما معركة سيق، انهزم فيها الفرنسيون. ثم التقيا من جديد في معركة المقطع تكبدت فيها القوات الفرنسية هزيمة نكراء ترتبت عنها انعكاسات وآثار منها:

1- عزل الحاكم العام ديرلون والجنرال تريزل.

2- تعيين الماريشال كلوزال حاكما عاما على الجزائر في جويلية 1835 وإرسال قوات كبيرة لمواجهة الأمير.

قام كلوزيل بمهاجمة معسكر عاصمة الأمير، إلا أنه وجدها خالية فغادرها إلى تلمسان التي احتلها لكن جيوش **الأمير** بقيت تسيطر على الطريق بينها وبين وهران، فأصبح الجيش الفرنسي محاصرا داخل أسوار المدينة. ولرفع الحصار عن الجيش الفرنسي، قاد الجنرال بيجو حملة عسكرية كبيرة حقق انتصارا كبيرا في موقعة وادي السكاك سنة 1836 إلا أنه فضل مهادنة الأمير مؤقتا ووقع معاهدة وادي التافنة يوم 30 ماي 1837 وهذا من أجل تحقيق الأغراض الآتية:

- التفرغ للقضاء على مقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري.
- إعداد فرق عسكرية خاصة بحرب الجبال.
- فك الحصار عن المراكز الفرنسية.
- انتظار وصول التموينات والإمدادات العسكرية من فرنسا.

ب– مرحلة الهدوء المؤقت: 1837 – 1839:

استغل الأمير عبد القادر معاهدة التافنة لتعزيز قواته العسكرية وتنظيم حكومته من خلال الإصلاحات الإدارية والعسكرية الآتية:

1- تشكيل مجلس وزاري مصغر يضم رئيس الوزراء، نائب الرئيس، وزير الخارجية، وزير الخزينة الخاصة ووزير الأوقاف – وزير الأعشار، الزكاة، ثم الوزراء الكتبة وهم ثلاثة حسب الحاجة واتخذت هذه الوزارة من مدينة معسكر عاصمة لها.
2- تأسيس مجلس الشورى الأميري ويتكون من 11 عضوا يمثلون مناطق مختلفة.
3- تقسيم البلاد إلى ثماني ولايات وكل ولاية يحكمها خليفة، وقسم الولاية إلى عدة دوائر ووضع على كل دائرة قائدا يدعى آغا وتضم الدائرة عددا من القبائل يحكمها قائد، ويتبع القائد مسؤول إداري يحمل لقب شيخ.
4- تنظيم الميزانية وفق مبدأ الزكاة وفرض ضرائب إضافية لتغطية نفقات الجهاد.
5- تدعيم القوة العسكرية بإقامة ورشات للأسلحة والذخيرة وبناء الحصون على مشارف الصحراء.
6- تصميم علم وطني وشعار رسمي للدولة.
7- ربط علاقات دبلوماسية مع بعض الدول.

ج- المرحلة الصعبة من المقاومة 1839 ـــ 1847:

بادر المارشال فالي إلى خرق معاهدة التافنة بعبور قواته الأراضي التابعة للأمير وبدأت الكفة ترجع لصالح العدو بعد استيلائه على عاصمة الأمير تاقدامت 1841، ثم سقوط الزمالة ـــ عاصمة الأمير المتنقلة ـــ سنة 1843 وعلى إثر ذلك اتجه الأمير إلى المغرب في أكتوبر عام 1843 الذي ناصره في أول الأمر ثم اضطر إلى التخلي عنه على إثر قصف الأسطول الفرنسي لمدينة طنجة والصويرة، الأمر الذي حدا به إلى العودة إلى الجزائر في سبتمبر 1845 محاولا تنظيم المقاومة من جديد، إلا أنه لم يوفق في ذلك خاصة بعد فقدان أبرز أعوانه، ففكر في عبور الحدود مرة أخرى إلا أن السلطان المغربي تحت تأثير التهديد الفرنسي أرغمه على مغادرة البلاد. وباشتداد الحصار عليه، لم يجد بدا من الهدنة الذي عرضها على القائد الفرنسي **لامورسيير** شريطة السماح له بالخروج حيث يشاء، لكن السلطات الفرنسية لم تلتزم بالعهد فزجت به في سجن لا مبواز لمدة خمس سنوات ثم أطلق سراحه، فاختار الهجرة مع عدد من أسرته وأنصاره، وأمضى بقية حياته في دمشق حتى أدركته المنية في عام 1883..

إنجازات الأمير السياسية:

أما سياسيا فقد افتك من العدو الاعتراف به، والتعامل معه كصاحب سيادة، يتضح ذلك في معاهدتي ديميشال 26 فبراير 1834، والتافنة في 30 ماي 1837. إلا أن تغير موازين القوى، داخليا وإقليميا أثر سلبا على مجريات مقاومة الأمير، فلم يعد ينازل الفرنسيين فحسب بل انشغل أيضا بأولئك الذين قصرت

أنظارهم، فتوالت النكسات خاصة بعد أن انتهج الفرنسيون أسلوب الأرض المحروقة، كما هي مفهومة من عبارة الحاكم العام الجنرال بيجو: "لن تحرثوا الأرض، وإذا حرثتموها فلن تزرعوها، وإذا زرعتموها فلن تحصدوها. "

تنظيم دولة الأمير:

فبعد مبايعة **الأمير عبد القادر** في 27 نوفمبر 1832، وهو في عز شبابه، شرع في وضع مشروع بناء دولة حديثة[5]، فكانت حياته مليئة بالإنجازات العسكرية والسياسية والحضارية.

بعد مبايعته الثانية (العامة)، رأى من الضروري تنظيم دولته إداريا وعسكريًا، وتوحيد صفوف الشعب الجزائري في كنف دولة حديثة في إطار المبادئ الإسلامية، وتوجيهه نحو الهدف الأسمى ألا وهو (الجهاد في سبيل الله)، متخذا من معسكر عاصمة لدولته[6] ومقراً لحكمه، إذ شكل جهازا إداريا مركزيا من حكومة تضم مجلسا شوريا، ووزارات ـــ يعبر عنها بالنظارات ـــ، وأجهزة أخرى [7].

الادارة المركزية:

تضم النظارات وديوان الانشاء والمراسلات، المجلس الشوري الأميري، والحجابة ووظائف أخرى استوزر **محمد بن العربي** وأسند نظارة شوون الخارجية إلى:

- **أبي محمد الحاج الميلود بن عراش**
- **الحاج الطاهر أبو زيد** ناظرا على الأوقاف.

- **الحاج أبي محمد الجيلاني** على رأس نظارة الأعشار والزكاة.
- الحاج الجيلاني بن فريحة ناظرا للخزينة، واستكتب ابن عمه أحمد بن أبي طالب والحاج محمد الخروبي. أما الحجابة فقد كلف بها محمد بن علي الرحاوي.

أ- **المجلس الشورى العالي الأميري**: يضم أحد عشر عضوا من كبار العلماء والأعيان يرأسهم قاضي القضاة أحمد الهاشمي المراحي، وهو ينوب عن الأمير، يناقش المجلس القضايا ويصدر بشأنها الأحكام وله سجل خاص.

ب- تقسيم المقاطعات إداريا بلغت في أوج قوته ثمانية أقاليم إدارية:

قسم الأمير كل مقاطعة (ولاية) إلى آغاليك (دوائر)، وعين على رأس كل دائرة قائدا بتسمية "آغا"، وكل دائرة إلى مجموعة قبائل، لكل واحدة منها قائد، وشيخا على كل عرش ودوار.

يدير المقاطعة ـــ في نظام الأمير ـــ خليفة يعين من قبل الأمير شخصيا، يضع الأمير تحت إمرة الخليفة **وحدات من الجيش النظامي** من فرسان ومشاة، مدة حكمه غير محددة زمنيا، يساعده مجلس شوري محلي بمثابة امتداد للمجلس الشوري المركزي، وللخليفة صلاحيات واسعة منها جباية الضرائب والحفاظ على الأمن العام في نطاق مقاطعته، كما يؤدي دور الوساطة بين الأمير والآغا على مستوى الدائرة والذي يعين لمدة سنة من قبل الخليفة، وفي بعض الأحيان يعين من طرف الأمير، ويمكن تمديد مهامه وللآغا صلاحيات أخرى منها تعيين القائد في القبيلة لمدة سنة كذلك، وفي أسفل الهرم

نجد شيخ القبيلة والذي يعين بالانتخاب ومهمته الحفاظ على الأمن والنظام في حدود نطاق عرشه.

التقسيم الإداري لدولة الأمير عبد القادر[8]:

الخليفة	المقاطعة
- **محمد بن فريحة المهاجي** ثم خلفه - **الحاج مصطفى بن أحمد التهامي**	معسكر العاصمة الأولى ولاحقا: تاقدامت - الزمالة
- **محمد البوحميدي الوهاصي**	تلمسان
- **محي الدين بن علال القليعي** ثم خلفه - **محمد بن علال**	مليانة
- **محمد بن محي الدين** ثم خلفه - **محمد البركاني**	التيطري (المدية)
- **محمد بن عبد السلام** ثم خلفه - **محمد بن الخروبي** ومن بعده - **محمد بن عمر العيساوي**	مجانة (سطيف)
- **الحاج العربي بن الحاج عيسى** ثم خلفه - قدور بن عبد الباقي	الصحراء الغربية (الأغواط)

برج حمزة (جرجرة (البويرة))	- احمد الطيب بن سالم
الزيبان (بسكرة)	- فرحات بن سعيد ثم خلفه - بن عزوز، ثم خلفه - محمد الصغير بن عبد الرحمان بن احمد بن الحاج

- النظام العسكري [9]:

ففي الميدان العسكري، أدرك الأمير عبد القادر منذ البداية أن المواجهة لن تتم إلا بإحداث جيش نظامي مواظب تحت نفقة الدولة. وبعد مشاورة مجلسه أصدر بلاغا إلى المواطنين جاء فيه:"ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا **ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين** بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة فمن أراد أن يدخل تحت اللواء المحمدي ويشمله هذا النظام فليسارع إلى الإمارة (مدينة معسكر) لتسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية". فاستجابت له قبائل المنطقة الغربية والجهة الوسطى، والتف الجميع حوله بالطاعة كون منهم **جيشا نظاميا**.

وقد أشرف الأمير بنفسه على الترتيبات الأولى لتنظيم الجيش وقسمه إلى ثلاثة أسلحة

1- الخيالة: وهم الذين يركبون الخيول:

* جعل على رأس كل ألف منهم قائدًا برتبة آغا وكاتب.

* على رأس كل 50 من الخيالة قائد برتبة سياف.

* على رأس كل 20 من الخيالة قائد برتبة رئيس صف.

2- المشاة أو العسكر المحمدي:

* يتشكل جيش المشاة من كتائب عدة يرأسهم آغا.

* تضم كل كتيبة 100 مجاهد يرأسهم قائد بلقب سياف وله كاتب.

* تتشكل كل كتيبة من ثلاث وحدات صغرى.

* تضم كل وحدة صغرى 33 مجاهدا ويرأسهم رئيس قسم أو خيمة.

3- المدفعية أو الرماة أو الطبجية:

* يرأس الرماة قائد يسمى باش طوبجي.

* يدير كل مدفع 12 جنديا.

وقد كان على رأس المشاة أو العسكر المحمدي "آغا" ويحمل أربع علامات من الذهب تميزه عن غيره.

* أما رئيس الخيالة يحمل علامتين من الذهب.

*وأما رئيس المدفعية فيسمى "باش طوبجي" ويحمل علامة واحدة من الفضة يضعها على كتفه.

-توزيع جيش الأمير حسب الأقاليم:

الجهة	الخليفة	المشاة	الفرسان	الطوبجية	غير منتظمين		المجموع
					مشاة	فرسان	
تلمسان	محمد البوحميدي	800 رجل	200	30	4000	8000	13030
معسكر	الحاج مصطفى بن التهامي	1000	200	30	2000	8000	11230
مليانة	محمد بن علال بن مبارك	1200	200	40	4000	5000	10440
المدية	محمد البركاني	600	200	30	2000	4000	6830
برج حمزة وسباو	أحمد بن الطيب بن سالم	300	50		2000	2000	4350
مجانة	محمد عمر العيساوي	300	50				350
الزيبان	الحسن بن عمر	300	50				350
الأغواط ونواحيها الصحراء الغربية	قدور بن عبد الباقي	300	50	30	2000	6000	8380

اعتمد الأمير في تموين جيشه بالأسلحة والذخيرة على ما يلي:

- البنادق التي بحوزة المواطنين والمتطوعين.
- غنائم المعارك.

- الاستيراد من المغرب وإسبانيا وإنجلترا... الخ.
- إقامة ورشات لصناعة الذخيرة والأسلحة مثل مراكز المدية، مليانة، معسكر، تلمسان تاقدامت.
- بناء الحصون والقلاع في كل من سعيدة، سبدو، سباو، بوخرشوفة، تازا، تاقدامت وجلب خبراء وفنيين من جنسيات مختلفة كما اعتمد أيضا على الفارين من الجيش الفرنسي والأسرى.
- وصك العملة التي تعد رمز من رموز السيادة كتب على وجهيها "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه "الآية.

وأقام مصحات للمرضى والجرحى من العساكر تحت إشراف الطبيب أبي عبد الله الزروالي الخبير بالأعشاب.

كان لهذه السياسة أثرها الواضح في تراجع قوة الأمير، لاسيما بعد أن فقد قواعده الخلفية في المغرب الأقصى، بعد أن ضيق عليه عبد الرحمن سلطان المغرب متحججا بالتزامه بنصوص معاهدة "لالا مغنية" وأمر جنده بمطاردة الأمير وأتباعه بما فيه القبائل التي فرت إلى المغرب من بطش جيش الإحتلال.

– المرحلة الثالثة 1848 – 1883: تبدأ هذه المرحلة من توقف ثورة الأمير عبد القادر إلى غاية وفاته.

في 23 ديسمبر 1847 ركب البحر بعد قبول القائد الفرنسي لامورسير بشروطه، نقله إلى طولون، وكان الأمير يأمل أن يذهب إلى الإسكندرية أو عكا كما هو متفق عليه مع القادة الفرنسين، ولكن أمله خاب ولم يف الفرنسيون بوعدهم ككل مرة، عندها تمنى الأمير الموت في ساحة الوغى على أن يحدث له

ذلك وقد عبّر عن أسفه هذا بهذه الكلمات "**لو كنا نعلم ان الحال يؤدي إلى ما آل إليه، لم نترك القتال حتى ينقضي الأجل**" وبعدها نقل الأمير وعائلته إلى الإقامة في "لازاريت" ومنها إلى حصن "لامالغ" بتاريخ 10 جانفي 1848 ولما اكتمل عدد المعتقلين من أفراد عائلته وأعوانه نقل الأمير إلى مدينة "بو" PAU في نهاية شهر أفريل من نفس العام، ليستقر بها إلى حين نقل إلى آمبواز. في 16 أكتوبر 1852 أطلق نابليون الثالث سراحه.

استقر الأمير في استانبول[10]، وخلال إقامته زار ضريح أبي أيوب الأنصاري ووقف في جامع آيا صوفيا، إلا أنه فضل الإقامة في مدينة بورصة لتاريخها العريق ومناظرها الجميلة ومعالمها الأثرية، لكنه لم يبق فيها طويلا نتيجة الهزات الأرضية التي كانت تضرب المنطقة من حين لآخر، فانتقل إلى دمشق عام 1855 بتفويض من السلطان العثماني وفيها تفرغ للقراءة والتصوف والفقه والحديث والتفسير. وأهم المواقف الإنسانية[11] التي سجلت للأمير، تصديه للفتنة الطائفية التي وقعت في الشام عام 1860.

أصبح الأمير شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام في كل مكان يذهب إليه حيث دعي لحضور احتفال تدشين قناة السويس عام 1869.

توفي يوم 26 ماي 1883 في دمر ضواحي دمشق عن عمر يناهز 76 سنة، دفن بجوار ضريح الشيخ محي الدين بن عربي الأندلسي، ونقل جثمانه إلى الجزائر في عام 1966.

من مؤلفاته[12]:

1- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.

2- المقراض الحاد (لقطع اللسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد).

3- مذكرات الأمير عبد القادر.

4- المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.

الإحالات:

(1) هو محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد ابن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمّه فاطمة الزهراء بنت سيّد الوجود محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، أنظر: عبد الرحمان بن محمد الفاسي، جوهرة العقول في ذكر آل الرسول...، وذكره كذلك، الونشريسي صاحب، المعيار.

(2) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، طبعة ثانية، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت، ص:155.

(3) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974، ص:54 – 56.

(4) نفس المصدر، ص:58 — 59.

(5) *A. BENACHENHOU, L'état algérien en 1830 ses institutions sous l'Emir Abdelkader،Alger,S. D. ,p. 70 .*

أنظر أيضا: إبراهيم مياسي، « بناء دولة الأمير عبد القادر»، جريدة المساء، الأحد 08 صفر 1409هـ/08 سبتمبر1988م، العدد 921. القسم الثاني، الثلاثاء 10صفر1409هـ/10 سبتمبر1988م.

(6) *Adrien BERBRUGGER, Relation de l'Expédition de Mascara ,Paris, 1936 .*

(7) الكولونيل اسكوت، مذكرات الكولونيل اسكوت، عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1941، ترجمة وتعليق، إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

(8) *Paul AZAN* ***L'EMIR ABDELKADER***, *1808 / 1883 mParis,Hachette,1925,p. 131*

(9) قدور بن رويلة، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تقديموتحقيق، محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968.

(10) مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق د. محمد الصغير بناني، د. محفوظ سماتي، د. محمد الصالح الجون، الطبعة الثالثة، الجزائر، شركة دار الأمة، 1998،

(11) الدكتور محمد ناصر، منتخبات من شعر الأمير عبد القادر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

(12) فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

خلفاء الأمير عبد القادر بالزيبان

تقديم:

لقد عرفت الجزائر عبر تاريخها العريق، عدة شخصيات فـــذة، تـــستحق الإشادة والتنويه بها لما قدمته من أعمال جليلة وتضحيات جسيمة، تبقى خالدة في مخزون الذاكرة الشعبية، ومسجلة على صفحات التاريخ، ومن أبـــرز هـــذه الشخصيات، الأمير عبد القادر وخلفائه، والذين اكتشفهم الشعب الجزائري في أحلك الظروف وأصعبها؛ حينما رفعوا لواء الجهاد في المرحلة الأولى من كفاح الشعب.

ذلك أن الاستعمار الفرنسي حينما قدم إلى الجزائر ادعى بأنّ هدفـــه هـــو تأديب الأتراك البغاة وتخليص أهالي الجزائر من حكمهم الجائر، ثمّ نزلت القوات الفرنسية إلى أرض الجزائر، وبعد معارك ضارية ودامـيـــة، وبعـــد مـنـــاورات ومشاورات ودسائس وخيّانات، استسلم الداي، وأمضى إتفاقيـــة الجزائـــر في الخامس من جويلية سنة 1830م، والتي تنصّ على الخصوص احتـــرام حريـــة الأهالي وعقيدتهم ونسائهم وممتلكاتهم ومتاجرهم، وأن تزول السيادة العثمانية، غير أن فرنسا لم تف بالعهد وقررت احتلال الجزائر احتلالا كـــاملا، بعـــد أن داست على العباد والبلاد.

وأمام هذه الأحداث الجسام لم تلعب الدولة العثمانية الدور الحاسم لإنقاذ الجزائر، مما جعل الأهالي وأتراك الجزائر يشعرون بخيبة الأمل ولا يعتمدون على السلطات الرسمية للدفاع عنهم، حيث أخذت سيادة هذه السلطة تذوب وتتناثر

في أنحاء البلاد كأورق الخريف، ودخلت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب ليس لهما مثيل.

شرعية الأمير عبد القادر في تولية البلاد وأمر الجهاد:

ولما اشتدّ الأمر، وكثر القتل، وعظم الكرب، ألحّ أهل العقد والحل من المرابطين والأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء على الشيخ محي الدين بن مصطفى أن يقبل الأمارة نظرا لنسبه الشريف[1]، وزعامته لمشيخة الطريقة القادرية، لأنّ الجزائر تعيش في وضع خطير من جراء الفراغ السياسي والهجوم الاستعماري؛ اعتذر محي الدين لكبر سنه وبعد إلحاح من العلماء وشيوخ الجهة رشح ابنه عبد القادر قائلا:" إنكم جمعا تعرفون أنني رجل سلام مكرس نفسه لعبادة الله، وأن الحكم يقتضي استعمال القوة بغلظة وسفك الدماء. ولكن ما دمتم تصرون على أن أكون سلطانكم فإني أقبل، ولكن أتنازل عن ذلك لصالح ابني عبد القادر. ". ولقد فوجيء الجميع بهذا الحل السعيد، وانتخب عبد القادر أميرا على البلاد بطريقة شرعية.

خلفاء الأمير بالزيبان:

أولا: فرحات بن سعيد

لقد كان الصراع والتنافس على المكاسب السياسية والمناصب الإدارية بالزيبان قائما وشديدا بين عائلتي بوعكاز الدواودة وعائلة بن قانة منذ العهد العثماني، وازداد اشتدادا خلال الاحتلال الفرنسي، ونستشهد على ذلك بما ذكره أحمد باي في مذكراته حيث يقول:" وقبل احتلال قسنطينة بمدة قصيرة

كان الحاج عبد القادر قد كتب إلى العرب يخبرهم بأنه أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كامل أنحاء البلاد، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني ويدخلوا في طاعته"، ويقول أيضا:" وإذا لم تفعلوا ذلك، فإنني أثير عليكم الفرنسيين، وفي وقت وجيز ستسحقكم قوافي وقوائم"، غير أن هذا الرأي غير منطقي، فكيف للأمير أن يتحالف مع الفرنسيين لسحق الجزائريين.

ولم يكن لهذه الرسائل تأثير كبير على غرب قسنطينة ولم يستجب لعبد القادر غير فرحات بن سعيد الذي كان يعمل على استغلال جميع الفرص التي من شأنها أن تخدم مشاريعه ضد بوعزيز بن قانة، وتعيينه خليفة لعبد القادر في الصحراء، وإعطاء هذا الأخير رسائل اعتماد (7). لكنه لم يستقر على وضع رغم المعارك والحروب التي خاضها.

وبعد يومين من ضياع قسنطينة، وحينما كان أحمد باي يستعد للانسحاب نحو الصحراء وفق خطة خاله بوعزيز بن قانة، اتصل به مبعوث من قبل قائد القوات الفرنسية في معسكره بـ "أم الأصناب" قدم له رسالة قصيرة تتضمن ما يلي:" تعالوا اطلبوا الأمان، واستسلموا سريًا، سنبعثكم إلى فرنسا ". فأجابه بالرفض لكن سرعان ما جاءه شخصان آخران بعد ذلك بثلاثة أيام وهما ابن العطار من قسنطينة والحاج الباي من عنابة موفدين من قبل نفس القائد، وعرضا عليه نفس الاقتراح السابق، فأجابهم بالإيجاب وفضل التوجه إلى بلد إسلامي أو إلى بيت الله ؛ ولما سمعه ابن قانة اعترض عليه لأن الباي يريد أن ينكث العهد الذي ضربه على نفسه بمواصلة النضال. ولهذا رضخ الباي لرغبة

خاله ورفض العرض الفرنسي وأخذ طريقه إلى بسكرة، وقد أرسل أمتعتــه إلى بلدة القنطرة ومنها إلى الأوراس بقرية مَــنْعَــة[8]. وعند وصــوله إلى بلـدة الوطاية، علم أن فرحات بن سعيد يلاحقه وقد دعم صفوفه بـأولاد عبد النور والبلّزمة والحضنة، ثم قام بهجوم كاسح على مدينة بسكرة، كأول مواجهة بين الأشقاء، والذي استمر طويلا كصراع دموي بين الأخوة الأعداء لينهك قوتهم التي يجب أن توجه إلى العدو الحقيقي وهو الاحتلال الفرنسي.

انتصر فرحات بن سعيد على قوات أحمد باي واحتجز منهم بعض الرهائن كدليل على انتصاره، وأقسم أنه لن يراسل إلاّ المارشال" فــالي" (VALLEE) حاكم قسنطينة[9] ليخبره رسميًا بالنصر الذي أحرزه على عدوه، وهــو بهـذا الإجراء يريد التقرب من السلطة الفرنسية. كما أبلغ أيضًا قائد قسنطينة، حمودة ولد شيخ البلاد، بأنه سيرسل إليه الرهائن المحتجزين عنده مــن بـسكرة. [10] وحسب تقريرالمارشال" فالي" الذي رفعه إلى وزيـره مـن الجزائـر بتـاريخ 04جانفي1838م، فإن (الأمير)عبد القادر يبحث عن توسيع نفوذه عبر قبائـل مقاطعة قسنطينة وهو على اتصال بفرحات بن سعيد الذي استولى على بسكرة وأبعد منها أحمد باي. لذلك يقترح المارشال على الوزير تعيّين فرحـات بـن سعيد كقائد على قسنطينة مكان سي محمد (حمودة بن الشيخ الفقون) المسالم، وضعيف الشخصية، [11] بينما فرحات رجل قوي ورجل حرب قادر علـى تعويض أحمد باي، ويمكن أيضا جعل مدينة بسكرة عاصمة لـ"بايليك" جديد وتنصيب فرحات بن سعيد على رأس إدارته، وبذلك نضمن ربطه نهائيًا بقضية فرنسا، وطبعًا كان الرّد من باريس بالموافقــة يــوم 17 جــانفي 1838م. وفي

02 فيفري 1838م ذكر المارشال أيضا في تقريره إلى باريس أنه راسل فرحات بن سعيد واتفق معه حول حدود الإقليم الذي أصبح تحت إدارته، وسلم له قفطان الشرف، ثمّ تنصيبه قائدا على إقليم الصحراء، وبذلك زعم المارشال أن سيادة فرنسا على جنوب مقاطعة قسنطينة المتاخم للصحراء قد تمّ تنفيذه.(12)

ويظهر أن المارشال قد جانب الصواب في هذا التقرير حول سيادة فرنسا على الصحراء، لأن خضوع الجنوب والصحراء للاحتلال الفرنسي ما زال لم يتمّ بعد، وإنما الذي حصل هو عبارة عن مناورات ومناوشات بين أعداء الأمس والمتنافسين بل المتصارعين على المناصب والوصول إلى السلطة كما أن هذه التدابير التي اتخذتها الحكومة الفرنسية تجاه فرحات بن سعيد لم تفلح، بفعل الأحداث والوقائع الدموية التي تمّت بينه وبين خصومه من أنصار أحمد باي وبوعزيز بن قانة. ذلك أن أحمد باي قد اتجه من الوطاية إلى طولقة أين نصب معسكره بالقرب من زاوية سيدي رحال بين فوغالة والعامري من أجل التصدي لقوات فرحات وقطع المدد عنه؛ حيث اعترض البوازيد لحوالي خمس مائة جندي مشاة من أولاد نايل كانوا في طريقهم لنجدة ودعم قوات فرحات بن سعيد ــ التي تعسكر بواحة ليشانة ــ واشتبكوا معهم لنصرة الباي، وقتلوا الكثير منهم وحملوا له أكثر من خمسين رأسا(13)، لهذا عزم أحمد باي على مهاجمة خصمه فرحات قبل أن يتقوى ساعده في كل من ليشانة والزعاطشة، ووقعت معركة ضارية بموقعة "صحيرة" وهي من أعتى المعارك الدموية بين الطرفين بالزيبان ، حيث قتل من قوات فرحات بن سعيد أكثر من ست مائة

رجل وقتل لأولاد ابن قانة أكثر من مائة جندي أيضا[14]. التجأ فرحات، بعد ذلك إلى أولاد نايل ؛ أما الباي وابن قانة فقد عملا وفق مخطط وضع من أجل سحق كل واحات الزاب القبلي والزاب الظهري، انتقاما منهم لموازرتهم لفرحات. وبعد هذه المعركة طلب فرحات الإمدادات والمساعدات من الفرنسيين، ولم يطلب سوى كتيبتين أو ثلاثة فقط، لكنهم ماطلوه ولم يلبوا له مطلبه ؛ وبقي ينتظر بدون جدوى [15]، كما علم أيضا بخبر تعيّن ابن عيسى — خليفة الباي سابقًا — كقائد وخليفة لهم على المنطقة الساحلية للشمال القسنطيني، فساورته الشكوك في موقفهم نحوه، لهذا غير وجهته نحو الأمير عبد القادر الذي كان يسعى لاستقطاب قادة مقاطعة قسنطينة، فراسل ابن يلس وابن عبد السلام المقراني وأحمد الشريف وابن قندوز والشيخ بن عكاز، هذا الأخيرالذي قدم رسالته إلى القائد "تقريبه" ليكشف عن فحواها إلى السلطات الفرنسية لأنها تحثهم على الجهاد والالتفاف حول الأمير لمقاومة المحتلّ ؛ فاستغل فرحات هذه الظروف، وأخذ يتقرب من الأمير علّه يستفيد ويظفر بمنصب إداري أو سياسي في دولة الجزائر الفتية تحت قيادة الأمير عبد القادر خاصة حينما شعر أن فرنسا قد تخلت عنه وتفاقم خطر عدوّه أحمد باي ؛ كما أراد أن يؤكد للأمير أنه قادر على طرد الأعداء من الصحراء لأنه معروف وملقب من طرف الجميع وخاصة المقربين منه بـ" ثعلب الصحراء ". [16]. وفي هذه الأثناء بعث الحسن بن عزوز — الكاتب الخاص لفرحات بن سعيد — برسول سرّيا إلى الأمير وهو سي السنوسي ليقابله ويطلب منه أن يعيّن الحسن بن عزوز خليفة على الزيبان، لأن أحمد باي وأنصاره يعيثون في الأرض فسادًا من

قتل وسلب ونهب وظلم في الجنوب الجزائري، وأن سي الحسن بن عزوز شخصية مرموقة له أنصار كثيرون في الزاب يُمكّنونه من القضاء على احمد باي، فضلا عن قُدُراته في جمع الثروات ومنها الضرائب. وبعد مدّة توجه ابن عزوز بنفسه إلى الأمير عبد القادر صحبة الحاج الباي (شقيق فرحات)، رسولين من طرف فرحات بن سعيد لنفس الغرض ؛ لكن الأمير عبد القادر رشح الحسن بن عزوز وعيّنه خليفة على بسكرة والزيبان، وكلّف نائبه في بوسعادة القائد البركاني بأن ينصبه في وظيفته الجديدة، فأخذ معه قوة هائلة تتكون من ألف ومائتي فارس وسبع مائة جندي مشاة وكميّة من الأسلحة والذخيرة وتوجهوا جميعًا إلى بسكرة التي فرّ منها أحمد باي وأنصاره إلى الشمال نحو بلدة القنطرة، أين جمعوا أمتعتهم وحملوها على الجمال وصعدوا بها إلى جبال الأوراس.

طلب البركاني من فرحات بن سعيد أن يرافقهم إلى بسكرة، فقبل ذلك على مضض، وقال للحسن بن عزوز: " هكذا، ذهبت رسولا، وعدت خليفة"[17]. لكنّه وعده بالمساعدة والتأييد في مهامه الجديدة شريطة أن يعمل من أجل القضاء على أحمد باي وأولاد بن قانة، وفعلا تمّ التنصيب مع إقصاء أنصار أحمد باي من بسكرة أواخر عام 1838م. لكن فرحات بن سعيد لم يقتنع بهذا الوضع، فعاود الاتصال سريا مع الضباط الفرنسيين ليحدد العلاقة معهم، فراسل الماريشال "فالي" الحاكم الجزائر العام في ذلك الوقت، كذلك الجنرال"نقرييه" قائد قسنطينة، ولكن رسوله إلى الجزائر قتل ووقعت رسالته في أيدي الحسن بن عزوز الذي حولها في الحين إلى الأمير عبد القادر بينما رسوله

الآخر تمكن من الوصول إلى قسنطينة ولكن رسالته لم تسلم للمسؤولين الفرنسيين لأنها وقعت في أيدي أعدائه فأخفوها ثمّ أرسلوها إلى خصمه ابن قانة بالصحراء، الذي حولها بدوره إلى قريبه ابن أحمد بلحاج في سيدي عقبة، فنقلها هو أيضا إلى الحسن بن عزوز، لهذا انكشف أمر فرحات، بعد أن تعاون عليه الرجلان ليعاقبه الأمير، حيث أصبحت هذه القضية مضرب المثل بالمنطقة وهو: " ضبع سيدة القارة ومعه ثعلب الغيران، تغامزوا على سيد الغابة. "(18).

أعطى الأمير عبد القادر أوامره باعتقاله، فاستدرجه البركاني باللّطف واللّين إلى مدينة المدية وهناك اعتقله ثمّ اقتاده إلى عاصمة الأمير تقدامت أين سلمه للأمير فوضعه في السجن.

تيقن ابن قانة من أن أحمد باي قد خسر كل شيء في الجزائر وما عليه إلاّ الانفصال عنه والاستسلام إلى السلطات الفرنسية ؛ وكان الفرنسيون يخططون من أجل كسب العائلات الجزائرية الكبرى إلى صفّهم ليحكموا بواسطتها الشعب الجزائري. فأسندوا إلى بعض أفرادها الوظائف والمناصب والقيادات، وأغْدَقَتْ عليهم المال والجاه، وعلّقت لهم الأوسمة والنياشين، وبرزت في الشرق الجزائري عا ئلات متنافسة على السلطة كعائلة بوعكاز وابن عاشور، وابن قانة، وابن زكري وغيرها.

وفي هذا الصدد تكشف بعض الوثائق التاريخية عن ما آلت إليه بعض الشخصيات الجزائرية في هذه الظروف، حيث بعث الجنرال " قالبُوا " (GALBOIS) حاكم قسنطينة ببرقية إلى المارشال حاكم عام الجزائر بتاريخ 15

ديسمبر 1838م، سرد فيها حالة فرحات بن سعيد وتعاونه في البداية مع فرنسا، لكنه خضع للأمير بعد ذلك ثمّ محاولته الاتصال بالفرنسيين مرة أخرى، فتفطن الأمير لمكائده، فألقى عليه القبض وسجنه. أمّــا بوعزيز بن قانة فهو آخر قائد بقي في الصحراء تحت سلطة أحمد باي، حيث لحق بــثـــرْوَة سيّده وصهره ؛ وحينما لاحظ أن أحمد باي قد أبعد من تفكيره كل إمكانية للسلم، غــادره وســارع إلى مكاتبة الحاكم الفرنسي للحصول على" الأمــان " والانــضمام إلى الصف الفرنسي، وقد أُعتبر هذا الحدث انتصــارًا ثمينًا للاستعمار يمكنــهم من تهدئة الوضع والسيطرة عليه. ذلك أن بوعزيز بن قانة رجل سياسي اعتــاد على خدمة الدولة، كما أنه ثريّ يملك العديد من الممتلكات بمدينة قــسنطينة وضــواحيها، لذلك كان الجنرال " ڤالبوا " يفضله على خصمه فرحات ليشغل منصب شيخ العرب بالزيبان؛ وتــم تعيينه، بأمر من ملك فرنسا، وفيما يلــي نــص القرار[19]: نحن مارشال فرنسا، الوالي العام للممتلكــات الفرنــسية في الشمال الإفريقي، نــظــرًا لقرارنا المؤرخ بيوم 30 ديــسمبر 1838م الــذي يقضي بتنظيم الحكم في مقاطعة قسنطينة، حيث السلطات الفرنسية ما زالت لا تسيّر الإدارة مباشرة قررنا ونقرر ما يلي:

- **المادة الأولى:** يعيّن السيد:بوعزيز بن قانة شيخًا للعرب تعويــضًا لفرحات بن سعيد.
- **المادة الثانية:** يتولى السيد: بوعزيز بن قانة وفقًا لترتيبــات هــذا القرار، إدارة المدن والقبائل التالية:

"بسكرة المدينة وضـــواحيها، فلياش، شتمة، ســـيدي عقبـــة، أومـــاش، بوشقرون، ليشانة الزعاطشة، فرفار، البرج، لـــيـــوّا، الصحيرة، المخادمـــة، أورلال، مليلي، بـــيـــقـــو، قرطا، القنطرة، وقبائل أخـــرى تابعـــة لقيـــادة الزيبان". [20]

أعيد فرحات بن سعيد إلى منصبه بعد هزيمةمعركة ســـلســـو التي لحقـــت بالحسن بن عزوز، الذي إلتحق بقوات الحاج مصطفى ــ أخ الأمير ــ الذي كان يخيّم بناحية المسيلة وكانت هزيمته سببًا في ضياع هيبته لدى قبائل الجنوب، مما أرغم الأمير عبد القادر على عـــزله وتعويضه بفرحات بن سعيد الذي أطلق ســـراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيبان" وأنعم عليه بإيالـــة بـــسكرة ومـــا إليها"[21]، على شـــرط أن يلاحق أولاد بن قانة. مع ترك أفراد عائلتـــه عنـــد الأمير عبد القادر كرهائن حتى يضمن عـــدم خـــداعه واستسلامه للفرنسيين مرّة أخرى. وفعلا أخلَصَ فرحات بن سعيد هذه المرّة وأبـْلى البلاء الحـــسن واستطاع أن يضـــايق القبائل الموالية لأولاد بن قانة خـــلال ســـنتي 1840 ــ 1841م ويمنعهم من الإرتياد والإنتجاع بمواشيهم للبحث عن الماء والكلأ، كما أنه قام بجولة في الزيبان صحبة الحاج مصطفى خلال صيف 1841م مكتتـــهما من جمع الضرائب؛ [22] غيـــرأن بعض البوازيد قد غدروا به وقتلـــوه بـــأولاد جلال في سبتمبر 1841م حين ذهب إليهم، فبمجرد نزوله عن جـــواده حـــتى التفوا حوله وطعنوه جميعًا طعنة واحدة بسيوفهم ــ لأنه حـــسب ظـــنّهم أن الرصاص لايخترق جسمه[23] ثمّ انتزعت منه وثائقـــه وأرْسِـلَتْ إلى الحـــاكم الفرنسي بقسنطينة. [24]

دفــن فرحات بن سعيد بعد هذه الحادثـــة الأليمة من قِبَـــلِ أنـــصاره في ضـــريح (النبي خالد) بمسجد بلدة سيدي خالد، وقدآثار موته موجة من الحزن والأسى في ربوع الجزائر، لأن رحيله يعدخســـارة كبيرة للمقاومة الجزائرية، لقد أصبح اسمه رمزًا للكفاح والشجاعة، وقد أثر هذا الحدث في نفوس الشعراء فأنجبت قرائحهم العديد من القصائد ضمن الشعر الملحون (الشعبي) نذكر منها القطعة التالية:

يا فارس إلي جيت تسير رُدّ الجواب عني عاود الأخبار

عرق الجواد غطى الديرةّ الجواب عني يا راعي الصبار

كيفا مات حرمة أهل بن عليفرحات الدوادي حرمة من جار

ثمّ يـــقـــول:

كيفا مات راعي الأحمر يلغوا به في كل نـــهـــار

عدوه مـــنه يفزع وينهزم على ظهره بالـــنـــار

كيفا مات زين الفرسان كيفا فرحات من سرجه طار

يوم البارود لاسلاك إلاّبه قتله الطمع بن قانة الغـــــدار

يا الخيال بـــاء تسيـــــروا أبكوا يا رجال على خلاّص الثّار. (25)

ورغم القضاء على فرحات بن سعيد، وإقصاء عائلة بوعكاز، فإن المقاومة الوطنية بقيت ملتهبة، ولم تعرف منطقة الزيبان لحظة واحـــدة مـــن الهـــدوء والسكينة.

والملاحظة البارزة في هذا المجال هي أن الخـــلافات القديمة بـــين العـــشائر والقبائل قد لعبت دورًا هامًا في عدم توحيد المقاومة وجمع الإمكانيـــات ورصّ

الصفوف ولمّ الشمل لدحض الدخيل المحتل؛ وقد استفاد الاحتلال الفرنسي من هذه الوضعية ولو بطريق غير مباشر، وعمل على بثّ بذور الشقاق وجذور النزاع، ضمن سياسة فرق تسد، واستطاع أن يستدرج بعض العناصر والشخصيات الوطنية وقبائلهم إلى صفوفه لضرب قبائل أخرى جزائرية.

ثانيا: الحسن بن عزوز

ينتمي الحسن بن عزوز إلى أسرة عريقة هي أسرة ابن عزوز الدينية المعروفة في إقليم الزيبان بمكانتها الرفيعة والمستقرة في واحدة البرج قرب طولقة؛ وأن الحسن بن عزوز من الرجال الذين نشأوا في ظل زاوية بن عزوز والطريقة الرحمانية، وتشبع بالأفكار الدينية والثقافية، وعمل كاتبا لدى فرحات بن سعيد، وبعد تذبذب موقف هذا الأخير عزله الأمير وعين مكانه الحسن بن عزوز، كما سبق ذكره.

وقد واجه منافسة شديدة من طرف بوعزيز بن قانة وأعوانه، ؛ حيث اتخذ إجراءات عديدة لتنظيم وترتيب حكمه في الجنوب، باسم الفرنسيين ؛ فبادر بإعلام أهل الزيبان عن تعيينه خليفة على الجنوب، وهو في الحقيقة منصب أسمى من وظيفة شيخ العرب -، وأرسل مبعوثَين عنه يحملان اعتماده إلى كل قرية، ولكنهما وقعا في قبضة ابن عزوز الذي أعدمهما، لذلك عزم ابن قانة على مواجهة عدوه وخصمه العنيد في الزيبان، فطلب المساعدة والمدد من الفرنسيين والمتمثلة في كتيبة فرنسية ولكنهم ماطلوه وطلبوا منه الانتظار ـ مثلما فعلوا مع فرحات سابقا ـ لهذا جمّد شيخ العرب نشاطه تقريبا حتى ربيع 1840م، حين أرسل

سي أحمد بلحاج بن قانة إلى الغرابة ليجمع شملهم ويستعجل رحيلهم، فجمعهم جنوب أولاد جلال ثمّ تحرك بهم، لكنهم حينما وصلوا نواحي كينزات لاحظوا بأن الممر محاصرا وهو واقع تحت الحراسة الكاملة لقوات ابن عزوز، والتي دعمت بثمانمائة فارس أرسلها له أحمد بن عمر، خليفة الأمير عبد القادر ببوسعادة ومنطقة الحضنة، لذلك اغتنم هذه الفرصة واعترض طريقهم من أجل أن يحقق نصرًا ساحقًا يدعم به مكانته في الإقليم، لأنها بدأت تهتزّ عند بعض الناس. [26] وفي 24 مارس 1840م وقعت معركة ضارية بوادي سِلْسُو بين قوات الأمير عبد القادر تحت قيادة الحسن بن عزوز والقوات المعادية له من قبيلة الغرابة المدعمة بقوات ابن قانة الموالين للفرنسيين، ورغم المقاومة الباسلة والبطولية التي أظهرتها قوات الأمير مع قائدها الحسن بن عزوز، إلاّ أنّ الخصم كان عنيدًا وقويًا استطاع أن ينزل بهم هزيمة نكراء، تكبدوا على إثرها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وتشتّت شملهم، مما جعل قائدهم الحسن بن عزوز يفرّ من ميدان المعركة وساحة الوغى على متن حصانه وتذكر التقارير العسكرية الفرنسية أن هذا النصر حقق مكاسب هامة جدًّا لفرنسا في الصحراء، حيث كتب المارشال " فالي" إلى وزير الحرب يعلمه بهذا الفوز العظيم، ومما ذكره: "... إن هذا النصر له أهمية كبرى، ولأول مرّة منذ عشر سنوات خلت، قائد

حديث التعسّين من طرفنا يسير وحده لمواجهة فرق عبد القادر ويحرز عليهم نصرًا باهرًا... ".[27]

غير أن بعض المصادر التاريخية تبيّن أن القتال في هذه المعركة كان قد وقع ما بين قوات الحسن بن عزوز وقوات قبيلة الغرابة التي رفضت الامتثال لأوامره، وكانت تمتلك إمكانيات وقوة معتبرتين مكنتها من أن تهزم جيوش الأمير النظامية، ويذكر ــ الضابط والمترجم" شارل فيرو" في دراسته عن ابن حلاب:".. إن ابن قانة لما علم بهذا الانتصار، سارع إلى ميدان القتال واحتجز مدفعين ورايات وقطع تسعمائة أذن من آذان القتلى وملأ بها القفاف وبعث بها إلى الحاكم الفرنسي بقسنطينة، ناسبًا هذا الانتصار لنفسه".[28]

واشتهرت هذه القضية في الأمثال الشعبية بالمثل التالي:" اللحم إذا يرخص يأكله كل مسكين. "، وقد أطلق هذا المثل سي أحمد بن القاضي قائد بمدينة باتنة، والذي كان قريبا من الأحداث، وتابع القضية وأطلع على خفاياها، ثمّ قدم تقريرًا مفصلاً حول هذه المسألة للضابط "شارل فيرو "، ولكن بوعزيز بن قانة تعجب من هذه الرواية وكذب كل تلك الأخبار في كتابه (شيخ العرب).[29] ويؤكد هذا الطرح التقرير الذي كتبه " قالبوا " من قسنطينة يوم 30 مارس 1840م، يطلب فيه من السلطات العليا الفرنسية تدعيم ابن قانة الذي تغلب على قوات الأمير عبد القادر بقيادة ابن عزوز، لهذا يجب مُكافأة شيخ العرب بالمال والأسلحة والحلي والبرانس، حتى

يبقى مع أنصاره على ولائهم الخالص لفرنسا.. [30] وقد اتخذ المارشال إجراءات سريعة من أجل مساعدة شيخ العرب بمبلغ يقدر بعشرين ألف فرنك.

وبعد هزيمة سلسو التحق الحسن بن عزوز بسرعة بقوات الحاج مصطفى (أخ الأمير)، والذي كان يخيم بناحية المسيلة ؛ وكانت هزيمته سببا في ضياع هيبته وسط قبائل الجنوب، مما اضطر الأمير عبد القادر على عزله، وتعويضه بفرحات بن سعيد.

ولما ألحق الفرنسيون منطقة المسيلة إلى سلطة الخليفة أحمد بن محمد المقراني قبض على الحسن بن عزوز في شهر جويلية 1841م وسلمه إلى السلطات الاستعمارية، التي قادته إلى قسنطينة، واعتقله هناك فترة قصيرة، ثم نفته إلى جزيرة "سانت مارغريت" (SAINTE - MARGUERITE) يوم 20 أوت 1841م.

كثف الحسن بن عزوز نشاطه السياسي داخل منفاه، وشرع في مراسلةعدة شخصيات مهمة، الفرنسية منها والجزائرية، كالعاهل الفرنسي الملك "لويس – فليب" وأمراء العائلة المالكة والأمير عبد القادر ومصطفى بن إسماعيل وغيرهم [31]. وقد ترك مجموعة من الرسائل المحفوظة في المراكز الأرشيفية المختلفة، وسنستشهد بواحدة عثرنا عليها في مركز الأرشيف لوزارة الحربية بقصر فانسان بباريس – (ضمن علبة رقم: 228 H) – موجهة إلى ملك فرنسا بتاريخ 07 ديسمبر 1841م يبين له فيها معرفته بأحوال النظام السياسي والعسكري للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، وهذا من أجل الحصول على عطف فرنسا والافراج عنه حسب تقديره.

ومن خلال مراسلاته العديدة في السجن، نستشف ونستكشف حقيقة شخصية الحسن بن عزوز بأراءه وأفكاره وتصوراته الإستشرافية، وتخيلاته الواسعة، ضمن رسائله الطويلة نسبيا، منها رسالة من سبع صفحات بتاريخ 04 جانفي 1842م، وأخرى من احدى عشرة صفحة مؤرخة بـ 12 جوان 1843م، وكان يراسل أفراد أسرته وأصدقائه بعدة رسائل في مرة واحدة مثلا:سبع رسائل بتاريخ 27 جانفي 1842م وستة رسائل يوم 31 أكتوبر 1842م وخمس رسائل يوم 19 ديسمبر 1842م وتسع رسائل يوم 15 مارس 1843م وخمسة أيضا يوم 16 جوان 1843م، وقد راسل عدة شخصيات هامة لتتدخل ويتحصل على العفو، منهم الملك نفسه، وإلى الملكة والأمراء والعائلة المالكة والمارشال "سول" (SOULT) والجنرال "بوييه" (BOYER) في تولون (TOULON) والجنرال "سيباستياني" (SEBASTIANI) بمرسيليا و"ميلسيون دارك" (MELCION D'ARC) مدير الشؤون الإفريقية بوزارة الحرب وإلى بعض القادة الفاعلين من الجزائريين مثل مصطفى بن اسماعيل وسيدي لعريبي والأمير عبد القادر وغيرهم[32].

ومنذ سبتمبر 1841م وجه الحسن بن عزوز رسائله إلى الأمير عبد القادر الذي يلقبه بـ"أمير المؤمنين" يطلب منه أن يكاتب ملك فرنسا من أجل التفاوض حول السلم، ويكون هو الوسيط بين الأمير وفرنسا، غير أن هذا الإقتراح لم يحض بالقبول، كما أنه يطالب أيضا من الأمير أن يدفع ديته[33]، ولم تتبع هذه الرسالة بأي جواب.

كما أرسل عدة رسائل إلى الجزائر ليرسل إليه عشرة من أجود الأحصنة وعدد من البرانس والقنادر والحياك ليهديها إلى أطفال الملك ويطالب بإرسالها إما عن طريق قسنطينة، أو الأحسن عن طريق تونس، ولا ندري إن أنجز هذا العمل أم لا.

وفي 27 جانفي 1842 كتب ابن عزوز إلى الملك يعاتبه (عن تعيين يوسف باي على عنابة، ومحمد بن الشيخ باي على قسنطينة، وأحمد بن بومرزاق باي المدية، بوشناق باي مستغانم) ويقترح عليه الوسائل للقضاء على الحاج عبد القادر والحاج أحمد والاحتفاظ بقلعة بني عباس واحتلال كل أراضي العرب. وفي رسالة أخرى في نفس التاريخ إلى الدوق دومال، يقترح فيها على الملك الفرنسي أن ينصب أحد أبناءه على عرش الجزائر[34].

وفي 21 جانفي 1842م اقترح الحسن بن عزوز على الملك الفرنسي في رسالته ان يعينه خليفة للعرب ويتعهد بدفع أتاوة سنوية تتمثل في ما يلي:

4000 صاع قمح – 40.000 رأس غنم – 40.000 قنطار صوف – 40.000 بقرة – 1000 جواد من أحسن الأنواع – 40.000 قنطار زيت – 40.000 قنطار ملح – 40.000 قنطار من الفحم – 40.000 قنطار حطب للتدفأة[35]. ومن أجل الإنتصار على عبد القادر وأحمد باي يقدم عدة نصائح عسكرية

وفي 12 جوان 1843 قدم مشروعه الأساسي على شكل تقرير متمثل في برنامج عمل من 27 مادة (وفي الحقيقة 30 مادة) وسخر المادة الأولى إلى كيفية جلب الماء إلى قسنطينة ولا ينصح باتخاذ خلفاء من العرب وفي قسنطينة خاصة

ويحبذ أن يكون الخليفة جنرال يعرف العربية ويكون ذكي مثل آغا الجزائر دوما (DAUMAS) ويحدد المؤسسات العسكرية مع فرقها الضرورية.

ويقترح تأسيس مؤسسات اقتصادية داخل المدن 11 ألف حانوت 400مخبزة وتشييد الحمامات وفتح 250 مقهى جميلة و100 مخبزة و100 فندق تكون لهم مداخيل معتبرة.

ولا ندري كيف ستتصرف السلطات الفرنسية أمام هذه المقترحات الغزيرة، وكان يأمل أن يطلق سراحه بهذه الرسائل ليلفت انتباه الجميع.

وفي الأخير نذكر مقدمة وخاتمة رسالة بن عزوز إلى الملك كنموذج[36] مع بعض تحفظاتنا على خط وأسلوب الرسالة من خلال نقدها الظاهري والباطني، ومما جاء فيها بعد البسملة:" إلى سلسلة الذهب ومعدن الجود والسلطنة والرأفة والسياسة والأدب سلطان افرانصة وأرض العرب السيد السديد ورأيه مستقيم السلطان الرأي ياليه عليك مني السلام..." وبعد أن تحدث عن الخلفاء من العرب والفرنسيين، ختم رسالته بما يلي: " ... أما الخلفوات متاع العرب تجعلهم قياد والخلفوات الذي تجعلهم من الفرنصيص لابد يعرفون كلهم العرب والسلام من الحسن بن عزوز اللهم عطف قلب سلطان افرانصة عليه ع أمين، أمين، أمين ".

لاشك أن الحسن بن عزوز قد تعرض لعمليات ترويض وتعذيب واحتواء داخل منفاه، مما جعل السلطات الاستعمارية تستغله لصالحه وتسمح له بكتابة هذه الرسائل ومراسلة العديد من الشخصيات، بل والإساءة إلى بعض رجال

المقاومة الوطنية، ولعل إطلاق سراحه عام 1844م من المنفى يصب في هذا الإتجاه.

ومهما يكن من أمر فإن الحسن بن عزوز شخصية تاريخية بارزة ظهرت خلال المرحلة المبكرة من المقاومة الوطنية، وتعرض إلى ظروف قاسية أثناء مسيرته النضالية، وعرف ضغوطات عديدة، وتكبد مشاق كبيرة جعلته يغير من بعض مواقفه من حين إلى آخر، لكن هذا كله لا ينقص من قيمته كمجاهد دخل التاريخ من باب الواسع.

ثالثا: محمد الصغير بن أحمد بن الحاج

ظهر الخليفة الثالث محمد الصغير بن أحمد بن الحاج على مسرح الأحداث بعد شغور منصب الخليفة في الزيبان بعد استشهاد فرحات بن سعيد. ولاشك أن محمد الصغير من الشخصيات المرموقة والتي ترعرعت في أحضان أشرف وأعرق مسجد في الجزائر،وهو مسجد سيدي عقبة الفهري.

وخلال انتقال ابن قانة في موسم الهجرة إلى الشمال في ربيع 1842م مع أنصاره الرحل البدو إلى مناطق الرعي الخصبة في التلّ، لترعى مواشيهم الكثيرة وخلال هذه الفترة وقع اتصال ما بين قائد بلدة سيدي عقبة محمد الصغير بن أحمد بن الحاج والأمير عبد القادر لدراسة الوضع في المنطقة بعد الجريمة والمكيدة التي ذهب ضحيتها فرحات بن سعيد بإيعاز من شيخ العرب ابن قانة، وبذلك بقي منصب خليفة الأمير في الصحراء شاغرًا ؛ ولما عرض محمد الصغير بن أحمد بن الحاج ولاءه وأبدى استعداده لخدمة دولة الأمير، عيّنه

الأمير عبد القادر خليفة له على الزيبان، ودعمه بكتيبة من الجند لمجابهة الأعداء، وقوات ابن قانة على الإقليم.

ولما رجع ابن قانة من التلّ خرج لاستقباله العديد من الوفود في قرية الوطاية، لكن محمد الصغير لم يكن من بين الوفود، فغضب شيخ العرب وأرسل له بولخراص بن قانة ليؤنب خاله[37] وينصحه بالتوبة، إذا كان يريد الاحتفاظ بمنصبه، غير أن محمد الصغير لم يكن يكترث بنصائح ابن قانة. وأخبر ابن أخته بأن الأمير سيرسل له جيوشا غفيرة لمحاربة العدو الحقيقي وهو الاحتلال الفرنسي؛ لذلك فزع ابن قانة لهذا النبأ وعمل على مقاومة محمد الصغير، فأخبر القبائل بعزل قائد سيدي عقبة ثمّ طلب المدد من السلطات الفرنسية وأوفد بسرعة مساعده المعتاد سي خالد إلى قسنطينة، علّه يأتيه بالفرق العسكرية الفرنسية مع تنظيماتها الحديثة وأزيائها الجديدة[38]، لكنه لم يرجع إلاّ برسائل توصية موجهة إلى قادة القبائل من طرف حاكم قسنطينة يحثهم فيها على طاعة شيخ العرب ابن قانة ومساعديه.

وفي ماي 1843م حدد الجنرال " باراغاي ديلييه " (BARAGUAY D' H ILLIERS) من جديد المقاطعات التي يتحكم فيها ابن قانة وحُذِفَ منها إقليم الجريد باعتباره منطقة نائية ولا يمكن بسط نفوذه عليه[39].

وهكذا جمع ابن قانة قواته المدعمة من القبائل المختلفة والعديدة، فضلاً عن الكتائب الفرنسية المدججة بالأسلحة الحديثة الفتاكة، وتوجه الجميع لمحاصرة محمد الصغير داخل بلدة سيدي عقبة، حتى يرغم على الاستسلام، لكنه صمد وقاوم مقاومة شديدة مع أنصاره، حيث بدأت المعركة حامية

الوطيس بين الطرفين، واستمر القتال بينهما عدّة أيام؛ وحينما فشل ابن قانة على إحراز النصر لجأ إلى وسائل أخرى لتشديد الخناق على محمد الصغير وسكان سيدي عقبة، وذلك بحرمانهم من العنصر الأساسي للحياة ألا وهو الماء، وهذا بتحويل مجرى الساقية التي يزود القرية بالمياه، اعتقادا منه أن هذه الخطة ستجعل سكان سيدي عقبة يطلبون الأمان[40]، والاستسلام للحفاظ على أرواحهم وأرزاقهم من نخيل وبساتين

وفي هذه الظروف الصعبة حدث أمر مفاجئ غَيَّر مجرى الأحداث وهو تخلي أحمد باي بن شنوف أحد قواد الزاب الشرقي عن موازرة ابن قانة وانفصاله عنه ولجأ إلى جبل "أحمر خدُّو" وبدأ يحرض سكان هذه الجبال على الثورة، وأرسل إلى محمد الصغير بن أحمد بن الحاج ليُخْبِره بأنه سيلتحق به ليجاهد بجانبه.

حاول خليفة الأمير فك الحصار لكنه لم يفلح وأرغم على الرجوع إلى سيدي عقبة تاركًا وراءه على الميدان ثلاثين شهيدًا. لهذا أسرع شيخ العرب بجمع قواته، قبل تحالف ابن شنوف مع محمد الصغير، حتى يقوم بهجوم كاسح على سيدي عقبة ولكن عاصفة هوجاء أفسدت خطّته وأرغمته على فكّ الحصار والرجوع إلى بسكرة منهك القوى.

علم محمد الصغير عن طريق أنصاره ببسكرة أن وضعية ابن قانة مهلهلة ومفكّكة، فلم يترك الفرصة تضيع وقصد فورًا مدينة بسكرة فأحتلّ القصبة، بينما كان ابن قانة يقوم بالهجوم على بسكرة من الغرب؛ ولكن خليفة

الأمير محمد الصغير تمكن في الأخير من أن يهزم أعدائه الذين لم يجدوا غير الفرار سبيلاً للنجاة بأرواحهم.

وهكذا رجعت بسكرة من جديد الى سلطة الأمير عبد القادر ؛ وحينما سقطت في أيدي قواته، أعاد تنظيم إدارتها، بينما حاول ابن قانة جمع شمل شتاته بإرضاء القبائل التي حاربت معه وذلك بدفع لهم أموال طائلة بمثابة " دية " عن قتلاهم.

لم تستمر سلطة الأمير عبد القادر ببسكرة طويلا، فسرعان ما انحصرت قواته عن المنطقة بعد الحملة الفرنسية القوية التي اكتسحت الصحراء.

فحسب التقرير الذي رفعه ابن قانة إلى السلطات الفرنسية بقسنطينة، (41).. أنه اضطر إلى الإنسحاب مع أنصاره إلى التلّ، بعد أن قتل له عشرون رجلاً وعشرون حصانًا وجرح خمسة واربعون رجلاً واثنتا عشرحصانًا، وقد دفع " الديّة " لأهل كل قتيل كما دفع ثمن كل حصان قتل الى صاحبه من ماله الخاص.

أما حاله الأمن فقد تدهورت بشكل كبير، حيث عمّت الفوضى كل مناطق الزيبان، فكثر السطوُ والاعتداء وقطع النخيل وغير ذلك من الأعمال المريعة والفظيعة؛ وهكذا عمل ابن قانة على تضخيم الأحداث من أجل لحصول على المساعدات الوفيرة من فرنسا، وأرسل بخصوص ذلك وفدًا بقيادة مبعوثه المعتاد سي خالد الى السلطات الفرنسية بقسنطينة لطلب النجدة لإنقاذ الموقف، وقد حظي هذا الطلب بالقبول من طرف "الدوق دومال "(DUC D' AUMALE) ــ الابن الرابع لملك فرنسا لويس فليب ــ الذي عيّن

حاكما على مقاطعة قسنطينة (وهو في مقتبل العمر، لايتجاوزسنه 22سنة، ويخوض غمارالحرب في الصحراء) وذلك في ربيع 1844م[42] ورأى أن يغتنم هذه الفرصة ويقوم بحملة كبيرة على الصحراء يحطم فيها قوات محمد الصغير بن أحمد بن الحاج خليفة الأمير عبد القادر، ويطرد القوة المتمركزة بمدينة بسكرة والتي تقدر بحوالي أربعمائة جندي بقيادة احمد بن عمر أحد الضباط الممتازين عند الأمير في الحضنة، وبذلك يفتك عروس الزيبان ويرجعها من جديد للاحتلال الفرنسي، كما كان ينوي أيضا تصفية الحسابات القديمة مع الحاج أحمد باي الذي مازال يعتصم بجبال أولاد سلطان.

ويذكر القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة "الدوق دومال" في تقريره الذي رفعه الىالماريشال"بوجو" (BUGEAUD) الحاكم العام للجزائر بتاريخ 22 مارس 1844م [43].. أنه منذ 08 فيفري 1844م بدأت القوات الفرنسية تتحرك وتتمركز بمدينة باتنة، حيث أقيم هناك مركز عسكري للتموين والإمداد.

تجمع بباتنة يوم 23 فيفري فيلق قوي يشتمل على جنود مشاة وفرسان ومدفعية تقدر بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، وبقيت تنتظرقدوم حوالى ألف بعير من الصحراء والتي وعد بها شيخ العرب ابن قانة بإرسالها لتحمل متاع وأثقال الجيش الفرنسي المتوجه لاحتلال بسكرة؛ وقد حاول أولاد سلطان والأخضر ـ الحلفاوية اعتراض سبيلهم وقطع الطريق عنهم في بلدة القنطرة، غير أن العقيد "بوتافاكو "(BUTTAFACO) علم بتحركاتهم، فأرسل لهم أربعة أسراب من النخبة ومائتي فارس تحت قيادة الرائد " قوبار "

(GAUBERT). ساروا طوال الليل حتى اصطدموا في الصباح مع المجاهدين واشتبكوا معهم في معركة ضارية ترك على إثرها أولاد سلطان خمسة عشر شهيدًا مما اضطرهم بعد ذلك الى الفرار وفتح الطريق للفرنسيين. (44)

كما قام أتباع أحمد باي بمهاجمة خطوط الحراسة الأمامية للقوات الفرنسية ليلة 19 إلى 20 من شهر فيفري ولكن بدون جدوى، وفي نفس الوقت خرج طابوران من مائتي مهري تحت قيادة الجنرال " سيلاغ " (SILLEGUE) من سطيف يوم 18 فيفري 1844م لملاحقة احمد باي المعتصم بجبال أولاد سلطان الواقعة غرب باتنة.

وبعد مناوشات عديدة استطاعت القوات الفرنسية إخضاع بلدة نقاوس باعتبارها نقطة هامة تتحكم في المسالك الصحراوية، كما أن هذه الحملة تهدف الى حماية ظهر القافلة الفرنسية. وهكذا بعد كلّ الاستعدادات أخذت القافلة طريقها إلى بسكرة تحت قيادة "الدوق دومال" يوم 25 فيفري مع كل معداتها ومؤونة شهر كامل ؛ ومن الغد وصل الطابور الأساسي إلى قرية تزا ــ المسعي الأوراسية والتي غادرها أهلها خوفا من الغزاة واعتصموا بالجبال المجاورة، لذلك وجدتها القوات الفرنسية خالية من كل مظاهر الحياة، فحاولت ملاحقة السكان عبر الجبال ولكن بدون جدوى، وفي نفس الأثناء قام الدوق "مونتبونسيه" (MONTPENSIER) ــ أخ قائد الحملة ــ بالتعرف على السبل المؤدية الى بلدة القنطرة ؛ كما أخضع العقيد " مكماهون " (MAC MAHON) قبيلة بني معراف التي تقطن بالسفوح الجبلية في قرى جميلة بأشجارها وزروعها الكثيفة. (45)

استمرت القافلة في سيــرها الى أن دخــلت يوم 29 فيفري 1844م بلدة القنطرة وهي من القرى الأولى لإقــليم الزيــان، وبعدها دخــل " الـدوق دومال " على رأس جيشه الجرّار مدينة بــسكرة في يــوم 04 مــارس 1844م ليحتلّها بسهولة تامة وبدون مقاومة تــذكر، ذلك أن خليفة الأمــير محمــد الصغير قد غادر المدينة بســرعة، حينما علم بقدوم الحملة على بسكرة، وهذا قبل وصــولها بخمسة أيــام ؛ واعتصم بجبال الأوراس، حــتى يــتمكن مــن مــراقبة الوضع عن كثــب.[46]

لذلك إغتبط قــائد الحمــلة بهذا النــصــر الذي حــقــقــه، وأكد في تقريره أن ســكان الزيــان وقبائلها قد خضعوا له، وتــقــدموا إليه مــن أجل تقديم طلب العفــو عن أخطائهم، كما طــلبوا أيضًا الحماية والصــداقة من فرنسا. هذا وقد أبــدى "الدوق دومــال" إعــجابــه بالــصحــراء باعتبارها مسطح رملي شاسع يرتفع قليلا عن سطح البحر ويحتوي على ثروات طبيعية كثيرة تــفــيد الاقتصاد الفرنسي[47]. أما عــناصر السكان فيتشكلون من صــنــفــين متبايــنين هما:

1- سكان الزيــبــان الحضــر، وهم من الصنــاعيين المســالمين الذين يهتمون أيضا بالتجارة والفلاحة، لهذا يحتاجون إلى النظام والأمــن.

2- القبائل البــدوية، وهم عــرب أقــحــاح، لكنهم مــن العناصــر المشــاغــبــة والمعروفــة بالنهب والسلب، لكــن اضــطرارهم لــشــراء الحبوب في الصيف من التّــلّ يحــتم علــيهم الطاعــة والامتثال.[48]

لذلك أرسل " الدوق دومال" بعض الضباط الذين يحسنون اللغة العربية الى القرى المجاورة كعيون له بها يتحسسون ويتحسسون على الأوضاع السياسية والاجتماعية للسكان، من هؤلاء الضباط الرائد "توماس" (THOMAS) والنقيب "دو نوفو" (DE NEUVEU)و النقيب "ديفو" (DESVAUX) والنقيب"فورنييه" (FOURNIER)؛ ولما إستتب الأمر "للدوق دومال" وتعرف على أوضاع البلاد، شرع في اتخاذ الإجراءات الصارمة، كحجز أملاك المجاهدين الفارين والذين رفضوا تسليم أنفسهم قبل 25 مارس، ومعاقبة المقاومين المحجوزين، وإلقاء القبض على المشوشين، حسب رأيهم، وإقتادوهم إلى سجون قسنطينة. (49)

كما جند قائد الحملة حوالي ثلاثمائة رجل من الأهالي لاحتلال قصبة بسكرة، ووضعها تحت قيادة ضابطفرنسي، حتى يتمكن من تدعيم سلطة شيخ العرب، ممثل فرنسا في هذه المقاطعة البعيدة والمحفوفة بالمخاطر.

وبعد هذه الترتيبات الجديدة اتجهت القوات الفرنسية لملاحقة المجاهدين من أنصار خليفة الأمير عبد القادر، المرابطين بالجبال، حيث يتلقون المزيد من الدعم والتأييد من طرف قبائل بني أحمد في قرية مشونش المتاخمة لجبل أحمر خدو والواقعة على ضفة واد الابيض، لذلك حصرت من قبل القوات الفرنسية وجرت بها معارك طاحنة واشتبكت القوات فيما بينها حتى التصقت الأجسام ببعضها البعض واستعمل السلاح

الأبيض، وأبدى المجاهدون بطولة وشجاعة نادرتين أعترف بهما العدو في تقريره. (50)

ولما شعر محمد الصغير بن أحمد بن الحاج باشتداد الحصار عليه أمر قوته بالانسحاب والتشتت والتوزع عبر الجبال والغابات على أن يكون اللقاء والاجتماع في قمّة شيليّة بالأوراس، وهذا بعدما تهدأ المعركة وتنطفئ شعلتها. وقد فقدت القوات الفرنسية في هذه المعركة ستّة رجال منهم الضابط "بورو" (BORAUD) وستّة عشر جريحًا منهم خمسة ضباط (51)، بينما فقد بنو أحمد من سكان مشونش أربعة عشر شهيدًا.

و عندما أقتحم الفرنسيون الحصون، وجدوها خالية من أهلها، ففرحوا بانتصارهم ودفنوا موتاهم ثمّ رجعوا إلى بسكرة، معتقدين أن قوات الأمير عبد القادر قد قضي عليها نهائيًا وأن جذوة المقاومة المتوهجة بالمنطقة قد انطفأت وأن الصحراء أصبحت تابعة لهم لا ينازعهم فيها أحد، خاصة وأن الأمير كان منشغلاً بقضايا الحدود الجزائرية – المغربية وإعادة تنظيم المقاومة. (52)

تلقى "الدوق دومال" بمجرد رجوعه إلى بسكرة، أخبارًا مفادها، أن أولاد سلطان قد هاجموا المركز العسكري بباتنة، وعليه بملاحقتهم ومعاقبتهم ولهذا لابد من مغادرة بسكرة فورًا، وبالفعل تمّ ذلك بعد أن مكث بها عشرة أيام، حاول فيها ترسيخ الاحتلال الفرنسي بها، وترك مهمة إتمام التنظيم والتثبيت للرائد "توماس".

وبعد أن تـــصدى "الدوق دومال" لأولاد سلطان، رفع الى الوالي العـــام بالجزائر[53] تقـــريرا حول هذه الأحداث، أرسله من باتنة بتاريخ 02 جـــوان 1844م، ومما جـــاء فيه.. أن أهـــم النتائج المتحصل عليها هـــذه الـــسنة في مقاطعة قسنطينة هي تـــســـوية الطريق القديم بالقنطرة لتسهيل ربـــط التـــل بالصحراء، وذلك تحت إشراف نقيب الأشغال " ريـــفـــو "(RIFFAUT).. وكذلك احتلال بسكرة وتنصيب قـــوة عسكرية بقصبتها تحت قيادة الملازم " بيتي قرون " (PETIT GRAND) تتكون من مائتين وخمسة وخمسين جـــنديًا منهم تسعة وأربعون من قـــدماء عسكر قسنطينة فـــضـــلوا البقاء في بسكرة، أما الباقي فقد جنّـــدوا حـــديثا من أهالي المنطقة، ويوجـــد من بينهم مـــن خـــدم في جيش خليفة الأمير عبد القادر، وتركت معهـــم بعـــض المـــؤون والأسلحة والذخيرة مع العلم أن العـــقـــيـــد " لابروتون " (LEBRETON) يقـــوم بمـــراقبة الطريق الممـــتد بين بسكرة وقسنطينة من مركز انطلاقه عنـــد باتنة كما كان يـــراقب أيضا أولاد سلطان المحرضين من طرف الحاج أحمـــد باي المعتصم بجبالهم الحصينة والمنيعة وهم مـــازالوا يحملون لـــواء الجهـــاد المقدس.[54] وفي 25 افريل 1844م تجمعت قـــوة عـــســـكرية هـــائلة تـــمـــركزت بنـــقـــاوس على ســـفوح جـــبال أولاد ســـلطان من أجـــل القضـــاء على مقاومة أحمد باي.

لم يـــبـــق الرائد " توماس " في بسكرة إلاّ عشـــرين يومًا دُعـــيَ بعـــدها إلى مدينة باتنة، حيث تتمركز القوات الفرنسية استعدادًا للهجوم على ســـكان مناطق الأوراس وقمع مقاومة أحمد باي، ومما يلاحظ في هذا القبيـــل هـــو أن

العـــدو واحد وهو الاحتلال الفرنسي بينما المقاومة الجزائرية منقـــسمة، بـــل متشتتة وغير منسجمة، ففي الزيبان رفع لواء المقاومة خـــلـــفـــاء الأمـــير عـــبـــد الـــقـــادر، بينما بجبال الأوراس فهي تحت قيادة أحمد باي. وهذا ما جعل القـــوات الفرنسية تتوجه بكل قـــواها وإمكانياتها لجهة واحدة للقضـــاء عليهم ثمّ الالتفـــات الى الآخـــر.

ومما لاشـــك فيه أن روح الجهاد مازالت متأججة في نفـــوس المجاهـــدين المرابطين بالأوراس، وخاصة عند الخليفة محمد الصغير بن أحمد بلحاج الذي بدأ يجمع أنصاره ويعقد معهم الجلسات لتدارس الأوضاع الراهنة قصد الوصول الى السبل الكفيلة باخراج البلاد من محنتها وتخليصها من الغاصب المحتل ؛ وأخـــيرًا انتهى الى تشكيل لجان من أجل نشر فكرة المقاومة في الاوساط الشعبية، وفتح باب التطوع لمن يريد الجهاد في سبيل الله والوطن، وكانت هذه اللجان تطوف بالقرى والمداشر، وكانت تحظى باستقبالات حارة ورائعة وبالتأييد التام، وكان الشباب ينخرط في صفوف المجاهدين، ورؤساء القبائـــل يجـــددون ولاءهـــم للخليفة، ويضعون بين يديه ما يملكون من امكانيات.

وهكذا بعد أيام رجعت اللجنة مظفرة ومعها ما يزيـــد عـــن الخمـــسمائة فارس(55)، لهذا صمم محمد الصغير على استرداد مدينة بسكرة عن طريق خطّة عسكرية تقتضي استعمال حيلة محكمة التدابير (56)، فأعطى الأمـــر الى مائـــة وخمسين مقاتل من بين الرجال الاشداء المخلصين والذين لهم قـــدرات قتاليـــة فائقة، فيستسلمون وحدات وجماعات الى الـــسلطات الفرنـــسية ويطـــالبون بالانخراط في صفوف الجيش الفرنسي، الذي يقوم بحماية بسكرة والزيبانوبذلك

يكون القائد محمد الصغير قد أنشأ الطابور الخامس داخل الأعـــداء، يـــستعمله عندما يحين الوقت الملائم للهجوم على بسكرة.

و فعلا تمّ تنفيذ الأمر بكل حيطة وحذر، وشرع كل مستسلم من المجاهدين في آداء مهمته، حتّى تمت كل الترتيبات داخل قصبة بسكرة في كنف الـــسرية والكتمان التام، ففي يوم 09 ماي 1844م أمر الدوق "دومال" شيخ العرب ابن قانة بأن يجمع قواته وينضمّ بهم الى القوات الفرنسية لمحاربة أولاد سلطان وأولاد بوعون، ولما سمع الخليفة محمد الصغير بهذا الخبر، رأى أن الوقـــت قـــد حـــان للإستلاء على بسكرة، فـــجـــنـــد ما بقي له من فرسان وهاجم بهم القوات الفرنسية المرابطة ببسكرة على الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وذلك من يوم 12 ماي، وأحرز على إنتصارات باهرة إحتلّ على إثرها المدينة.

وقد أورد الرائد " توماس" وقائع هذا الهجوم في تقرير مفصل (57) أرسله الى القيادة العليا، أوضح فيه أنـــه في صبيحة يوم 12 ماي على الـــساعة الثانيـــة صباحاً دخل حوالي مائة وخمسين مقاتلا من جنود الخليفة اليحـــيّ القـــصبة مستعملين الثغرة الموجودة بجدارإسطبل البقر، ولما تنبّه لهم فرسان العرب الذين يكونون زمالة قائد بسكرة، اطلقوا عليهم النار، غير أنّ أنصارالخليفة المندســـين في صفوف القوات االفرنسية سرعان ما أخـــمدوا صـــوتهم وقـــتـــلوهم عن آخـــرهم؛ لهذا تـــســـرب جيش الخليفة الى جميع الثكنات داخـــل وخـــارج القصبة.. و لم يضيع دقيقة واحـــدة، فـــاتجهت أغلبية الجـــنـــود الى مكـــان الضـــبـــاط الفرنسيين، وكان أول من واجههم هـــو الضابط " كروشـــار " (CROCHARD) عندما أصـــدر أوامره الى الحارس الذي يرابط أمام بابـــه

بإطلاق النار على المهاجمين، وكان هذا الحارس من أنصار الخليفة محمد الصغير، فصوب بندقيته الى الضابط الفرنسي فقتله في الحين.

أسرع الضابط "بيتي قران " الى حيث الضجيج، خارج منزله، فقتله حارسه بطلقة نارية، ثمّ طعنه بعدّة طعنات بالسّيف، فجاءه الدكتور " أرسلين" (ARCELIN) مسرعًا لإسعافه، فطلب من حارسه أن يناوله البندقية، فسلمها له فارغة، لذلك اهتمّ بتعميرها وفجأة أصيب برصاصة قاتلة من طرف جنود الخليفة. ومن جهة أخرى استطاع العريف الأول " بيليس" (PELISSE) أن يفرّ من نافذة بيته ليلتحق بمركز البوليس الكائن بباب أومال، وهناك ألقي عليه القبض، وبدأ الجنود يتشاورون حول كيفية قتله، وأخيرًا اكتفى احدهم بأن يوجه له ضربة على جبينه بمؤخرة البندقية، فاغمي عليه وبعد حين استيقظ وأسرع إلى بيت القائد "بيتي قران " فوجده مقتولاً أمام الباب؛ عندئذ تيقّن أن المدينة قد سقطت في أيدي قوات خليفة الأمير عبد القادر، فلاذ بالفرار تحت وابل من الرصاص، وفي خارج المدينة التقى صدفة بأحد "القومية" المجندين عند فرنسا فعرض عليه أن يتبعه الى بلدة طولقة ليحتمي بشيخها سي محمد الميوُل.

أما الرائد "رين" (RINN) فقد خالف طرح الرواية الرسمية لهذه القضية[58] وأورد في المجلة الإفريقية تعقيبا عن مقال زميله "شارل فيرو" (Ch. FERAUD) حول معركة بسكرة وادعى أن

"بـيـلـيـس" قد قضى ليلته عند فتاة من أولاد نائل كانت علـى عـلـم بالعملية فحمته وسـلـمـتـه الى المـرابط سي علي بن عـامـر في طولقة ؛ لكن هذه الرواية ضعيفة السند، وافتراء عن هذه البنـت المجـهـولـة.

وهكذا استطاعت قـوات الأمـيـر من اسـتـرداد مدينة بـسـكرة، والجـدير بالذكر هنا هو أن الخليفةمحمد الصغير قـد وجـد بـين الغـنـائم المتحصل عليها في بسكرة امرأة فـرنسية في مقتبل العمر تـدعى " مـاري موراتي " (MARIE MORATI) تقوم بوظيفة طـبـاخة للجيش (59).

انتشـرت أخـبـار سحق الحامية الفرنسية ببسكرة بـسرعة في كـل مكان، وعلم الدوق"دومال" بـتـفـاصيل الواقعة عن طريـق العريـف الأول "بيـلـيـس" يوم 14 ماي، فرجع من باتنة مسرعا آخـذا طريقه الى بسكرة مع قـواته، ودخـلها للمـرة الثانية يوم 18 ماي 1844م (60) بدون مقاومـة أيضا، لأن محمدالصغيربن احمد بلحاج سارع بجمع ا لمتاع والاسلحة والغنائم المكتسبة، حينما جاءته أخبار تحرك القوات الفرنسية، وأمـرجنوده بالانسحاب نحو جـبال الأوراس للمرابطة هناك وطلب منهم عدم المواجهة أو الصمـود والتصـدي للقـوات الفرنسية، حتى لا تتمكن من الانتقام.

وعنـدما وصـلت القـوات الفرنسية الى بـسكرة، لاحـظ الـدوق "دومال" أن المدينةخالية من كل أثـر للقـوات العربية المجاهدة، لهـذا اتخـذ إجـراءات صارمـة وتـدابيرحازمة(61) لمعاقبة الحيز السكاني على تأيـيـدهم للمجاهدين، تـتـمثل في النهب والاغتصاب وهتـك للحرمات والأعـراض مع القتل والحجـز لبعض أمـلاك المجاهدين وغـيـر ذلك.

وفي 23 ماي 1844م أصدر الدوق "دومال" أمرًا عامًا اعتبره تنظيمًا جديدًا للجنوب، عيّن بمقتضاه الرائد "توماس" قائدًا أعلى لدائرة بسكرة، وتحت إدارة هذا الضابط أربعة مسؤولين من الأهالي يعملون في نطاق محدد:

أ- قيادة شيخ العرب (بوعزيز بن قانة)، الذي منح منصب خليفة الصحراء، وتمتد سلطته على:

1)- **واحة بسكرة**: توضع واحة بسكرة بما فيها المدينة (القصبة) تحت سلطة القائد محمدالصغير بن علي بلقدوم بن قانة، وقسمت الواحة إلى ستة أحياء هي: باب القبة، رأس الكريا، باب الغرب باب الغلة، قدشة، المسيد، ويدير، ولكل حيّ كبير الجماعة.

2)- **الزاب الظهراوي**: ويشتمل على الواحات التالية: بوشقرون، فرفار، البرج، ليشانة، الزعاطشة وطولقة، كل هذه القرى تخضع لكبراء الجماعة، ماعدا طولقة التي لها شيخ.

3)- **الزاب القبلي**: ويشتمل على الواحات التالية:أورلال، ليوا، مخادمة، ابن طبوس، مليلي، الزاوية، المناهلة، بيقو، أوماش، الصحيرة، ولكل من أورلال ومليلي شيخ، أما الواحات الأخرى فتخضع لنظام الجماعة.

4)- **البدو والآخرون**: يوضعون مباشرة تحت سلطة شيخ العرب، وهم البدو، رحل الجنوب، عرب الشراقة وعرب الغرابة، وأولاد سيدي صالح.

ب- قيادة سي مقران: هذا القائد الأهلي المنحدر من أسرة مرابطة من أولاد سي محمد بلحاج، تلقى قيادة الحضنة، وأولاد دراج وأولاد زيان، وبني سويق، وبني فراح، وأولاد سحنون، والقنطرة، والبرانس، والسحاري.

جـ - قيادة الزاب الشرقي: قسم ما بين الفرعين المتناحرين من أولاد صولة، وهما البوعبدالله وابن شنوف، ويحتفظ شيخ العرب بتأثيره الواضح على هؤلاء السكان. [62] وبهذه الإجراءات والترتيبات الإدارية الجديدة اعتقدت السلطات الفرنسية أنها قضت بصفة نهائية على المقاومة ورسخت أقدامها على بوابة الصحراء، لتدلج بعد ذلك داخل الصحراء نفسها، وتتربع عليها. ورغم ذلك فقد كانت روح الثورة مازال قائمة ومتأججة في النفوس، حيث تمكن خليفة الأمير عبدالقادر من تجنيد قبائل ذواودة الأوراس، وهاجم في 8 جويلية 1844م واحة الدروع الكائنة شمال شرقي سيدي عقبة فأباد الحامية الفرنسية المرابطة هناك، ثمّ انتقل بعد ذلك الى خنقة سيدي ناجي لتخليصها من الاحتلال.

وخلال سنة 1845م حاول سكان أحمر خدو أن يخدعوا الرائد "سان جرمان" (SAINT GERMAIN) قائد المكتب العربي ببسكرة، من إيهامه أنهم سيخضعون له، وفي بداية سنة 1846م أشيع في الأوساط الشعبية أن الأمير عبدالقادر سيقوم بزيارة الى الشرق الجزائري، لهذا بدأ أنصار الخليفة محمد الصغير يتحركون ويستعدون للمقاومة، وقد أثارت هذه التحركات مخاوف الملازم

"ليبار" (LIEBERT) قـــائد دائرة بســـكرة. [63] كما امــتـــازت هذه السنة بمقاومة جبال شـــرشار واسترجاعهم من العدو واحة خـــنــقـــة ســيدي ناجي، وقد واجـــههم الرائد "سان جرمان" بـــمـــدافعه وأسلحته الفتاكـــة، وتمكن من القضـــاء على ثـــورة النمامـــشــة الباسلة، وعـــاقـــب الثـــوار بالمنطقة عقا بًا شـــديدًا [64].

وهكذا بعد أن فرغت جعبة الخليفة محمد الصغير بن أحمد بن الحاج استقر مع زوجته الفرنسية بمدينة توزر الجميلة (بالجريد التونسي)، وانجبت له ولدين، وتوفي ودفن بتوزر سنة 1856م (رحمه الله). أما الزوجة فقد انتقلت إلى مدينـــة القيروان مع ابنيها لتجاور مسجد سيدي عقبة، لأنها لاتـــستطيع الرجـــوع إلى مسقط رأس زوجها التي هي بلدة سيدي عقبة، فعوضتها بالقيروان لما لهما من علاقة وطيدة.

تلكم هي النبذة التاريخية عن جهاد خلفاء الأمير عبد القادر في إقليم الزيبان والجنوب الشرقي الجزائري ضد التواجد الفرنسي فيـــه ؛ والـــذي يرمـــي إلى إغتصاب السيادة الوطنية، والتي استرجعت بعد كفاح مرير، لأن الحرية الحمراء لا تسترد إلى بقرابين الشهداء. والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار. ولله الأمر مـــن قبل ومن بعد.

الإحالات:

(1) هو محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد ابن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحضي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمّه فاطمة الزهراءبنت سيّد الوجود محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، أنظر: عبد الرحمان بن محمد الفاسي، جوهرة العقول في ذكر آل الرسول...، وذكره كذلك، الونشريسي صاحب، المعيار.

(2) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، طبعةثانية، شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت، ص:155.

(3) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية لنشر، 1974، ص:54 – 56.

(4) نفس المصدر، ص:58 – 59.

(5) A. BENACHENHOU, L'état algérien en 1830 ses institutions sous l'Emir Abdelkader,Alger,S. D. ,p. 70 .

أنظر أيضا: إبراهيم مياسي، « بناء دولة الأمير عبد القادر»، جريدة المساء، الأحد 08 صفر 1409هـ/08 سبتمبر1988م، العدد 921. القسم الثاني، الثلاثاء 10صفر1409هـ/10 سبتمبر1988م.

(6) إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص. 35-36.

(7) محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الطبعة الثانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص80.

(8) Charles FERAUD , Le Sahara de Constantine , Notes et Souvenirs , ALGER , JOURDAN, 1887 , pp. 288 - 289 .

(9) Vallée, Maréchal , Correspondance, Tome I (octobre 1837 - Mai 1838) Publiée par G. Yver, Paris(Ve), Larose, 1949,p. 14 .

(10) Charles FERAUD,«Les BEN - DJELLAB, Sultans de Touggourt, Notes historiques sur la province de Constantine», in Revue Africaine, n° 28, (1884), p. 220 .

(11) محمد الصالح العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة، أو استلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم د. يحي بوعزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص:114.

(12) Féraud, « Les Ben-Djellab», op. cit. , p. 221 .

(13) Bouaziz-Ben-GANA, Le Cheik El - Arab, étude historique sur la famille Bengana, Alger, BASTIDE-JOURDAN, 1930, p. 56 .

(14) BENGANA, op. cit. , pp. 56-57 .

(15) Ch. Féraud ,« Les Ben-Djellab», op. cit. , p. 224 .

(16) Ibid. ,p. 226 .

(17) Ibid. , pp. 227 -229 .

(18) شرح المثل هو: ــ الضبع: هو الحسن بن عزوز ــ ميدة القارة: هي ربوة صغيرة أمام واحة الزعاطشة والتي ترعرع بها الحسن بن عــزوز - ثعلب الغيران: هو ا محمد الصغير بن أحمد بلحاج تلميحًا إلى حياته التعبدية (الدينية) في خلايا زاوية سيدي عقبة ـــ وسيد الغابة: هــو الأسد ويعني فرحات بن سعيد.

(19) Bouaziz Ben gana , Le Cheikh El - Arab ,p. 64.

(20) Ibid , pp. 64 - 65.

(21) محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبــد القادر، الطبعة الثانية شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة، 1964، ص: 300.

(22) Rapport sur la puissance et les réssources d'Abdelkader par M. MASSOT , Adjoint à - l'intendance militaire, Grenoble, le15 juin 1841. A. M. G. , H. 228.

(23) SEROKA, op. cit. , p. 420 .

(24) FERAUD, «les Ben - Djellab» , op. cit. , pp. 331-332 .

(25) Ibid. , pp. 334-336 .

(26) Le Commandant SEROKA « Le Sud constantinois de 1830 à 1855 – « in Revue Africaine , n° 56 , (1912), p. 409 .

(27) Valée,Maréchal, Correspondance,Publiée par G. YVER, Tome II , p23. et voir aussiBen - Gana, op. cit.,p. 76 .

(28) FERAUD , « Les Ben-Djellab», op. cit. , p. 260 .

(29) BENGANA , op. cit. , p. 77 .

(30) FERAUD ,« Les Ben- Djellab», op. cit. , p. 264. 265 .

(31) X. YACONO. « Les premiers prisonniers algériens de l'Ile Sainte –Marguerite »,(1841 –1843), in Revue d'histoire maghrébine,Tunis,Janvier 1974, pp. 39-61 .

(32) X. de l'Ile Sainte –Marguerite », op. cit., pp. 53-57 .

(33) La traduction de cette lettre se trouve dans Archives d'Outre Mer(A. O. M.) , F80 574, sous un bordereau n0 1 daté du 10. 9. 1841 .

(34) A. O. M. , F80 563 .

(35) YACONO. « Les premiers prisonniers algériens…»,op. cit. ,pp. 57-58 .

(36) رسالة الخليفة الحسن بن عزوز إلى ملك فرنسا بتاريخ 07 / 12/ 1841. H. 228 , .O. M. G

(37) يعتبر محمد الصغير بن أحمد بلحاج صهرا لشيخ العرب بوعزيز بن قانة. أنظر: Feraud, op. cit. , p. 465 .

(38) Rapport sur un projet de tenue pour les troupes d'infanterie en Afrique, Constantine, le 20 Janvier 1843 , A. M. G. H. 228 .

(39) BEN GANA, op. cit. , p. 83 .

(40) Ibid. , p. 84 .

(41) FERAUD, « Les Ben Djellab», op. cit. , pp. 465 -466 .

(42) Correspondance du DUC D'AUMALE et de CUVILLIER - FLEUR , Introduction par RENE VALLERY - RADOT , Tome I , 1840 à 1848 , PARIS , PLON, 1910, p. 297 .

(43) FERAUD , op. cit. , p. 467 .

(44) Ibid , p. 468 .

(45) Journal des Marches et Opérations des Colonnes expéditionnaires de l'Est. Armée d'Afrique,Etat-Major Géneral, Février-Mars, 1844, A. M. G. ,H. 214 .

(46) Rapport sur les opèrations contre les ouled Sultan par la 6° campagnie de Bataillon detirailleurs indigènes de Constantine, G / 6 , n ° 8, le chef de Bataillon Gaubert, le 31 mai 1844, A. O. M. 2H22 .

(47) Correspondance de DUC -D'AUMALE et de CUVILLIER - FLEURY ,Tome I , pp. 299 -304 .

(48) هـــذا التقسيم للســـكان يوحي بالنظرة الاستعمارية العنصرية، من أجل تفـــتيت وحـــدة الصـــف، ليسهل عليـــه بـــسط نفـــوذه، ثم احتلالهم. لذلك فإن معظم المعلومات الواردة في التقرير خاطئة، تخدم الإحتلال.

(49) FERAUD ,op. cit. , pp. 470 - 471 .

(50) Rapport du 22 mars 1844 , du Duc D'AUMALE, in RevueAfric. , n° 28 (1884) , pp. 467 .

(51) SEROKA , op. cit. , p. 430. voir aussi FERAUD ,op. cit. p. 475 .

(52) مذكرات الأمير عبدالقادر، تحقيق د. محمد الصغير بناني وآخرون، الطبعة الثالثة، الجزائر، دار الأمّة، 1998، ص:174.

(53) Rapport du 02 juin 1844, du Duc d'Aumale, in Revue Africaine. , n° 29,(1885), pp. 13 -27

(54) رسالة خطية من السيد بلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني(أحد أعوان كاهية الكاف بقسنطينة) الى السيد صالح بن محمد كاهية، بدون تاريخ - موضوعها: حول تحركات خليفة الأمير، وقائد سيدي عقبة، محمد بن الصغير بن احمد بلحاج والحاج احمدباي وغيرهـــا، - الأرشـيف الوطني التونسي، ملف 929، صندوق78، خزانة7، وثيقة45.

(55) محمد العربي الزبيري، مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي، الجزائـــر، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، 1972، ص. 37.

(56) Ben-Gana, op. cit. , p. 98 .

(57) Rapport du Commandant THOMAS,chargé de l'enquête sur le massacre de la garnison de la Casba de Biskra , in Ben-Gana, op. cit. , pp. 99-101 .

(58) Louis RINN (Commandant) , « BULLETIN » , in Revue Africaine ,n° 30,1886 ,p. 483 .

(59) عـــرض عليها الإسلام ثمّ الزواج، وتـــمّ لـــه ذلك فعـــاشت معـــه مـــعـــززة مكرمة، وأنجبت له طفلين ومكثت الىجانب زوجهـــا الى أن تـــوفي بمدينة توزر (الجنوب التونسي) سنة 1856م، ثمّ انتقلت بعد ذلك حـــوالي سنة 1860م مع ولديها الى مدينة القيروان. وتقول بعض المصادر الفرنسية أنها رجعت الى فرنسا ثمّ ارتـــدت الى المسيحية، بينما

الواقع هو غير ذلك حيث أن هجرتها الى القيروان لــه دلالة واحــدة هي أنها لا تستطيع الرجوع إلى قرية سيدي عقبة المحتلــة، فاختـــارت القيروان لما لها من صلة بموطن زوجها وابنيهــا وبمجــاورة أعــــرق وأشـــرف مســـجد بالمغرب العربي والذي شـيّده الصحابي الجليل عقبة بن نافع. ذلك أن هذه القصة تبرهن مرّة أخرى عن الجانب الخفي للصـــراع الفكري والحضاري الدائر في الجزائر ما بـــين الحـــضارة الأوروبية الوافدة والحضارة العربية الإسلامية صاحـــبة الـــدار. Ben .gana , op. cit. , p. 102

(60) Loc. cit – .

(61) Correspondance de DUC D'AUMALE et de CUVILLIER - FLEURY , p. 307

(62) Ben-Gana, op. cit. ,pp. 102-103 .

(63) Ibid. ,p. 106 .

(64) Rapport au Gouvernement Général, Constantine, 24 septembre 1846,A. M. G. , H 116, copie n° 48. Voir aussi Seroka, op. cit. , p. 440 .

(61) Charles FERAUD, « Les Ben - Djellab » , in Revue Africaine , n° 29,(1885), p. 395 .

مقاومة الحاج أحمد باي

يعتبر أحمد باي آخر بايات قسنطينة، وهو من الخصيات التاريخية التي صنعت أمجاد تاريخ الجزائر، ورمزا من الرموز التي ظهرت وبرزت، بل ولمعت أثناء جهاد الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي، فقد تصدى للإحتلال الفرنسي منذ الوهلة الأولى أي منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر الطاهرة، وكان قائدا فذا وحاكما قديرا، وبطلا مغوارا، أدهش وحيّر العدو الفرنسي لأكثر من ثمانية عشر عاما.

وقد أجمعت المصادر التاريخية على أنّه ابن محمد الشريف وحفيد أحمد باي القلي الذي حكم قسنطينة عام 1799م، أمّا أمّه فتدعى الحاجة غنية ابنت بن قانة، التي تنتمي إلى أكبر عائلات عرب الصحراء، والتي شغلت وظيفة **"شيخ العرب"**، ولذلك يقال عنه أنّه **" كرغلي "** لكن بحكم تربيته العربية الأصيلة، وانتمائه إلى الأرض التي ولد عليها وترعرع فيها، وبحكم انتمائه إلى أسرة أمّه ذات الأصول العربية، وكذلك بحكم ثقافته العربية الإسلامية فهو مسلم عربي جزائري قسنطيني، وليس شيء آخر.

ولد أحمد باي حسب مذكراته حوالي1786 م، أمّا "مارسال إميريت" (EMERIT) فيذكر أنّه ولد حوالي 1780م[1]، ونشأ في بيئة صحراوية عند أخواله، فأكسبته صفات متميزة كالرجولة والمروّة والشهامة والشجاعة، لذلك كانت له شخصية قوية الشكيمة.

أما الوظائف التي شغلها، فقد عيّن - وهو شاب لم يتجاوز عمره الثمانية عشرة - كقائد للعواسي(وهي قبائل عين البيضاء) وهي وظيفة حكومية، لاتعطى إلاّ لأقارب الباي أو شخصية مرموقة، أو ضابط كبير، وبسبب بعض المشاكل التي تعرض لها أثناء أداء مهمته، تمّ إبعاده من الوظيفة ثمّ أبعد من القطر الجزائري، واقترح عليه أداء فريضة الحج

ونظرا لكفائته عيّن خليفة لباي قسنطينة، وهي أكبر المقاطعات في الجزائر وأهمها من جميع النواحي. ، وهو في سنّ الثلاثين، وقد أظهر أثناء ممارسته هذه المسؤولية الجبارة مهارة فائقة ومقدرة كبيرة وخبرة واسعة في اكتساب ثقة الأهالي، واستعداد تعاونهم معه.

ورغم ذلك فقد عزل من منصبه، ونفي من قسنطينة، غير أنّه في منفاه أثار اعجاب يحي آغا قائد الجند، وخاصة أثناء زلزال البليدة سنة 1825م، فتدخل له عند الداي، ليتحصل الحاج أحمد على العفو في المرحلة الأولى، ثم التعيين كباي على بايليك الشرق سنه 1826م في المرحلة الثانية؛ فأصبح بعدها حاكما قديرا يحضى باحترام الجميع، وقائدا فذا له من الدهاء السياسي والعسكري ما يخول له أن يتبوأ هذه المكانة الراقية، التي جعلت منه رجل دولة.

قاوم أحمد باي الإحتلال الفرنسي منذ اليوم الأول الذي دنس فيه أرض الوطن إلى غاية سنة 1848م، وكان حاضرا في عاصمة الجزائر أثناء الحملة الفرنسية عليها وذلك من أجل تقديم مايعرف بـ"الدنوش"(2).

وحينما شارك **الحاج أحمد باي** ـــ منذ الوهلة الأولى ـــ في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة الفرنسية، وانتقد الخطة الدفاعية التي عرضها **الآغا**

إبراهيم لما رأى فيها من سلبيات، وقدم عوضها خطة ترمي إلى دحرجة القوات الفرنسية بعيدا عن مدينة الجزائر إذ يقول: "... وإذا وثقتم بي واتبعتم خطتي فإننا نتجه إلى وادي مازفران، وعندها يقع أحد الأمرين: "إما أن يهاجم الفرنسيون مدينة الجزائر وإما أن يسيروا نحونا، ففي الحالة الأولى ننقض على مؤخرتهم فنأخذ مؤونتهم، ونهاجم قوافلهم فنقتل المتخلفين ونعمل على قطع الاتصال بينهم وبين مراكبهم، وهذه النقطة الأخيرة سهلة جدا لأن البحر يتغير ولا يسمح دائما بالنزول، أما إذا ساروا نحونا ليشنوا علينا الحرب، فإن واجبنا هو أن نتجنب المعركة ونجر جيوشهم إلى ميدان ملائم وبعيدا عن مدينة الجزائر التي هي هدف مشروعهم" (3)، غير أن قائد الجيش الآغا إبراهيم صهر الداي أصر على رأيه رافضا خطة الحاج أحمد باي، مما أدى إلى تراجع القوات الجزائرية في معركة اسطاوالي في 19 جوان 1830م، وفشلها مرة أخرى في وقف زحف جيش الاحتلال بعد معركة سيدي خالف في 24 من نفس الشهر وبعد سقوط العاصمة وحسمت المعركة عسكريا لصالح فرنسا، عاد الحاج أحمد باي إلى قسنطينة، وقد تفطن قادة الحملة على الجزائر منذ الوهلة الأولى إلى مدى قوة أحمد باي وقدرته القتالية، وادركوا الدور البارز الذي لعبه في التصدي لهم بمنطقة سيدي فرج، و لم يكن معه سوى خمسمائة فارس فقط، إلى جانب معركة اسطوالي التي أبلى فيها تابلاء الحسن، بشهادة الأعداء من القادة الفرنسيين. ومن هنا بدأ الفرنسيون يفكرون في بناء علاقات معه، فكانت مبادرتهم الأولى المتثلة في اتصالهم به عند عودته إلى قسنطينة، بمنطقة أولاد زيتون، حيث وصلته رسالة عاجلة من قائد الحملة الفرنسية الجنرال "دي

بورمون"، يطلب منه الاستسلام وأن يعترف بسيادة فرنسا على الجزائر مقابل حفاظه على منصبه، وأن يلتزم بدفع اللزمة التي يقدمها إلى حسين داي، فكان ردّ الحاج أحمد باي كما يلي:دد... ان السلطة قد تسلمتها من حسين، وبرضا جميع سكان قسنطينة ومقاطعتها، وانني راجع إلى مركز قيادتي، وإذا كانت إرادة قادة قسنطينة تتفق مع رغبة الجنرال الفرنسي، فإني سأخضع لها بكل سرور... (4).

وفي أثناء غياب أحمد باي عن قسنطينة دُبرت له مؤامرة ضدّه من طرف الحامية التركيةواليولداش، غيرأنّه أحبطها وقضى عليها..

- استعدادات الحاج أحمد باي:

1. أحاط أحمد باي نفسه برجال ذوي نفوذ في المنطقة من القبائل والأسر الجزائرية العريقة.

2. الشروع في تحصين المدينة وبناء الخنادق والثكنات.

3. اعتماد سياسة تجنيد الجزائريين.

4. ملء الفراغ بتنصيب نفسه "باشا" خلفا للداي حسين، وضرب السكة باسمه وباسم السلطان العثماني.

5. حاول الحاج أحمد باي أن يجعل من الشعب والسلطان العثماني مرجعا لسلطته حيث انتهج مبدأ استشارة ديوانه المكون من الأعيان والشيوخ، ومراسلة السلطان العثماني واستشارته قبل اتخاذ أي موقف مصيري.

6. رفض كل العروض المقدمة له من قبل الحكام الفرنسيين في الجزائر.

7. محاصرة القوات الفرنسية داخل المدن الساحلية المحتلة مثل عنابة وبجاية.

8. مجابهة خصومه في الداخل وإحباط مؤامراتهم.

سياسة فرنسا تجاه بايليك الشرق:

بادرت قوات الإحتلال الفرنسي باحتلال مدينة عنابة عام 1832م، بمساعدة الباي إبراهيم الكريتلي أحد خصوم الحاج أحمد باي الذي فرّ إلى عنابة عن طريق تونس، وقد تمكن نائب أحمد باي ابن عيسى من طرد إبراهيم من عنابة مع الأعداء، غير أن الفرنسيين عزّزوا قوتهم بباخرتين حربيتين، وأعادوا الكرة على عنابة.[5]

وفي الوقت التي بدأت فيه الإستعدادات الفرنسية للقيام بحملة واسعة ضد أحمدباي، والتأهب لحرب منتظرة، بدأت الحرب النفسية من طرف العدو الفرنسي كالعادة، حيث تمّ توزيع إعلان من طرف الحاكم العام الماريشال "كلوزيل" على سكان قسنطينة وضواحيها، يحذرهم من الهجوم على المدينة (قسنطينة) ورفع العلم الفرنسي على أسوارها طبقا لأوامر ملك فرنسا؛ ويطلب منهم المكوث في بيوتهم، وأنّه سوف يحترم عقيدتهم وممتلكاتهم، وسوف ينشر السلام إذا كان دخوله دون مقاومة منهم، وأنّه سوف يوفر الأمن للحاج أحمدباي إذا تخلى عن الحكم بدون شروط.

انتهجت فرنسا في مجابهتها للحاج أحمد باي، سياسة مبنية على المزج بين المناورات الدبلوماسية والقوة العسكرية.

أ- دبلوماسيا:

- اللجوء إلى التفاوض مع الحاج أحمد باي، ولإجباره على إقرار السيادة الفرنسية مقابل الإعتراف به بايا على قسنطينة، وقد تكررت هذه المساومة في عهد كل من "دي بورمون"، "كلوزيل"، "روفيقو"، "دامريمون"، إلا أن الباي أصر على رفض تلك العروض.

- التحالف مع خصوم أحمد باي من أمثال إبراهيم الكريتلي في عنابة، فرحات بن سعيد في الزيبان.

- تركيز القوات الفرنسية في جبهة واحدة، بعد أن تلقّت ضربات موجعة على يد الأمير عبد القادر، وفشلها في محاولتها الأولى في احتلال قسنطينة نوفمبر 1836، مما دفعها إلى عقد معاهدة التافنة، لتتفرغ إلى الجهة الشرقية.

ب - عسكريا:

- شنت فرنسا سلسلة من الهجمات على المدن الساحلية لبايليك الشرق منذ 1830، تمكنت من الاستيلاء على مدينة عنابة سنة 1832 رغم استماتة قوات الحاج أحمد في الدفاع عنها.

- الاستيلاء على بجاية سنة 1833.

- احتلال قالمة سنة 1837.

- قطع المدد على بايليك الشرق من الناحية البحرية والحيلولة دون وصول الذخيرة والأسلحة من الباب العالي إلى قسنطينة.

- شن حملتين عسكريتين على قسنطينة، بعد أن رأت السلطات الفرنسية في بايليك الشرق خطرا عليها، ومن ثمة لا بد من محاربة الباي الذي بدأ

يستعد للدفاع عن قسنطينة، وأخذ الماريشال "كلوزيل" يعد العدة لشن حملة على عاصمة بايلك الشرق بجيش تعداده نحو 8700 جندي، في حين قسم الحاج أحمد باي قواته إلى قسمين، حدد مهمة القسم الأول في الدفاع، والثاني في ضرب الخطوط الخلفية للعدو. وفي 21 نوفمبر 1836 هاجم الجيش الفرنسي قسنطينة، إلا أن حصانة المدينة واستماتة أهلها بالإضافة إلى نجاح الخطة التي رسمها الحاج أحمد باي، أجبرت الماريشال "كلوزيل" على التقهقر والتراجع بعد أن تلقى هزيمة نكراء أمام أسوار مدينة قسنطينة، مماجعل السلطات الفرنسية تعزله. وفي 5 أكتوبر 1837م شن القائد الفرنسي الجديد "دامريمون"(Damrémont) حملة قوامها 24000 جندي للدخول إلى قسنطينة وفيها لقي مصرعه تحت أسوار المدينة، فخلفه الجنرال "فالي"(Valée) على رأس الجيش الفرنسي، لكن عدم تكافؤ القوتين هذه المرة أضعف دفاعات المدينة وأدى إلى سقوطها يومي 13و14أكتوبر 1837م [6] بعد المقاومة العنيفة من طرف السكان بقيادة الحاج احمد باي، غير أنه لم ينتصر وأجبر على الفرار من المدينة مع بعض أقاربه وجزء من جيشه، والتجأ الى الجنوب لجلب الأنصار من بسكرة والصحراء عن طريق أصهاره من عائلة ابن قانة المشهورة والتي لها التأثير الكبير في تجنيد القبائل الصحراوية لاسترجاع مدينة قسنطينة.

لذلك شكل احمد باي زمالته بجميع الذين خرجوا معه من قسنطينة، وأقترح عليهم التوجه الى الجنوب للإرتكاز به ثمّ الإنطلاق لمحاصرة قسنطينة والتمركز على طريق عنابة لقطع المدد والإتصالات عن العدو، وبذلك يحقق النصر، غير أن خاله بوعزيز بن قانة صاح وعارض هذا المشروع، وأشار عليهم

بالتوجه الى الصحراء أولا، لمحاربة خصمهم العنيد وعدوهم اللدود فرحات ابن سعيد من عائلة بوعكاز وشيخ العرب في الزيبان وطرده منها ثمّ التوجه بعد ذلك بقوات كبيرة وموحدة لمهاجمة الفرنسيين بقسنطينة.

لم يستحسن الباي احمد هذه النصيحة، إلا أنه أرغم على ذلك، لكونه لم يشك لحضة واحدة في إخلاص بوغزيز له [7].

وبعد يومين من ضياع قسنطينة، وحينما كان احمد باي يستعد للانسحاب نحو الصحراء وفق خطة خاله، اتصل به مبعوث من قبل قائد القوات الفرنسية في معسكره بـ "أم الأصناب" قدم له رسالة قصيرة تتضمن ما يلي:« تعالوا اطلبوا الآمان، واستسلموا سريًا، سنبعثكم إلى فرنسا. » فأجابه بالرفض لكن سرعان ما جاءه شخصان آخران بعد ذلك بثلاثة أيام وهما ابن العطار من قسنطينة والحاج الباي من عنابة موفدين من قبل نفس القائد، وعرضا عليه نفس الاقتراح السابق، فأجابهم بالإيجاب وفضل التوجه الى بلد إسلامي أو الى بيت الله، ولما سمعه ابن قانة اعترض عليه لأن الباي يريد أن ينكث العهد الذي ضربه على نفسه بمواصلة النضال. ولهذا رضخ الباي لرغبة خاله ورفض العرض الفرنسي وأخذ طريقه الى بسكرة، وقد أرسل أمتعته الى بلدة القنطرة ومنها الى الاوراس بقرية مَـنْعَـة. [8] وعند وصوله الى بلدة الوطاية، علم أن فرحات بن سعيد يلاحقه وقد دعم صفوفه بأولاد عبد النور والبلازمة والحضنة، ثم قام بهجوم كاسح على مدينة بسكرة، كأول مواجهة بين الأشقاء، والذي استمر طويلا كصراع دموي بين الأخوة الأعداء لينهك قوهم التي يجب أن توجه الى العدو الحقيقي وهو الاحتلال الفرنسي.

أنتصر فرحات بن سعيد على قوات احمد باي واحتجز منهم بعض الرهائن كدليل على نصره، وأقسم أنه لن يراسل إلاّ الماريشال فالي (VALEE) حاكم قسنطينة(5) ليخبره رسميًا بالنصر الذي أحرزه على عدوه، وهو بهذا الإجــراء يريد التقرب من السلطة الفرنسية. كما أبلغ أيضًا قائد قسنطينة، حمودة ولــد شيخ البلاد، بأنه سيرسل إليه الرهائن المحتجزين عنده من بسكرة، وكل ذلــك من أجل الحصول على منصب شيخ العرب، الذي حرمه منه أحمد باي ونصّب فيه صهره بوعزيز بن قانة.

استمر الحاج أحمد باي المجاهد المستميت في المقاومة بخــوض المعــارك ضارية في جبال الأوراس والجنوب القسنطيني وغيرها من جبهات القتال، مــع أولاد سلطان والقبائل المجاهدة في المنطقة، لكن بمرور الوقت وتعقد المــشاكل، بدأ يفقد معظم مساعديه، وخاصة بعد نشوب الخلافات الحادة بينه وبين بعض شيوخ القبائل، وبعد أن تفرق عليه الأنصار وأنهــكــه التــعــب والمــرض، تــقــدم برسالة إلى قائد دائرة بــســكرة "ســان جــــرمان" (Saint – Germain) بتاريخ 02 جــوان 1848م يــطــلــب فيها:

" الأمــان" (9) فــوافقت السلطات الفرنسية عن ذلك، فأخذته السلطة إلى مدينة بــاتــنة ومنها إلى قسنطينة التي دخــلها ذليلاً كسيرًا، ثمّ بقي بالجزائر العاصمة تحت المــراقبة المــشدّدة حتّى سنة 1851م (10)، وبعد وفــاته دفــن بمسجد سيدي عبدالرحمان الثعالبي بالقصبة (رحمه الله).

الإحالات:

(1) Marcel EMERIT, «Les Mémoires d'Ahmed dernier Bey de Constantine », in Revue Africaine, n° 93 (1949), pp. 65 – 125

أنظر أيضا: بوعزة بوضرساي، أحمد باي، رجل دولة ومقـــاوم، مخطوط رسالة ماجستير، تحت إشراف د. جمال قنان، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1992.

(2) الدنوش: هي الرحلة التقليدية التي يقوم بها البايات كل ثلاث سنوات إلى العاصمة لتقديم تقرير عام عن حالة الإقليم، وتجديد الولاء للباشا، ودفع «اللازمة» أو الإلتزام المالي الذي يحمله كل باي معه إلى الباشا والخزينة العامة.

(3) محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الطبعة الثانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص:14.

(4) المصدر السابق، ص:17.

(5) الدكتور أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، [بداية الإحتلال]، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص:138.

(6) Mémoires du Maréchal DE MAC MAHON , Duc de MAGENTA, Souvenirs d'Algérie, publiés par le comte GUY DEMIRIBEL , PARIS, PLON ,1932, p. 39. Voir Aussi, Abdeljelil TEMIMI, Le Beylik de Constantine et

HADJ Ahmed Bey , (1830 - 1837) ,TUNIS,Publication de la Revue d'Histoire Maghébine Vol. 1 , 1978 , p. 194 .

(7) مذكرات أحمد باي، ص:76-77.

(8) Charles FERAUD,« Les BEN - DJELLAB , Sultans de Touggourt , Notes historiques sur la province de Constanaine », in Revue Africaine, n° 28(1884), p. 220 .

(9) Charles FERAUD, « Les Ben – Djellab Sultans de Touggourt», in Revue. Africaine. , n°29(1885), p. 395 .

(10) Le Commandant SEROKA ,« Le Sud constantinois de 1830 - 1855 »,in Revue Africaine, n°56(1912),p. 502. Voir aussi ,Conquête et pacification de l'Algèrie , PARIS, libr de France , sans date , p396. Paul AZAN

المقاومة في بلاد الزواوة – (القبائل)

تقديم:

عرفت بلاد الزواوة مقاومات عنيفة ومتواصلة، بعد الاحتلال مباشرة، وخاصة طيلة الخمسينيات من القرن التاسع عشر، ولم تكن هذه المنطقة بمعزل عن الأحداث الجارية في مختلف أنحاء البلاد، منذ أن وطأت أقدام الهمجية والإكبار أرض الجزائر الطيبة؛ وظهر بالزواوة الكثير من الشرفاء والزعماء قادوا الثورات المتتالية.

ذلك أن بلاد الزواوة (أو بلاد القبائل، أو بلاد جرجرة) تتمتع بمكانة استراتيجية هامة جدا في نظر سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر، لكونها تمثل إقليما جغرافيا متميز في الجزائر. ويقع هذا الإقليم شرق الجزائر العاصمة، ويحده البحر البيض المتوسط من الشمال وبرج حمزة(البويرة)من الجنوب، ومجرى نهر يسر من الغرب، ومجرى وادي الصومام من الشرق، لهذا عزمت هذه السلطات على إخضاعها لنفوذها، بكل الوسائل، لأنها تيقنت أن ذلك يحقق لها مكسبا وانتصارا على جميع المستويات، الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ومما لاشك فيه هو أن أهل القبائل قد شاركوا منذ الوهلة الأولى في الدفاع عن وطنهم، وقد راعهم ما شاهدوه من حصار فرنسا للجزائر استعدادا للحملة عليها، ولما أرسل الداي حسين برسائل إلى مختلف جهات الوطن يخاطب فيها العروش العربية والقبائلية، ويوضح فيها خطر هذه الحملة وأن الدين الإسلامي يحث المسلمين على الجهاد والمقاومة ضمن الحرب المقدسة ضد الكفار[1].

وبمجرد وصول هذه الرسائل إلى بلاد القبائل اجتمعت جميع العروش من أجل تلبية نداء الواجب والوطن، وتركوا خلافاتهم جانبا إلى ما بعد الحرب، ثم انطلقوا جميعا في اتجاه العاصمة تحت قيادة أشرافهم من المرابطين والزعماء من الأجواد(الفرسان)، يحملون رايات طرائقهم الصوفية وزواياهم، وقد قدر عددهم بخمسة وعشرين ألف مجاهد وهو ما يمثل نسبة عشر(10/1) السكان في ذلك الوقت[2]، وهذا موقف رائع يحسب لهم ويخلده التاريخ ويبقى راسخ في الذاكرة الشعبية.

البدايات الأولى لاحتلال بلاد القبائل

منذ السنوات الأولى للاحتلال، وضعت القوات الفرنسية يدها على أطراف من هذه المنطقة الجبلية الوعرة لجس نبضها فقط، إلا أن دخولها إلى القلب تأخر بأكثر من ربع قرن، أي عام 1857م، ذلك أن هذا التأخر يرجع إلى عوامل عديدة منها أن فرنسا كانت منشغلة بحروب وثورة الأمير عبد القادر في غرب البلاد وفي سهل متيجة وأماكن أخرى مختلفة من جهات الوطن، كذلك مقاومة الحاج أحمد باي بشرق الجزائر وثورة الزعاطشة وثورة شريف محمد بن عبد الله سلطان ورقلة في الجنوب وغيرها، وكل ذلك كان على المستوى الداخلي، أما في الخارج فإن الحكومة الفرنسية بقيت مترددة بشأن غزو بلاد القبائل إلى غاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي، ففي عام 1844م احتدم النقاش حولها في الصحافة والمنابر، وقد رأى بعضهم أن وجود شبه دولة مستقلة على مقربة من عاصمة الجزائر يشكل خطرا على فرنسا خصوصا أن هذه الدولة تحتقر سلطة الفرنسية وتأوي (المجرمين والفاسدين -حسب نظرها)

الداعين إلى الجهاد، وتدعي بأنها تبيع وتشتري في أسواقها بدون أن تسمح لها بالدخول إلى جبالها داخل القبائل، كل هذا يعتبر إهانة كبيرة لشرف فرنسا لا يمكن السكوت عنه [3].

كانت المراكز الأولى التي احتلها الجيش الفرنسي في بلاد الزواوة هي:دلس وبجاية على الساحل، وبني منصور وذراع الميزان فيما بعد، ثم احتلال سور الغزلان، وهكذا أحاطوها من الشرق والغرب والجنوب بمراكز عسكرية أصبحت بمثابة نقاط انطلاق للقوات الفرنسية للانقضاض على المناطق الجبلية الداخلية، إلا أنها واجهتها صعوبات جمة كلفتها غاليا، سواء منها وعورة تضاريس البلاد، أو شجاعة واستبسال السكان في الدفاع عنها، حيث يشهد القائد الفرنسي المحنك المارشال "راندون"(RANDON) على ذلك بقوله:"عملنا الكثير كي نتغلب على مقاومة الأهالي، إلا أننا كنا بعدين عن تحقيق خضوعهم الكامل"[4].

وكانت البوابة البحرية الهامة لبلاد القبائل هي مدينة بجاية التي احتلتها منذ عام 1833م، حيث تحركت حملة عسكرية من مدينة "طولون" بفرنسا بقيادة الجنرال "تريزال"[5] (TREZEL)، وذلك يوم 22سبتمبر 1833م، ووصلت إلى بجاية يوم 29 من نفس الشهر، وقد تمكنت من احتلال المدينة بعد مقاومة باسلة من طرف السكان، ولم يستتب لها الأمر ألا بعد 1835م عندما توصلت القوات الفرنسية من عقد شبه معاهدة صلح مع أحد شيوخ المنطقة وهو الشيخ السعيد ولد أورابح، وهي الهدنة التي لم ترض كل القبائل، مما ترتب عنه حدوث مشاكل عديدة استمرت إلى أكثر من عقدين من الزمن، بدأت بمقتل الحاكم

العسكري لمدينة بجاية وهو"م. سـلومون"(M. SALOMON) من طرف الأهالي(6).

كان هذا في الجهة الشرقية لبلاد القبائل. أما من الجهة الغربية للبلاد، فنجد أنه في ليلة 18 ماي 1837م، اجتازت فرقة عسكرية بقيادة العقيد "شـونبورغ" (SHAUENBURG) مضيق بني عائشة (ثنية حاليا)وهي أول مرة تجتاز فيها قوة عسكرية فرنسية هذه البوابة المفتوحة على بلاد القبائل. وكان هذا القائد ينوي الالتقاء بالفرقة التي كانت تحت قيادة الجنرال "برقو" (PERREGAUX) عند مصب نهر يسر إلا أن هذا الأخير كان من المقرر أن يصل عن طريق البحر، فتأخر بسبب الأحوال الجوية الرديئة، وهكذا عادت هذه الفرقة خائبة(7). أما من الجهة الجنوبية فلم يكن الاتصال بها -بشكل مباشر- كما كان في الشرق أو الغرب، إذ نجد أنه وفقا لاتفاقية تافنة بين الأمير عبد القادر والسلطات الفرنسية، دخلت بلاد جرجرة تحت حكم الأمير عبد القادر، وعين عليها خليفته **أحمد بن سالم** ليمثل سلطته. وكانت السلطات الفرنسية ترى أنه من المهم أن تحصل على طريق يصل بين الجزائر وقسنطينة، وغير أن الأمير لم يكن مستعدا ليتنازل لها عن شبر واحد من الأرض.

كان من المقرر أن تتحرك قوة فرنسية من ميلة في إقليم قسنطينة، مارة بمضيق (باب الحديد)، عابرة المنطقة المتنازع عليها، متقدمة منها إلى مدينة الجزائر. وأعطيت هذه الخطة كل السرية الضرورية للمناورة في الحرب(8). وبدأ التحرك نحو بجاية، حيث غادر المارشال"فالي"(Valée) والدوق "دي أورليان"(DUC D'ORLEANS) (أحد أبناء الملك الفرنسي، لويس فليب) ميلة

يوم 18 اكتوبر 1839م بقوة هائلة تقدر بحوالي خمسة آلاف رجل، لتصل هذه القوة مدينة **سطيف** من اتجاهين مختلفين، فأسرع إليها القبائل للدفاع عن أنفسهم، وطلب شيوخهم مقابلة المسؤولين الفرنسيين، وعندما قابلهم كبار الضباط الفرنسيين استظهروا لهم بجوازات سفر تحمل خاتم عبد القادر، تسمح للقوات الفرنسية بالمرور، فرضي الشيوخ بذلك، إلا أنه تبين فيما بعد أن هذه الجوازات كانت مزورة، وكان ختم عبد القادر قد زور؛ لهذا اجتازت القوات الفرنسية منطقة القبائل بكل سهولة، وفي أول نوفمبر دخل الدوق والمارشال مدينة الجزائر دخول المنتصرين الفاتحين، وقد دامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة أيام كاملة.

وصلت أخبار مرور الفرنسيين بباب الحديد إلى الأمير عبد القادر وهو في **تاقدامت**، وخلال ثمان وأربعين ساعة، راكبا فرسه ليلا ونهارا، وصل مدينة المدية، وفي اليوم الرابع من نوفمبر(1839) أرسل البرقية التالية إلى المارشال "فالي": " لقد كنا في سلام، وكانت الحدود بين بلادي وبلادك محدودة بوضوح عندما عبر ابن الملك مع قوة عسكرية من قسنطينة إلى مدينة الجزائر، وكان هذا دون إعطائي أدنى إشارة، أو حتى الكتابة إلي بكلمة تشرحون فيها سبب هذا المرور غير الشرعي بمنطقتي. ولو أخبرتموني بأنه يرغب في زيارة بلادي لقررت اصطحابه بنفسي أو لأرسلت أحد خلفائي ليقوم بذلك. ولكنكم تجاوزتم ذلك فأعلنتم أن كل البلاد الواقعة بين مدينة الجزائر وقسنطينة لم تعد تحت سلطتي. فخرق المعاهدة جاء منكم ... فإني أنذركم بأني سأستأنف الحرب...".

وكان أحمد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر قد كتب يطلب تعليمات جديدة عن كيف يتصرف، فكتب إليه عبد القادر كلمات مواسية ومشجعة، هكذا:

« إن خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين، أن العدو أمامكم. اجمعوا أمركم واستعدوا للمعركة. إن الدعوة إلى الجهاد قد وجهت إلى كل مكان. وأنت رجل هذه الجهات. وإنني أضعك هناك لتمنع دخول العدو.

احذروا البلبلة. اربطوا أحزمتكم وكونوا مستعدين لكل شيء. كونوا على مستوى الحوادث. وتعلموا الصبر فوق كل شيء. لا تدعوا للضعف الإنساني مجالا بينكم. إنما محن أرادها الله. وإن هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد أن يموت من أجل دينه. وسيكون النصر إن شاء الله حليف خطاكم. والسلام من عبد القادر بن محيي الدين».

وبكلمات مشابهة متينة المضمون وجه عبد القادر أمره بالعمل الحالي إلى خلفائه الآخرين، فقد كتب إليهم:

«إن الكافر قد جابهنا بالخيانة، وأن الدليل على خيانته واضح كالنهار، لقد عبر بلادي دون إذني، فاجمعوا شملكم واربطوا أحزمتكم استعدادا للمعركة، إنها على الأبواب، وأن الخزينة العامة غير غنية، وأنتم أنفسكم لا تملكون النقود الكافية تحت أيديكم لتواجهوا الحرب، فأجيبوا إذن حالما تتلقون الأوامر بضريبة إضافية، كونوا عجلين في عملكم وسارعوا إلى الانضمام إلي في المدية حيث انتظركم. »[9]. وهكذا فقدت فرنسا الهدنة، بعد أن أعلن الأمير عبد القادر الحرب عليها.

لقد تخوف الفرنسيون من نشاط ونفوذ الأمير بمنطقة القبائل، فعزموا على غزوها وإخضاعها للسلطة الفرنسية، إذ تولى الجنرال "بوجو"(BUGEAUD) منصب الحاكم العام للجزائر يوم 22 فيفري 1841م، خلفا لـ"فالي" فقرر احتلال المنطقة فجهز عدة حملات عليها بقيادته مباشرة، فانطلقت الحملة أولى من الحراش يوم 29 سبتمبر 1842م، لإخضاع شرق البلاد، وكان عليها أن تمر ببلاد القبائل، فوجدت نفسها يوم 05 أكتوبر، في مواجهة المجاهدين على وادي يسر بمنطقة **تزليوة**، وبعد معركة ضارية تكبدت القوات الفرنسية عدة خسائر منه مقتل العقيد "لوبلوند"(LEBLOND) والرائد "فرجي"(Vergé)، وجرح ستة عشر جنديا.

وانتقاما لخسائرهم، قام الفرنسيون بهدم برج الخروب الذي تم بناءه حديثا ليقيم فيه **أحمد بن سالم**، كما أحرقوا البيوت التي تحيط بالبرج، وفي هذا المكان قدم **محمد بن محي الدين** استسلامه [10] وعين خليفة على **بني سليمان**.

انتهت هذه الحملة يوم 15 أكتوبر 1842م بعودتها إلى الجزائر، وقد وصف "روبان" هذه الحملة بقوله:" ... لم تحقق نتائج كبيرة، فهي لم تدم إلا سبعة عشر يوما، لم تخضع بلادا جديدة، إلا أنها سمحت لهم بإدخال بعض القبائل تحت حكمهم. وهذا أثر كثيرا على أسواق الجزائر، إذ دخلها هؤلاء فنشطت الحركة التجارية وانخفضت الأسعار..."[11].

نقل أحمد بن سالم مقر القيادة إلى وادي اقصاري شمال ذراع الميزان، وفي مركزه الجديد قام بجمع قوات كبيرة لتأديب القبائل التي استلمت لـ"بوجو"، وكان حاكم **التيطري** في ذلك الوقت ابن الملك الفرنسي " الدوق

دومال"(Duc d'Aumale) الذي كلفته السلطات العسكرية الفرنسية بالتصدي لابن سالم، ومنعه من القيام بحملته التي بدأت يوم الفاتح مارس 1843م، غير أن الأحوال الجوية الصعبة عرقلة مساعيه، ولم يحقق الشيء الكثير، وأنهى حملته، ودخل المدية يوم 21 مارس من نفس السنة[12].

تسارعت الأحداث وازدادت المشاكل في المنطقة على كاهل ابن سالم، خاصة بعد أن استولى "الدوق دومال" على زمالة الأمير عبد القادر يوم 16 ماي 1843م، وفي أواخر هذه السنة كذلك ألحقت به ضربة أخرى، وهي استسلام أخيه عمر الذي استقر بيسر. ورغم ذلك استمر ابن سالم في تحريض السكان ضد كل من يخضع للنفوذ الفرنسي، وطلب من الأهالي عدم التعامل مع فرنسا في أسواقها، وقد وجد مساندة من طرف قبيلة **فليسة**، ولذا قررت السلطات العسكرية الفرنسية إخضاع هذه القبيلة التي أصبحت تهدد مكانتها بالمنطقة. وقبل القيام بهذه العملية، وجه الجنرال "بوجو" إنذارا طلب فيه منهم طرد ابن سالم، والكف عن التعرض للخاضعين للسلطة الفرنسية، وإلا سيقوم بحرق بيوتهم ومحاصيلهم الزراعية، كما وجه هذا الإنذار لرؤساء القبائل التالية: **فليسة، عمراوة، بني خلفون، نزليوة، قشتولة، أولاد العزيزوحرشاوة**، ولما لم تستجب هذه القبائل، قرر القيام بحملة جديدة، انطلقت من الحراش يوم 27 أفريل 1844م، وبلغ تعدادها ثمانية آلاف رجل، كان يقودها "بوجو" الحاكم العام للجزائر، كما شارك فيها الضابط "بيليسيه"(Pélissier) وشارك كذلك الخليفة **محي الدين** بحوالي ستة مائة فارس، غير أن هذه المحملة تعطلت بيسر نظرا للأحوال الجوية السيئة[13].

استمرت المناوشات بين المجاهدين والقوات المعتدية طيلة صيف 1844م، وفي خريف هذه السنة أراد المارشال "بوجو" الاحتفال بنصره على الجيش المغربي في موقعة **إيسلي** يوم 14 أوت 1844م، فاستقدم زعماء وقادة الأهالي إلى مدينة الجزائر للمشاركة في هذا الحفل بفرسانهم المقدرة بحوالي ثمانمائة فارس، فاغتنم الخليفة ابن سالم مع بلقاسم اوقاسي هذا الغياب لاسترداد ميناء **دلس**، غير أن سلطات الفرنسية شعرت بخطور هذا التحرك، فسارعت بتشكيل قوة كبيرة لإحباط هذا العمل، حيث ضم الطابور العسكرية، أكثر من ثلاثة آلاف وثلاث مائة رجل تحت قيادة الجنرال "كومان"(Comman) ومساعديه[14].

مقاومة محمد بن الهاشمي ومولاي إبراهيم

وفي عام 1845م برز عدد من الزعماء قادوا بعض الحركات الثورية منهم الشريف بوعود، ومولاي إبراهيم.

أما الشريف بوعود فاسمه الحقيقي **محمد الهاشمي**، وأطلق على نفسه اسم محمد بن عبد الله، ولقبه الناس "بوعود"، كما لقبه البعض "بوسيف"، أصله من تافيلالت(سيجيلماسة)، قدم إلى الجزائر خلال حركة **بومعزة**، في ربيع عام 1845م، بصحبة عدد من أفراد قبيلته كمهاجرين، وانضم إلى صفوفه وبقي يكافح مع الثوار فترة قصيرة من الزمن ثم انفصل عنهم واستقر في جبل **ديرا** بمنطقة سور الغزلان خلال سبتمبر من نفس العام[15]، وتذكر المصادر الفرنسية أن الشريف محمد الهاشمي سمى نفسه (بومعزة) مستعيرا ذلك من اسم الرجل الذي لعب دورا بارزا في حوادث **الظهرة** سنة 1845م. ولم يكن الشريف محمد الهاشمي غريبا عن بلاد زواوة، فقد جاءها مبعوثا من قبل الأمير عدة مرات.

ولاشك انه كان على صلة بزعمائها، ومنهم سي الجودي، والحاج البشير المغربي، زعيم الزاوية الرحمانية وصديق الأمير عبد القادر، وللا خديجة، وهي أرملة سي محمد بن عيسى وزعيمه الزاوية المذكورة بعد الحاج البشير، وكذلك للا فاطمة التي خلفت والدها على زاوية **ورجة** (16).

تمركز الشريف بوعود في عين حازم بمنطقة سور الغزلان وأخذ يعمل على جمع الأنصار، وتهييج السكان، معظم خطره على الفرنسيين وأعوانهم، وتصدى لمقاومته كل من خليفة **التيطري** ابن عيسى ابن يحي، وآغا **ديرا** أحمد ولد الباي السابق بومزراق، والجنرال "ماري –مونج"(MAREY – MONGE)، وخليفة **مجانة** أحمد بن محمد المقراني، وخليفة **سباو** محمد بن محي الدين، الجنرال "داربونفيل" (D'ARBOUNVILLE)، وهاجموه جميعا بقواتهم يومي 11و12 نوفمبر 1845م، وقتلوا له عددا من أتباعه، فانسحب إلى جبال جرجرة، واتصل بخليفة الأمير عبد القادر هناك أحمد بن سالم، وظهر إلى جانبه الشريف مولاي إبراهيم، وقد حاول كل من الشريف محمد الهاشمي ومولاي إبراهيم واحمد بن سالم أن يقسموا العمل بينهم بجبال جرجرة، وحصلوا على أسلحة ومساعدات أخرى مادية من الشيخ مبارك، شيخ الزاوية الرحمانية بآيت بوعلي في بني دوالة.

وبعد معارك عنيفة ضد الاحتلال وقع أسيرا في يد القوات الفرنسية التي أرسلته إلى فرنسا ووضعوه في معتقل قلعة "الهم"(HAM) التي بها الثائر بومعزة، وبعد أكثر من عامين تمكن من الهروب إلى تونس بمساعدة أحد الأوروبيين، ومن تونس التحق الشريف محمد الهاشمي بوعود في صيف عام 1849م بجبال جرجرة الحصينة، حيث اتصل بسي الجودي، ويقال أنه قدم نفسه له على أنه

بومعزة، وقد استقبله سي الجودي في منزله خلال شهر جويلية 1849م، بقرية إيغيل بوماس في بني بودرار، وقدم له حصانا وسيفا، عنوانا على الاعتراف به وتأييده، لهذا اشتهر بـ "بوعود" و"بوسيف"، وهكذا بدأ يجمع الناس حوله في القرى والمداشر، وقد تردد أيضا على للا فاطمة في قرية **ورجة** لتنسيق العمل معها، وبدأ أيضا في جمع الأسلحة والمؤن استعدادا للمقاومة. وفي أوائل شهر سبتمبر 1849م تمركز بوعود وأنصاره القلائل في بعض ربى جبال جرجرة، ومال سكان **بني مليكش** لتأييده، وتردد سكان مشدالله فانتقل إلى قرية تيبحيرين القريبة من قرية سلوم، احدى قرى بني مليكش، وراسل من هناك سكان بني منصور والشرفة، وطلب منهم الانضمام إليه، غير أنهم رفضوا ودخل معهم في مواجهات بعدما استنجدوا بالقوات الفرنسية بسور الغزلان تحت قيادةالكولونيل **"بوبريطر"(Beauprêtre)**.

وفي يوم 03 أكتوبر 11849م نشبت معركة ضارية بين الثوار والقوات الفرنسية لم يستطع أنصار بوعود أن يثبتوا، لأن القوات الفرنسية كانت تملك أسلحة حديثة بعيدة المدى، وذخيرة كافية، وأفادها الخونة بالمعلومات عن خطط الثوار. وقد حاول الشريف محمد الهاشمي أن يوقف أصحابه عن الفرار فصاح فيهم، وذكرهم بكثرة عددهم، وبحرم التولي يوم الزحف، لكن كل ذلك لم يفده، فامتطى فرسه وتقدم بصحبة أحمد بن الجودي، وثلاثة وخمسين رجلا من سكان بني ملكيش، وسلط الفرنسيون عليه الضرب حتى سقط مع فرسه الأرض، فأحاطوا به وأجهزوا عليه، وحزوا رأسه وعلقت في سوق سور الغزلان، أما جثته فقد حملها أتباعه ودفنوها في زاوية أحمد بن إدريس.

وبعد استشهاد بوعود، برز الشريف مولاي إبراهيم كخليفة له. وأتصل بأعيان المنطقة لتنظيم الجهاد منهم للا فاطمة في ورجة، غير أنه لم يجد التأييد، وخاصة من سي الجودي، لهذا عجز عن مواصلة المشوار الثوري، وانطفأت شخصيته بظهور قائد فذ للثورة سنة 1851م وهو الشريف محمد الأمجد بن عبد المالك، واشتهر باسم الشريف "بوبغلة"، وتحول إلى تابع له حتى توفي في شهر أكتوبر 1853م بعد مرض عضال في بني مليكش[17].

خلال 4و5 ماي 1849م ثارت عدة عروش في بجاية ونواحيها على الفرنسيين وأعوانهم، منهم بني سليمان وبني ميمون وغيرهم فقاموا بالهجوم على عدة قرى موالية للاحتلال وأحرقوها، غير أن الملازم "كابارا"(CABARAS)، نائب رئيس المكتب العربي قد تمكن من صد الهجوم وأسر سبعة مجاهدين، كما أن مدير ميناء بجاية "شاربانتيه"(Charpentier) قد ضرب السكان المجتمعين على شاطئ بني عمروس بالمدافع من البحر[18]. واستمرت المواجهات في بجاية طيلة سنة 1850م، وحتى سنوات مقاومة أهل القبائل.

لذلك اقترح الجنرال "دوتيول"(D'HAUTPOUL) احتلال بلاد القبائل عام 1850م قصد القضاء على الثورة إلا أن الحكومة الفرنسية رفضت ذلك[19]، ومن بين ما قاله في تقريره ما يلي:" ...يجب إرسال حملة ضد بلاد جرجرة، وتكون أقصر من الحملات الأخرى وهي أسهل منها، لأن العدو يمكن التغلب عليه في كل مكان، وهذا العدو مرتبط بالأرض عن طريق القرى المبنية بالحجارة، وعن طريق الملكيات العقارية الأخرى، خصوصا البساتين وعن طريق المصانع ومعامل السلاح والذخيرة، إن القبائل ليس من السهل عليهم أن يفروا

أمام القوات الفرنسية بسبب هذه الارتباطات، ولذا، فبمجرد انهزامهم أمام قواتنا سيعلنون عن خضوعهم لنا...".

ويقول أيضا:" ...إن القبائل سيقاوموننا بلا شك، ولكن التغلب عليهم أمر سهل إذ يكفي تقدير قواتهم بشكل جيد لمعرفة ما يلزمنا من الجنود ... إن القبائل ينظرون إلى قمم جبالهم باعتزاز، فهي ملجأهم، لم تدخل إليها قواتنا إلى حد الآن مع العلم أنها توجد على مقربة من العاصمة...إن حدوث أي مشكل سياسي في أوروبا سيثير بلا شك هذه الجبال وستنتقل من هناك شرارة الثورة إلى بقية أنحاء الجزائر... إن قبيلة زواوة تستطيع لوحدها أن تدافع عن أراضيها بحوالي خمس وعشرين أو ثلاثين ألف بندقية. إن هذه القبيلة تغير من حين لآخر على القبائل الخاضعة لفرنسا وتنهب ما عندها، كما أنها تعتبر ملجأ لكل هارب من السلطة الفرنسية ولكل داعية للثورة... إن الحملة إذن ضد بلاد جرجرة ضرورة ومستعجلة من أجل شرف فرنسا والقوات الفرنسية وضمان سلامة ملكيتها، وهي ستكون في صالح الزراعة والتجارة، وهي ضرورية كذلك لإزالة كل آمل للعرب في الخروج فرنسا من الجزائر..."[20].

ثورة محمد الأمجد، الملقب بـ"بوبغلة"

من أهم الثورات التي اندلعت في بلاد زواوة ثورة الشريف محمد الأمجد بن عبد المالك، والملقب بـ" **بوبغلة** "، (لإتخاذه بغلة يركبها في جميع تنقلاته)، وقبل أن نتعرض لثورة هذا الرجل، يجدر بنا أن نتعرف عليه، فمن هو بوبغلة؟

إن معظم المصادر والمراجع التي تعرضت للحديث عنه كانت تطلق عليه اسم الشهرة فقط وهو "بوبغلة"، ولا توجد دراسات بالعربية عن هذا الموضوع،

وكل الذين كتبوا عنه هم فرنسيون ومعظمهم ضباط في الجيش الفرنسي، ولم يقدم لنا "بوبغلة " في ترجمته الشخصية، إلا معلومات ضئيلة يكتنفها الغموض وما يزال الالتباس قائما عن أصله، وباختصار فإنه يطلق على نفسه اسم محمد بن عبد الله مثل باقي الثوار، ويقول إنه من الغرب.

أما الضابط "روبان" (ROBIN) في دراسته عن هذا الرجل فيرجح أن اسمه الحقيقي هو محمد الأمجد بن عبد المالك ويقول إنه عند وصوله إلى المنطقة كان في الأربعين من العمر وكانت له لحية سوداء وبشرة سمراء وأنف أفطس ووجه عريض وشفاه غليظة، ويصفه كذلك بالذكاء، أما قامته فيقول إنها متوسطة ومكتملة، وتظهر على شخصيته القوة والجرأة(21) وادعى أنه "مولى الساعة" سينقذ الأمة الإسلامية من الخطر الذي داهمها.

أما الحاكم العام "راندون"(RANDON) في مذكراته، فيقول:" لقب بـ" بوبغلة" نظرا لاتخاذه بغلة يركبها في جميع تنقلاته، أما سنه فكان ما بين الأربعين والخامس والأربعين..." (22).

وقد أختلف الناس في أصله فالبعض يقول بأنه من المغرب الأقصى، والبعض قال بأنه كان صبايحيا قديما في حرس مليانة، وآخرون ذكر أنه كان سجينا فر من معتقل "تولون".

عند وصوله إلى المنطقة تزوج بوبغلة من المسماة فاطمة بنت سيدي يحي بن عيسى من أصل أولاد سيدي عيسى، وهم فرع من أولاد سلطان قبيلة عداورة. أما مهنته، فكان يكتب التمائم ويدور في الأسواق، ويتحدث عن نفسه فيقول بأنه اتخذ هذه المهنة حتى يتمكن من معرفة الرأي العام دون أن يثير

الشبهات حول نفسه، وظهر لأول مرة في سوق سور الغزلان عـــام 1849م، وكان ممتطيا بغلة، وفي هذه السوق نصب خيمته وبدأ التـــنجيم، وقيل إنه كان يقوم بتزوير بعض النقود [23].

في بداية عام 1851م، تم الإخبار عنه إلى مكتب الشؤون الأهليـــة بـــسور الغزلان، وقد صدرت الأوامر بسجنه، فأعلم بذلك، وتمكن من الهروب بسرعة بعد أن ترك زوجته عند أخيها الأطرش بن عيسى والتجأ إلى قلعة بني عبـــاس عند المسمى أحمد بن هارون.

عندما علـــم الحاكم الفرنسي بمنطقة بني عباس بوجود بوبغلة هناك طلبـــه من هذه القبيلة إلا أنها رفضت، تسليمه لأن ذلك يتنافى وتقاليد الضيافة عندهم ولكن لما هددهم بغلق الأسواق في وجههم طلبوا من هذا الشريف أن يغـــادر بلادهم، فاتجه عندئذ إلى بني مليكش، القبيلة التي اشتهرت بدعمها لكل الثوار بالمنطقة، وكانت في مقدمة القبائل الثائرة والتي رفـــضت الاستـــسلام رغـــم الضغوط المختلفة التي تتعرض لها، وساعده على المجيء إلى هذه القبيلة رجلان، هما:أعراب أوكروش والحاج علي نايت واضية، ولكن إقامته ببني ملـــيكش لم تطل هذه المرة، فعاد إلى بني عباس [24].

يقول بوبغلة متحدثا عن نفسه بأن مجيئه إلى بني مليكش كان بـــسبب إلحاح سكان هذه القبيلة، وقد استقبلوه بحفاوة بالغة وأقاموا له حفل اســـتقبال كبير يتناسب مع مقامه كزعيم ثائر [25].

وقبل الإعلان عن الثورة، قام بوبغلة ببعض الاستعدادات منها:

تعرف على موقف السكان، وتفهم العاطفة الدينية عندهم، ، بمجرد ظهوره كزعيم للثورة، لهذا تمكن من كسب بعض الزعماء الدينيين في المنطقة وعلى رأس هؤلاء **الحاج عمر** قيم زاوية **سيدي محمد بن عبد الرحمان** بذراع الميزان، وكذلك **سي الجودي** الذي وقف في صفه لحين من الزمن، كما قيل أن للا فاطمة نسومر قد مدت له يد المساعدة كذلك عام 1854م.

بعد وصوله إلى بني عباس تزوج بوبغلة بامرأة ثانية وهي المسماة يمينة بنت حمو أوبعلي وهي من قرية تزغارت، وقد تربت في بيت زوج أمها زينب بقرية ثيموقرا ببني عيدل، وفي بني منداس تزوج بامرأة ثالثة وهي المسماة تسعديث بنت اعمر نايت محند والحاج ؛ إن زواج بوبغلة يكاد يكون زواجا سياسيا، وبواسطته تمكن من إيجاد أقارب له هنا وهناك يستطيع أن يعتمد عليهم عند الحاجة، وذلك سواء لدعم صفوفه أو للالتجاء إليهم عند محاصرتهم من طرف أعدائه، وقد حاول أن يتزوج بامرأة رابعة عام1854 م، وهذه المرة اختار للا فاطمة نسومر، إلا أن هذه الأخيرة كانت لاتزال في عصمة زوجها سي يحي ايوخولاف من قرية عسكر بيتوراغ الذي هجرته في السنة الأولى من زواجهما، وانتقاما منها رفض طلاقها رغم الأموال الكثيرة التي عرضت عليه مقابل ذلك، وقد ماتت عام 1863م دون أن تتزوج من جديد[26].

- تحديد العناصر الرئيسية التي يجب ضربها في البداية كالشخصيات الموالية للاستعمار مثلا أو ضباط فرنسيين أو مراكز عسكرية.
- تحديد المناطق الاستراتيجية التي يمكن الالتجاء إليها إذا اقتضت الضرورة.
- دعوته مختلف القبائل للانضمام إليه.

بعد أن استكمل جميع الاستعدادات أعلن ثورته، بأن قرر القيام بهجوم على عزيب بن علي بن شريف وهو صاحب زاوية شلاطة قرب أقبو، حدث ذلك يوم 10 مارس 1851م. وقد أثار الهجوم حالة من القلق والارتباك في صفوف القوات الفرنسية المرابطة في سور الغزلان، وبني منصور[27]، وكرد فعل السلطات الاستعمارية قررت إقامة مركزا عسكريا ببني منصور بقيادة الكولونيل "بوبريطر"، وجاء في بعض التقارير التي قدمها العقيد "**دوريل**" (**D'AURELLES**) كيف أن ابن علي شريف حمّل السلطات الفرنسية مسؤولية ما حدث إذ أنها لم تستطع حمايته.

لم يقف طموح الشريف بوبغلة عند هذا الانتصار، بل رأى من الواجب القضاء على ابن علي شريف، ولأجل ذلك دعا إلى عقد اجتماع مع بني يجار ويلولة وطلبة زاوية ابن إدريس لتدارس الوضع، والواقع أنه كان يتوخى كسب مناصرين جدد في يلولة أوسامر؛ وتقرر في هذا الاجتماع معاودة الهجوم على ابن علي شريف في شلاطة، غير أن والدة شيخ شلاطة المدعوة عائشة إقترحت عليه الصلح وعدوله عن فكرة مهاجمة عزيب، إلا أنه رفض عرضها، مما أدى إلى وقوع مواجهات خلفت عشرة قتلى من أصحابه وفقدان 75 بندقية، وهو ما اضطره على الانسحاب نحو قرية "إيوزيدين" بني مليكش. ونظرا لخطورة حركته، جندت السلطات الفرنسية قوات كبيرة تحت أوامر ضباط وجنرالات أمثال، "دوريل"، "بلانجي" (Blangini)، "بوبريطر"، "دي ونجي" (De Wengi)، "بوسكي" (Bosquet)، "دوبروتال"، و"كامو" (Camou).

ففي أول جوان 1851م، جرت معركة ضارية بين الطرفين استخدمت فيها القوات الفرنسية كل ما تملك من عدة وعدد، وآلات الحرب الحديثة، وقامت بحرق القرى الموجودة في المنطقة التي كانت تساند بوبغلة، كما قامت بعض هذه القرى بتقديم الطاعة للسلطات الفرنسية، نظرا لهول العنف الذي استخدمته هذه الأخيرة.

وفي رسالة وجهها الجنرال "بوسكي" لابنة أخيه بتاريخ 2 جوان 1851 م من مكان المعركة قال فيها: «...إن البارحة أول جوان تم اللقاء بين بوبغلة وقوات الجنرال كامو التي كنت ضمنها، وقد انتصرنا في هذا اليوم ... لقد فرضنا على بوبغلة مكان اللقاء، وفي ظرف ساعتين تمكنا من التغلب على خصمنا واستولينا على أسلحة كثيرة، كما قتلنا عددا كبيرا من رجاله...»[28].

لقد انتصرت القوات الفرنسية في هذا اللقاء انتصارا كبيرا، ومما يثبت هذا، ذلك العدد الهائل من القبائل التي استسلمت فيما بعد وهي: أولاد يحي، أولاد عبد الله، أولاد عياد، أولاد رزوق، أولاد خالف، امقربة، بني ابراهيم، بني عشاش، بني عفود، غبولة، بني يعلا بني شبانة، بني عفيف، سبتية، بني ورثيلان، وفي اليوم نفسه تقدمت كل قبائل الحراش للاستسلام مع قائدهم شريف مزيان بن الموهوب.

في يوم 10 عسكر "كامو" في ذراع الاربعاء فقسار، وفي يوم 11 أحرق قرية أولاد عمارة التابعة لأولاد رحاب، وهي الوحيدة التي لم تستسلم، وفي يوم 12، عسكر بثوريرت عند برباشة، وفي يوم 15 وصل إلى بجاية، وذلك بعد أن أخضع كل القبائل التي وجدها في طريقها.

في 17جوان، قام الجنرال "كامو" من جديد بصعود مجرى وادي الساحل ملاحقا بوبغلة الذي اغتنم فرصة وجود "كامو" في بجاية لإثارة قبائل المنطقة من جديد، وقد التجأ إلى بني هيمل الذين وقفوا إلى جانبه وساندوه في لقائه مع القوات الفرنسية، وقامت قوات "كامو" بحرق الزرع وكل القرى التي وجدها هناك، وبالمقابل فإن القوات الفرنسية منيت بخسائرفادحة تتمثل في مقتل الجنرال"برال"[29] (BARRAL).

وبمجرد مغادرة بوبغلة لهذه المنطقة، أجبر "كامو" سكانها على الاستسلام، وأهم القبائل التي استسلمت: بني منصور، تيفرا، وبني وغليس، وكان الشريف بوبغلة قد انتقل إلى أوزلاقن. وفي يوم 24 انتقل "كامو" إلى هذه الجهة، وفي يوم 25 جرت معركة كبيرة بين الطرفين، وكانت قوات بوبلغة في هذا اليوم تزيد عن خمسمائة رجل، وفي مقابل هذه القوة البسيطة استخدم "كامو"سبعة فيالق عسكرية ومدفعين كبيرين، وكتيبة من الفرسان، والقوم، وشارك كذلك عدد كبير من الضباط، ولكن عدم تكافؤ قوى الطرفين أدى إلى انتصار الأقوى، وقام بعد انتصاره بإحراق معظم قرى المنطقة قبل مغادرته لها، ومع ذلك فقد ألحقت خسائر بقوات "كامو" كانت تتمثل فيما يلي:مقتل ثلاثة ضباط وهم "بيلو" (Billot)، والملازم "دو فيرنوا" (Du Vernois)، واللازم ابن إدريس من "القوم"، وقتل وجرح عدد آخر من الجنود، وانسحب بوبغلة من جهته عن طريق أكفادو إلى بني صدقاء في الجهة الغربية من بلاد القبائل[30] واستقر عندهم في شمال بلاد القبائل، وفيها أخذ بوبغلة يحرض السكان على الثورة.

واستطاع أن يكسب إنضمام قبائل أخرى، مثل قبيلة معاتقة وبني منداس وقشتولة، بني كوفي، مشتراس، بني بوغردان، بني اسماعيل وفريقات.

في 18 أوت 1851م، تمكن بوبغلة من إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسي وقائده النقيب "بيشو" (Péchot) في معركة قرب بوغني. ردت عليها السلطات الاستعمارية بحملة يقودها "بيليسي"(Pélissier) دامت شهرا كاملا، أخضعت خلالها بعض قبائل المنطقة كقبيلة بني كوفي، بوغني بني منداس [31].

ونتيجة ذلك قرر بوبغلة العودة من جديد إلى مليكش، لكسب مناصرين جدد يدعم بهم صفوفه، لتخفيف الحصار على بعض المداشر، فنقل نشاطه إلى الجهة الساحلية، على رأس بعض القبائل الثائرة في ناحية بجاية. وما كادت تنقضي سنة 1851م حتى لبت نداءه معظم قبائل الجهة، وهو ما جعل فرنسا تدرك صعوبة المهمة التي تنتظرها.

ففي يوم 25 جانفي 1852م وقعت المواجهة مع القوات الفرنسية إثر الحملة التي نظمّها "بوسكي" شارك فيها نحو ثلاث آلاف عنصر من المشاة الفرنسيين. ألحقت الحملة عدة خسائر في صفوف الشريف بوبغلة [32]، وفتحت الطريق بين القصر وبجاية وهو الطريق نفسه الذي سيربط مستقبلا المنطقة بالجزائر العاصمة.

استمر بوبغلة ينتقل من قرية إلى أخرى يحاول جمع الأنصار والأتباع، إلى أن اصطدم بقوات "بوبريطر" عند منطقة الواضية يوم 19 جوان 1852م أصيب أثناءها بجروح في رأسه ومع ذلك واصل أتباعه المقاومة بقيادة بعض مقربيه أمثال محمد بن مسعود من ونوغة واحمد بن بوزيد من عائلة بورنان التي تنتمي إلى عائلة أولاد مقران.

دخلت الثورة مرحلة ثانية سنة 1854م، وخلال هذه السنة تمكن الشريف بوبغلة من تجديد الثورة، وقد تهيأت له الظروف عندما قامت السلطات الفرنسية بإرسال جيوشها في حرب القرم، فأعلن للقبائل: **"إن المناسبة قد حانت لطرد فرنسا من الجزائر لأنها أصبحت ضعيفة جدا ولا يتطلب الأمر منهم إلا مجهودا بسيطا ليلقوا بها في البحر الذي جاءت عن طريقه"**. على أن المنطقة طوال كل هذه الفترة بقيت تعيش في جو من الغليان، مما أدى بالحاكم العام الفرنسي إلى إرسال حملة بقيادة النقيب "ولف"(Wolff). وبتواطؤ مع الباش آغا أوقاسي، حيث أقدمت القوات الفرنسية على مهاجمة عزازقة، وذكر "ولف" في تقريره عن المعركة، مدى إستماتة سكان عزازقة في الدفاع عن ديارهم.

حملة راندون 1854م

قررت السلطات الفرنسية القيام بحملة عسكرية أوكلت قيادتها للجنرال "راندون"، ففي رسالة كتبها هذا الأخير مؤرخة في 26 ماي 1854م بين فيها الأهداف المتوخاة من الحملة قائلا:

"إن هدفي الأول هو ضرب قبيلة بني جناد التي قدمت العون في هذه المدة الأخيرة للشريف بوبغلة الذي ينبغي أن يعاقب، ويكون عقابه درسا للآخرين، وبعد ذلك أوجه جهودي إلى القبائل الأخرى التي تقع على الضفة اليمنى لسباو، وابتداء من يجار إلى غاية زرخفاوة على شاطئ البحر، ولهذا الغرض استعمل ثمانية فيالق عسكرية من دائرة الجزائر وأجمعهم في مقلع

وسبعة فيالق من قسنطينة وسيكون وصولهم إلى المنطقة عن طريق قصر كبوش...."[33]. ويبدو واضحا أن الهدف من الحملة كان يتمثل في إخضاع منطقة القبائل، وقبيلة بني جناد تحديدا، ولهذا الغرض بالذات استقدم قوات إضافية من وهران والجزائر بقيادة الجنرال "كامو" ومن قسنطينة بقيادة الجنرال "ماك – ماهون".

كانت قرية أغريب الموقع الذي يحتمل أن تجري فيه المعركة، لـذا تقرر تحديدها كهدف أولي لضربات الجيش الفرنسي. ورغم ما تمتع به من تحصين دفاعي من حيث وقوعها على مرتفع، أو من حيث الاستعدادات التي أقامها أهلها للدفاع عنها، إلاّ أنها لم تصمد أمام القوات الفرنسية التي أحكمت السيطرة عليها. وفرضت على بني جناد غرامات مالية لوقوفها إلى جانب بوبغلة. وبعد غريب عسكرت الحملة في بوبهير وهي منطقة قريبة من العروش الثلاث: بني يجار وبني يتوارغ وبني يحي على أن هدف "راندون" كان الوصول إلى بني يحي، وعليه دبر خطة أوهم بها قبائل المنطقة رغبته في الاتجاه إلى بني يجار الذين هيئوا أنفسهم لصد حملته والواقع أن الحملة اتجهت إلى بني يحي.

خلال هذه المرحلة وقعت مواجهات بين المقاومين والقوات الفرنسية دامت أربعين يوما خلفت خسائر بشرية قدرتها المصادر الفرنسية بتسعين قتيلا وخمسمائة وثلاثة وتسعين جريحا في صفوف الفرنسيين دون أن تشير إلى خسائر الطرف الجزائري. وقتها كان بوبغلة جريحا في زاوية سي العربي شريف وقد نصحه بنو جناد بمغادرة المنطقة. وبالفعل انتقل بوبغلة إلى بني يجار ومنها إلى يلولا أومالو ثم إلى بني بني، ولاحقا إلى مليكش حيث عاود نشاطه.

وفي يوم 26 ديسمبر بعد الظهر خرج بوبغلة رفقة فارسين من أتباعه وهما عبد القادر المذبوح وأعراب أوكروش وحوالي ستين رجلا من بني ملـيكش، وقصد الجميع أملاك بني عباس الذين كانوا منشغلين بحرث مزارعهم في حوض وادي الساحل على الضفة اليمنى من النهر قرب تازمالت، وأخذ منهم بالقوة – من الرجال الذين كانوا يحرثون – أربعة ثيران وسائقها مع اتباعه، وقفل الجميع راجعين إلى بني مليكش.

سارع رجال بن عباس إلى طلب النجدة من تازمالت وخرج منها القوم بسرعة تحت قيادة القائد لخضر بن أحمد المقراني وجرى الجميع خلف بوبغلـة الذي كان مسرعا إلى أرض بني مليكش، وبسبب كثرة الأوحال تعثر فرسـه، فأطلق عليه القوم النار، فترجل وواصل السير جريا على الأقدام، وقـد أراد أن يختفي داخل الغابة، ومن هناك ينتقل إلى بني مليكش ؛ ولما لاحظ القائد لخضر ذلك، أمر رجاله أن يترجلوا، وكان معه ثلاثة فرسان، فجرى الجميـع وراءه وأطلقوا النار عليه، ورد بوبغلة من جهته على خصومه، فأصيب بجرح في ساقه، وعلى الرغم من ذلك زحف كي يخرج من مكان الخطر، إلا أن القائد وصله مع رجاله وطلب منه بوبغلة ألا يقتلوه وأفهمهم أن تسليمه حيا يكون أحسن لهم، إلا أن القائد لخضرارتمى عليه وقطع رأسه بيده قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة(34).

أخذ هولاء رأس الشريف وسلموه إلى حاكم برج بوعريريج، وقام هـذا الأخير بربطه على عمود وسط السوق كي يمثل به وحتى يراه الجميع ليتعظوا بما يحدث لهم إن حاولوا عصيان طاعة فرنسا وعلى مقربة منه عرضـوا حـصانه

وسلاحه مع ثيابه والختم الذي كان يستعمله في مراسلاته. دفن في تازمالت. وقد إختلفت الروايات حول ظروف استشهاده.

المقاومة بزعامة بوحمارة

لم تتوقف المقاومة في منطقة جرجرة باستشهاد الشريف محمد الأمجد المدعو بوبغلة بل تواصلت في ثورات شعبية تزعمها هذه المرة ثائر آخر يلقب بـ " بوحمارة ". وهو الشريف بن قويدر التيطراوي من عائلة المفاتة في بوغار إقليم التيطري، قاوم أبوه في بلاد القبائل إلى جانب الشريف بوبغلة، وأصبح خليفة له بعد وفاة هذا الأخير، لكن حالته الصحية منعته من مواصلة الكفاح والمقاومة، فولى إبنه المختار الشريف مكانه وقدّمه للناس كزعيم وكـ"مولى الساعة". أطلق عليه إسم "بوحمارة" لأنه إتخذ لنفسه دابة يركبها في تنقلاته، إستعان ببوداودي وأرزقي بورنان إلى جانب أبيه الذي كان العقل المدبر والمخطط لكل أعماله.

في أوّل الأمر لم يلق بوحمارة أية تشجيع أو ترحيب من شيوخ المنطقة الذين استقبلوه ببرودة وفتور، مما فرض عليه التنقل بحثا عن الأنصار والمساعدين. فاتجه إلى بني فرواسن وبني شعيب واتصل بلالا فاطمة نسومر بقرية ورجة، ثم إنتقل إلى بني مليكش التي كانت في كثير من المرات حصنا منيعا يأوي الثوار ومركزا يحتضن الثورة ويدعمها. أخذت حركة بوحمارة تنتشر وتمتد رغم الصعاب التي اعترضته، خاصة بعد قيام السلطات الفرنسية بتشديد المراقبة على الأهالي للقضاء على المقاومة في هذه المنطقة[13]، فمنعت التنقل بدون رخصة بين بني منقلات وبني بوسيف. رغم ذلك كسب تأييد بعض الذين كانوا

يعارضون حركته أوّل الأمر كالشيخ أوعراب في بني راثن بعد أن كان أيـضا معارضا. ورغم قصر عمر حركته، إلاّ انه قاد عدة هجومات منها هجـوم 31 أوت 1855م على بعض المخبرين الفرنسيين وأعوانهم في قرية جمعية الـصهريج وضواحيها قرب المقلع وقد قتل فيها وجرح الكثير من الطرفين.

وتشاء الظروف أن تكون نهاية بوحمارة على يد أحد خصومه الذي سلّمه إلى الكولونيل بوبريطر والذي أمره بقطع رأسه أمام الناس ليكون عبرة لكـل من تسول له نفسه الخروج عن طاعة فرنسا. وكان ذلك يـوم 29 ديـسمبر 1855م وبموته إنتهت مرحلة اخرى من مراحل المقاومة في بلاد القبائل.

دور للا فاطمة نسومر

لم تكن لالة فاطمة نسومر غافلة عمّا يجري حولها من تطورات في المنطقة، حيث كانت تشارك في اقامة مع الأهالي، إلا أن هؤلاء تراجعوا بعد مقاومـة عنيفة وطويلة، نتيجة عدم تكافؤ القوى، من حيث العدة والعدد، وفي احـدى المعارك جرح بوبغلة فأنقذته لالا فاطمة ووقفت إلى جانبه وبقيا في بـني يحرضان على الجهاد، وشاركته في أغلب المعارك التي خاضها منها معركة وادي سباو بتاريخ 7 أفريل 1854م ضد القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "ولـف"، حيث أظهرت فاطمة نسومر شجاعة فائقة، وحققت انتصارات أخرى ضـد العدو بنواحي عديدة منها تخليجت ناث، وبورجة، وتوريرت موسى، تيـزي بوايبر)، وبرهنت، على أن قيادة المقاومة الجزائرية لم يختص بها الرجال فقط بل شاركت فيها النساء بما أوتين من قوة.

وعند وفاة الشريف بوبغلة آخر عام 1854م لم تتوقف بل واصلت الثورة، وخاضت عدة معارك ضد القوات الفرنسية، أهمها معركة" إشريضن" التي وقعت في 24 جوان 1857م في الأربعاء نايت إيراثن غير أن عدم تكافؤ القوى أدى إلى انهزام الثوار فانسحبت نحو جبال جرجرة وتحصنت بها وكونت فرقا سريعة من المجاهدين يتبعون مؤخرات الجيش الفرنسي ويقطعون عليهم طرق المواصلات والإمدادات.

نتيجة للهجمات المتواصلة للمجاهدة وتعاظم شأنها، تخوفت السلطات الفرنسية من ازدياد خطرها، فجهزت لها جيشا قوامه 45 ألف رجل يقوده المارشال راندون الذي ترقى إلى هذه الرتبة يوم 1856/03/19م اتجه صوب قرية "أيت تسورغ" أين يتمركز الثوار. وقد التقى الفريقان بتاريخ 11 جويلية 1857م بدوار "إليمن" وكان يقدر عدد الثوار بـ7000 رجل وعدد من النساء. وتذكر المصادر أن للا فاطمة كانت ترتدي لباسا حريريا أحمر ترعب به الأعداء. ولكن رغم المقاومة الشديدة التي أبداها الثوار، إلا أن الكفة رجحت لصالح الفرنسيين نتيجة عدم تكافؤ القوى. وكان من نتائج المعركة طرح المفاوضات وإيقاف القتال بأربعة شروط منها:

1/ إعادة انتشار القوات الفرنسية خارج القرى والتجمعات السكانية.

2/ رفض دفع الضرائب.

3/ عدم متابعة ومعاقبة قادة الثورة.

4/ الالتزام بحماية الأشخاص والممتلكات.

قاد المفاوضات عن الجانب الفرنسي الجنرال "راندون"، وعن الجانب الجزائري سي الطاهر شقيق لالا فاطمة نسومر. وقد تظاهر راندون بقبول شروطها إلا أنه أمر بإلقاء القبض على الوفد الجزائري بمجرد خروجه من المعسكر، ولم يكتف بذلك بل أرسل النقيب " فوشو" إلى ملجأ لالا فاطمة نسومر وأسرها هي وعدد من النسوة، وتفيد المصادر أن الجيش الفرنسي اثر هذه المعركة صادر العديد من الممتلكات، ونهب حلي النساء و50 بندقية وأكثر من 150 مجلدا من الكتب العلمية والدينية.

وقد أبعدت لالا فاطمة نسومر إلى زاوية بني سليمان قرب تابلاط تحت مراقبة الباش آغا الطاهر بن محي الدين، وبقين هناك ست سنوات إلى أن وافتها المنية في سبتمبر 1863م عن عمر يناهز 33 سنة.

وتصويرا لشجاعتها وبطولتها يكفي القول إنها خلال انتفاضتها التاريخية 1851 ــ 1857م، استطاعت أن تواجه أكثر من عشر جنرالات فرنسيين محنكين [35] ولقنتهم دروسا في الشجاعة والإقدام.

الإحالات:

(1) N. Joseph ROBIN ,«Notes historiques sur la grande Kabylie de 1830 à1838 », in Revue Africaine, n°20 (1876), p. 46 .

(2) ROBIN, «Notes historiques.... », op. cit. ,p. 50 .

(3) محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي، "ثـــورة بوبغلة"، تيزي وزو(الجزائر)، إلاقل، 2000م، ص. 60.

(4) César_Alexandre RANDON, Mémoires ,Paris, ImTypographie, 1875, p. 53 .

(5) هو الجنرال "كامي تريزال"(Trézel Camille) جنرال فرنسي، ولـــد في باريس 1780وتوفي بها1860م، عين في رتبة جنـــرال ســـنة 1825م وشارك في الحملة على الجزائر(صيف 1830م)، ونجح في الحملة علـــى بجاية(سبتمبر1833م)، ثم عوض الجنرال "ديمشال"(DESMICHELS)، غير أنه انهزم شر هزيمة أمام الأمير عبد القـــادر في معركـــة المقطـــع (1835م)، رجع على إثرها إلى فرنسا وأصبح من الأعيان(1846)، ثم عين وزيـــر الحـــرب (1847-1848م). petit ROBERT2 ,Paris .1981,p. 1838

(6) M. DAUMAS et FABAR, La Grande Kabylie, Etude Historique, Paris,Hachette,1847,p. 423 .

أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص. 49.

(7) A. BERBRUGGER, Les époques militaires de la grande Kabylie, Paris, Bastide,1857,p. 13 .

(8) شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974، ص. 180.

(9) تشرشل، حياة الأمير، ص. 181-182.

(10) سي يوسف، مقاومة القبائل، ص. 52.

(11) N. ROBIN ,« Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 » , in Revue Africaine, n°46(1902), p. 227 .

أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص. 52.

(12) N. ROBIN ,« Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 »,op. cit. ,p. 230 .

(13) ROBIN ,« Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 »,op. cit. ,p. 245 .

(14) N. ROBIN ,« Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 » , in Revue Africaine, n°47(1903), pp. 62-64 ..

(15) الدكتور يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الثانية، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ص. 96.

(16) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1900، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص. 343.

(17) الدكتور يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص ص. 99-101.

(18) L. FERAUD , « Notes sur Bougie » ,in Revue Africaine , n°3, (1858-59), pp. 443-445 .

(19) D'HAUTPOUL, Rapports adressés à Mr le Président de la république par le ministre de la guerre, Paris, imp. national, 1850, 110 أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص. 60.

(20) Ibid. ‹p. 110 .

(21) Nil Joseph ROBIN , « Histoire de Chérif Bou Baghla»,in Revue Africaine, n° 25 (1881),pp. 307-308 .

(22) Mémoires du Maréchal DE MAC MAHON , Duc de MAGENTA, Souvenirs d'Algérie, publiés par le comte GUY DEMIRIBEL , PARIS, PLON ,1932, p. 61 .

(23) Henri Aucapitaine , La Zaouia de Chellata ,excurtion chez les Zouaoua de la haute Kabylie , Genève,Imp. deJ. G. Fick,1860,p. 144 .

(24) محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي، ص:77.

(25) E. Perret,Les Français en Afrique de 1848 à nos jours, (1856),Récits Algériens,7éme éd. ,Paris, Barral et Bloud,1885,p. 13, .

(26) Les Français en Afrique..., p. 132 ؛ .Perret

(27) Archives d'Outre – Mer, 2 H 14 .

(28) Le Moniteur Algérien ,n°1125, du 5 /.. 6 / 1851. Voir Aussi,Colonne Expéditionnaire de la Kabylie,Journal de marche du 26 mai au 4 juin 1851,A. M. G. ,1H214 .

(29) H. Aucapitai Les Kabyles et la colonisaton de l'Algérie, Paris, Challamel, 1864, pp. 165 –16 6 .

(30) محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للإستعمار الفرنسي، ص:97. – أنظر أيضا: Randon , Rapport adressé à Mr le président de la république par le ministre de la guerre sur les opérations militaires du printemps de 1851 au 16 Août .pp. 35 – 36,(1851,Paris, imp. nationale,1851,(63p.

(31) Le maréchal Pélissier, Journal des marches et opérations des colonnes expéditionnaires de l'est sous les ordres de M. le Général de division, Pélissier, gouverneur général par intérim, du 23 Octobre au 27Novembre 1851),49p.,(A. M. G. ,Carton,H. 23 .

(32) Bosquet Lettres du maréchal BOSQUET à sa mère ,1830 – 1858 ,Paris, 1894, pp. 243 – 244. Nil Joseph ROBIN , «Histoire de Chérif Bou Baghla», op. cit. ,pp .

(33) روبان، المصدر السابق، أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل، ص. 133.

(34) تقرير حاكم بني منصور "كمات" [Camatte] بتاريخ 26 ديسمبر 1854م، أنظر: محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي، ص:201.

ROBIN, «NOTES Concernant l'insurection de1856 de la,1857 - grande kabylie», in Revue Africaine , n°43 (1899), p. 41. et suivantes .

وقفة عند الذكرى المائة وخمسين
لــ: معركة مقارين

تقديم:

نحتفل اليوم بالذكرى المائة والخمسين لهذه المعركة التاريخية الخالدة، حيث أن معركة مقارين من بين الأحداث البارزة في تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية، فهي من اعتى المعارك التي خاضها أهل المنطقة في الجنوب الشرقي الجزائري، حيث حددت مصير ما كان يعرف عند الاستعمار بـ " صحراء قسنطينة " والتي تمكن الاحتلال الفرنسي بعدها من تكريس وجوده وبث نفوذه على كامل المنطقة.

ومما لاشك فيه أن خلفيات هذه المعركة وأبعادها تتمثل في استمرار لتلك الصراعات التي حدثت في واحات الزيبان بين الاخوة الأعداء من الدواودة (بوعكاز) وأولاد ابن قانة وابن شنوف وغيرهم، وامتد لهيبها إلى وادي سوف ووادي ريغ. وفي الواقع أن هذه الصراعات لم تخدم إلا الأهداف الاستعمارية، حيث ساعدتها في مد نفوذها بعد زرع الشقاق ليسهل عليها قهر جهاد المجاهدين البواسل في هذه المضارب الشاسعة والنائية والصعبة في المسالك والمناخ.

وفي خريف عام 1854م، راجت أخبار ببسكرة داخل الأوساط الاستعمارية مفادها أن القوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليات عسكرية

هائلة، للهجوم على إقليم وادي سوف ووادي ريغ لتغزوه، لأنه، حسب زعمهم، موطن للثوار والمشاغبين يجب القضاء عليه، وهو الآن يأوي ويساعد ثائرة سلطان ورقلة الشريف محمد بن عبد الله، ففي سنة 1854م، التجأ الشريف محمد بن عبد الله إلى سوف[40]، بعدما فَقَدَ مركز قيادته بورقلة وأغلب أنصاره بها.

مقدمات المعركة:

تشير التقارير العسكرية أن أعيان ورقلة - وهم عبد القادر بن كرميا (كبير بني سيسين)، والحاج بن الحاج معيزة(كبير بني أوجين)، والحاج محمد (كبير بني ابراهيم)، والحاج بوقلة(كبير العرش لبني ابراهيم) ـــ قد خضعوا للسلطة الفرنسية وجاءوا إلى البيض يوم 11 سبتمبر 1854م لدفع ما عليهم من ضرائب إلى سي حمزة ـــ زعيم أولاد سيدي الشيخ، والخليفة بالصحراء ـــ؛ لذلك تركهم الشريف محمد بن عبد الله وخيّم بقوته تحت أسوار تقرت وهذا من أجل أن يجمع حوله أهل سوف ليعاود بهم الثورة ومقاومة الاحتلال الفرنسي، وبعد ملاحقة القوات الفرنسية له ومحاصرته ما بين مدينة الوادي وبلدة الطيبات القبلي، تمكّن القائد سي بن هني من مطاردته وطرده من المنطقة الممتدّ ما بين وادي ريغ ووادي سوف فاضطرّ إلى الفرار نحو الجريد [1] ليجمع شتاته لمواصلة الجهاد ضد المحتلين.

وصلت القوات الفرنسية الأمامية المتكونة من مائتين وخمسين جنديا نظاميا وألفين وأربعمائة من الاحتياطيين إلى تقرت أواخر شهر نوفمبر من سنة 1854م، وكان صاحب أمرها في ذلك الوقت الشيخ سلمان

آخر الجلاليّة، الذي استنجد بأهل سوف وبعث لهم بطلب منهم الإعانة والموازرة ضد الغزاة، عن طريق الشريف محمد بن عبد الله ووعدوه بذلك، وحينما وصلت القوات الفرنسية يوم 26 نوفمبر إلى موقع" المقارين" ــ وهو الموقع الذي تقترن فيه مختلف الطرق ــ استنفر الشيخ سلمان قواته وأخبر أهل وادي سوف، ففزع منهم جمّع غفير، ففرح بمقدمهم وأكرمهم وفرق في رؤسائهم العطايا ووعدهم بأكثر من ذلك عند الظفر، حيث اعتبر هذا الإجراء كحافز لهم للإقدام يوم المواجهة والكرّ في المعركة الحاسة؛ ودخلت هذه الوحدات العسكرية بقيادة الشريف محمد بن عبد الله إلى مدينة تقرت يوم 28 نوفمبر، وبذلك أصبحت قوات الشيخ سلمان تقدر بأكثر من أربعة مائة فارس وألفين من المشاة وهذا حسب تقرير قائد الجيش الفرنسي[2] الرائد "مارمييه"(MARMIER).

سير المعركة:

ألتحم الجيشان في معركة ضارية بالمقارين، يوم 29 نوفمبر، بعد أن استفاد الجيش الفرنسي من خبرته وتجربته في معركة الزعاطشة، فاستدرجت قوات المجاهدين من حصونها بتقرت والطيبات إلى ميدان المعركة الفسيح. وحينما تقدم سلمان مع الشريف على رأس فرسانهم، تسرب المشاة من المجاهدين تدريجيا إلى الأراضي المحيطة بالسبخة للوصول الى مايعرف بـ " كراع " مقارين ــ وهو شريط طويل من النخيل يربط ما بين الواحات ــ حتى يتسنى لهم الولوج إلى القرى، وبذلك يتمكنوا من الإحاطة بمخيم القوات

الفرنسية والهجوم الكاسح عليهم؛ غير أن قائد الجيش الفرنسي تفطن لهذه الخطة وأعطى أوامره للمشاة لتشديد الحراسة على المخيم والإحاطة بالواحة، ثمّ تقدم بكل أفراد "القوم" إلى الأمام مع سرايا الصبايحية لكتيبة القناصة الاحتياطي؛ وبمجرد ظهور فرسان المجاهدين حتى أسرع القائد الفرنسي بإرسال إليهم "قوم" سي أحمد بلحاج ليمهدوا للميدان، إلاّ أنّهم أُرْغِموا على الرجوع، وهذا ما شجع المجاهدين على الإقدام والاندفاع جماعات لاحتلال المواقع والدخول إلى القرية، وحكي أن من جملة جماعة سوف رجلا يقال له "كرباع" صال في القوم ـ وكانوا في وقت الاستراحة ـ قائلا لهم: " كيف تصبرون على القتال إلى الآن، فقام النّاس من غير استعداد ولا نظام وهاجموا المحلة وكانوا ينتظرونهم واقفين على قدم وساق..."[3]، رغم أن هذا الهجوم قد أربك صفوف الجيش الفرنسي وأصبحت هزيمته قاب قوسين أو أدنى؛ غير أنّه بعد تردد القوات الفرنسية لبضعة دقائق، أمر القائد الفرنسي كتيبة القناصة بإتباعه إلى قُبّة الولي سيدي علي بن كنون والتي تشرف على القرية للسيطرة عليها وصَدّي الهجوم، لأنّها النقطة التي يحاول منها الثوار التوغل، لهذا انقضت كتيبة القناصة للأهالي (الحركة)على قبّة الولي لإيقاف المهاجمين عن طريق نيران مسددة بدقة نحوهم، كما أنّها تقوم بالردّ على طلقات سكان القرية من خلف الجدران؛ وفي نفس الوقت أعطيت الأوامر لدفع سرية الملازم عمار من الصبايحية الثالثة المنخرطين في الجيش الفرنسي والمتكونة من الصحراويين وأولاد ساولة(فرع أشراف الدواودة المنتسبين الى عرب بني هلال) لصدي الهجوم من الجناح

الأيسر، ثمّ توقف عن الرمي من بعيد ووجد نفسه في لحظة وحيد وسط المجاهدين، لهذا نقل راياته بكل عناد إلى الأمام.

في هذه الأثناء تقدم نسق الهجوم الثاني من اليمين عن طريق كوكبة النقيب "كورتيفران"(COURTIVRON)، وعلى اليسار "قوم" سي مختار وسي بوضياف، فإندفع النقيب "كورتيفران" بكامل جموعه حتى وصل إلى وسط الفرسان ومشاة المجاهدين، الذين كانوا يعتقدون بل وحازمين بنصرهم، لذلك اغتنم القائد الفرنسي هذه اللحظة لأخذ مبادرة الهجوم بكل عزم وحزم، وأمر النقيب "فاندريواز"(VINDRIOIS) بالتقدم إلى الأمام بفصيلة من كتيبة قناصة الأهالي، بينما تسلق الملازم "جوهانو"(JOUHANNEAU) القرية بكل قوة بفصيلة أخرى ؛ ومن هنا بدأت علامات النصر تظهر للقوات الفرنسية، لهذا واصلت القتال بكل إقدامو ملاحقة المجاهدين وبعض السكان في مقارين وخارجها؛ وهذا ما جعل كل من سلمان والشريف محمد بن عبد الله يغادران الميدان بكل سرعة، تاركان وراءهما جنودهم يبحثون عن طريق النجاة في كل الاتجاهات، ولهذا تمكن الملازم "رابوت"(RABOTTE) — من فصيلة النقيب "كافل"(Cavel) — من دفعهم إلى ما بعد السبخة.

وفي هذه الأثناء أخبر النقيب "سيروكا"(SEROKA) قائده"مارميه" بأنّ هناك تجمع كبير للمشاة برآياتهم ودفوفهم، قد التحقوا بغابة "كراع" مقارين وهم يظهرون استعدادهم للتضحية وتقديم حياتهم بأغلى الأثمان من أجل النصر أو الاستشهاد، وهم ملتفون حول مقدم النزلة(حي بتقرت)الذي هو

من الأنصار المتحمسين لسلمان، وقد قدم حياته واستشهد في هذه الواقعة مع العديد من أنصاره.

حاصرا كل من سي مختار وسي بوضياف هذا الجزء من الواحـــة، مـــن بعـــيد، بشكل لا يترك لأي أحـــد أي منفذ للهروب، ثمّ تقـــدم القائـــد الفرنسي مع فصيلة قناصة النقيب "كافل" ليدير الحصار، وهكذا بكل جسارة وانجذاب القادة سارع الصبايحية والقناصة إلى اقتحام الجدران تحـــت وابـــل رصاص المجاهدين، الذين أيقنوا من هزيمتهم، ولهذا لم يتمكن مـــن الفـــرار إلاّ عـــدد قليل منهم، أما الباقي فقد استشهدوا فوق الميدان[4]، وبذلك انتهت آخر حلقة من حلقات هذا اليوم العسير، واعتبرت السلطات العـــسكرية أن هـــذه المعركة تعتبر نـــصرا باهرا له كلّفها إلا عشرة قتلى وثمانية وثلاثين جريح.

إذن انهزم جند الشيخ سلمان، بعد أن ترك على الميدان حوالي خمس مائـــة شهيد وأعلام وكثير من البنادق والسيوف، وتفرق الناس في الشطوط وغابات النخيل والشعاب، وفـــرّ سلطان تقرت مع الشريف إلى بلدة تماسين، فاختفى بها أيامًا، ثمّ انتقل إلى سوف صحبة محمد بن عبد الله، فنزل بمدينة الـــوادي ومكث فيها مـــدّة ومنها دخل إلى القطر التونسي، بعد أن استأذن من محمـــد باي حاكم تونس، ليستقـــرّ في إقليم نفزاوة بالجنوب التونـــسي مـــع عائلتـــه المطـــرودة من قبل الفـــرنسيين[5].

نتائج المعركة:

تغلبت القـــوات الفرنسية على المجاهـــدين الجزائـــريين بفـــضل التنظـــيم والأسلحة الحديثة وخيانة إخوانهم المنضمين للجيش الفرنسي، وأيضا براعـــة

قائدهم الرائد"مارمييه" ؛ لذلك استطاعت أن تحتلّ مدينة تـقرت وتـخـضع أهلها إلى السيطرة الفرنسية. والجدير بالذكر هو أن معركة "مقـارين" قـد تركت وقع كبير في نفوس الناس، ولهذا كان هَوْلُها عظيم في جميع أنحاء البلاد ومن ضمنها دائرة تبسة التي استعدت لإرسال جيش من النمامـشة لمـؤازرة الشريف وسلمان في جهادهما، غير أن السلطات العسكرية الفرنـسية كانـت تراقب هذه التحركات، ومنعتهم من أي عمل عسكري 'وأرجعت الهدوء الى دائرة تبسة. (6)

وفي 05 ديسمبر وصل العقيد "ديفـو " (DESVAUX) إلى تقرت علـى رأس الطوابير المحشودة من باتنة والأغـواط وبوسعادة ليلتحم مع بقية الفرق العسكرية المحتلة في عين المكان، وبعد الاستراحة ومراقبة الأوضـاع، تـرك القائد المحنك "ديفو" فـرقة عسكرية صغيرة لتراقب المكان وتقـوم بحراسـة السكان؛ ثمّ ارتحلت بجيشه القوي ليتـفقّد ويختـبر أحوال سـوف تمهيـدًا لإخضاعه للنـفـوذ الفرنسي. وبعد ثـلاثة أيام من السير وصلت المحلّـة (الجيش الفرنسي) إلى إقليم سـوف عبر الطيبـات القبلية، بعد قتال عنيـف بين المجاهـدين والفرنسيين في غابات النخيل والسيوف وبعد مسيرة شاقة فوق الكثبان الرملية، دخلت يوم 13 ديسمبر 1854م (7) إلى أول بلدة مـن إقلـيم سـوف وهي بلدة تاغزوت، وقد اختار القائد الفرنسي "ديفو" الـدخول إلى تاغزوت، نظرًا لمعرفته المسبقة بموقف السكان المعادي لخـصوم الفرنـسيين في تقرت(8)، لهذا لم يقاوم السكان هذه الحملة في بداية الأمر، وتركـوا الطـابور الفرنسي يتجول داخل بعض القرى بكل حرية، لكن تحركاته كانـت تحـت

مراقبة وأنظار ما يعرف في المنطقة بالمتاريس، وهم الرجال الشجعان المسلحين للدفاع عن المنطقة وقت الضرورة.

استراحت القوات الفرنسية بعض الوقت، ثمّ توجهت إلى بلدة كوينين، أين تفقد "ديفو" أحوالها، ويبحث عن أسرار المنطقة بحيث يقال أنه عثر فيها على النسخة الأصلية لمخطوط تاريخ العدواني التي ترجمها فيما بعد "شارل فيرو" (Ch. FERAUD) ونشرها باسم: " كتاب العدواني" ـــ صحراء قسنطينة وتونس ـــ. وبعدها قامت الطوابير بزيارة خاطفة إلى مدينة الوادي ومنها رجعت القوات الفرنسية إلى تقرت التي وصلتها يوم 23 ديسمبر. لقد اعتبرت الأوساط الاستعمارية هذه الزيارة، نجاحًا باهرًا للتوسع الاستعماري ونتيجة هامة حقّقها الاحتلال الفرنسي بالجزائر، لأنّ هذا الإقليم الهام والمتفاخر بنفسه والمعتزّ بأنفته، كما أنه صعب المراس وبعيد المنال، لهذا ظنّ أهله أنهم في مأمن من ضربات العدو الخارجي، وفي حماية تامة من هجمات القوات الفرنسية، نظرًا لبعد الإقليم وصعوبة مسالكه الغاصة في الرمال، فضلاً عن عدم تأقلم القوات الأجنبية على المسيرات الطويلة والعسيرة في هذا القفار، ورغم ذلك فقد استطاعت هذه الطوابير أن تتغلّب على كلّ هذه الصعاب وتصل إلى وادي ريغ ووادي سوف.

وفي حفل بساحة قصبة تقرت قدم العقيد "ديفو" برنس التولي إلى السيد علي باي ابن فرحات يوم 26 ديسمبر 1854م وأعلن عن تنصيبه كقائد على تقرت ووادي ريغ وإقليم سوف، بحضور كل

أعيان البلاد ، ذلك أنّ القائد الجديد علي باي يحظى بتأييد كافة الأعيان واحترام النّاس، لأنّه ابن البطل الشهيد فرحات بن سعيد بوعكاز، خليفة الأمير عبد القادر بالزيبان، لهذا فإن توليته على تقرت وسوف يضمن ولاء عائلة بوعكاز، وبالتالي ولاء أهل تقرت سوف، رغم أنّه سيحكمهم باسم فرنسا.

وبعد حفل التولي توجه علي باي مع الأعيان إلى المسجد للمبايعة من طرف الشيوخ والقادة، والتي ختمت بقراءة سورة الفاتحة. وبعد المبايعة ألقى العقيد "ديفو" كلمة ذكر فيها أهل سوف ووادي ريغ بالمصائب التي لحقت بهم من جراء حكم سلاطين بني جلاب، لهذا يجب نسيان الماضي الأليم والنظر إلى المستقبل المشرق، والالتفاف حول القائد الجديد الذي نصّبته السلطات الفرنسية لينشر السلم والازدهار في ربوع الصحراء.

وعندما استتب الأمر إلى سي علي باي بوعكاز التحق الشيخ محمد العيد شيخ الطريقة التيجانية بتماسين بالقادة الفرنسيين ليظهر لهم خضوعه بنشر راياته، مع وعده للعقيد "ديفو" بأنّه سيساعد القائد الشاب علي باي ويقدم له النّصح والإرشاد، ويتكفل بحضانة أطفال وعائلة سلمان (9).

الإحالات:

أنظر المصادر التالية:

(1) Charles FERAUD, » Les Ben - Djellab sultans de Tougourt, Notes historiques sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n°26 (1882) ,pp. 109 -115 .

(2) PRAX,« Touggourt,Le Souf », in Revue de l'orient et de l'Algérie,1848, TomeIV,p. 129 .

(3) A. BERBRUGGER, « Projet d' Exploration »- in Extrait à la Bibliothèque Nationale , Alger, S. D. ,8p| .

(4) MAGALI - BOISNARD, Sultans de Touggourt, Paris, Libraire Orientaliste Paul Geuthner,1933,p. 128 .

(5) Nico Kielstra, « The dicline of tribal organization in the Souf (S. E. Algéria) », in Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée,n° 45 -3eme trimestre, 1987,p. 15 .

(6) Lettre de la division de Constantine(Cabinet n° 275) à monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie,Constantine ,le 26 Juillet 1854. A. O. M. ,1H. 11 .

(7) Armée d'Afrique - Province d'Oran - A M. le Gouverneur Général, Oran,le 23 septembre 1854, doc. n°611, A.O.M., 1H. 11 .

(2) إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ سوف، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الدار التونسية للنشر، ص 247. أنظر أيضا:

MANGIN, «Histoire de Laghouat», in Revue Africaine n°39(1895), (APPENDICE III, Rapport sur le combat deMeggarin), p155. Voir auss MAC - MAHON MEMOIRES du Maréchal DE MAC MAHON, Paris, Plon;1932., pp 256 - 257

(3) Rapport sur le combat de Maggarin, livré le 29 novembre 1854 ,aux contingents réunis du Cheikh de Touggourt et de Chérif Mohammed ben Abdallah, in Revue Africaine,n° 39 (1895), pp. 155 -159 .

(4) العوامر، الصروف، ص. 247 ـ 248..

(5) رسالة من سلمان بن جلاب الى صاحب الجلالة محمد باي، الذي ورث احمد باي يوم 30 ماي 1855م ـ الارشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الملف 930، صندوق 78، خزانة 7. أنظر أيضا: MAGALI – BOISNARD , Sultans de Touggourt , pp. 116-117.

(6) Division de Constantine – Direction des affaires arabes n°296, à M. le Gouverneur Général de l'Algérie, Constantine,le 16 Décembre 1854, A. O. M., 1H. 11 .

(7) CAUVET , «Notes sur le Souf et les Souafas»,in B. S. G. d'Alger, n° 137(1934)., p. 65 .

(8) Rapport sur le district - oasis de l'Oued - Souf ,S. D. , A. M. G. , H 227 .

(9) FERAUD , op. - cit. , p. 116

ثورات 1871م

(ودور عائلتي المقراني والحداد)

لعل ثورة المقراني، من بين أهم ثورات الجزائر التي قامت خلال القرن التاسع عشر وهي صفحة مشرفة طويلة بأحداثها في تاريخ المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي الذي طالما حاول طمس الشخصية الجزائرية وإفراغها من محتواها العربي الإسلامي. وقد ادعى الضابط المترجم "لويس رين" [LouisRINN] أن عام المقراني طويل[1]، فضلا عن الأحداث الممهدة لها واللاحقة بها بعد ذلك. وقد عمت نصف البلاد تقريبا من القل وعنابة وسوق أهراس شرقا إلى شرشال غربا ومن البحر شمالا إلى أعماق الصحراء جنوبا فكانت جرجرة والحضنة وجبال البابور والبيبان والتيطري، وحوض الصومام، ووادي الساحل، والواد الكبير، من أهم الميادين التي جرت بها كبريات المعارك والأحداث لهذه الثورة[2]، وانضم لهذه الثورة الآلاف من الجزائريين قدرتهم المصادر الفرنسية بحوالي 200 ألف ثائر ينتمون إلى ما يقرب من مليون ساكن وهو تقدير أقل من الواقع لأن شرق البلاد كانت أكثر كثافة من غربها وسكان الجزائر في هذه الفترة لا يقلون عن ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة حسب تقديرات الفرنسيين أنفسهم. وقد قدرت المعارك التي خاضها الثوار في هذه الفترة بحوالي 340 بين معركة واشتباك[3]، إن لثورة المقراني والحداد بواعث وأسباب اختلف الفرنسيون في تفسيرها كل حسب هواه ولكنهم اتفقوا على الدافع الشخصي المتمثل في شخصية الحداد والمقراني[4] وهذا حتى يجردوها

من محتواها الوطني، والحقيقة أن الذين انضموا لهذه الثورة كانوا كثيرين وقد كانت لهم ميولات وطنية واضحة وكان هدفهم فقط القضاء على الحكم الأجنبي.

أسباب الثورة:

يمكن إيجاز هذه الأسباب في عدة نقاط:

- توسيع عملية الإستيطان للفرنسيين والأوروبيين في الجزائر، وقد صاحب هذه العمليات مصادرة أملاك الجزائريين من عقارات وأراضي، بهدف تمليكها للمستوطنين، ويكفي أن نتصفح جريدتي الأخبار والمبشر الصادرتين في الجزائر آنذاك لنرى ونشاهد القوائم الطويلة للأراضي المصادرة من أصحابها الجزائريين وتوزيعها على الأوروبيين المهاجرين.
- انتشار المجاعات والأوبئة والأمراض بسبب المظالم الاستعمارية وتعاقب سنوات الجفاف وهجمات الجراد خاصة بين سنوات 1866 ــ 1869م، مما أدى إلى موت مئات الآلاف من الجزائريين[5] وعوض أن تقدم السلطات الاستعمارية يد المساعدة لهم جمعتهم في محتشدات عامة في مليانة وغليزان وأبقتهم للجوع والعطش، وهو وضع ضاعف من حالة البؤس والشقاء.
- سياسة ضرب وتحطيم نفوذ الأسرة والعائلات الجزائرية ذات السمعة والمكانة الكبيرتين، وبعد إن كانت سياسة الاستعمار في بداية الاحتلال إلا محاولة استمالة هذه الأسر والعائلات كوسيلة

لفرض سيطرتها على البلاد من ذلك مثلا أنها قربت أسرة المقــراني في مجانة وأسرة ابن قانة في بسكرة ومنحت لهم ألقابا كالخليفــة وشيخ العرب ومكنتهم من امتيازات واسعة، إداريــة واقتــصادية وبعد أن تم لها بسط النفوذ والسيطرة على أغلب منــاطق الــبلاد سعت في بداية الستينيات إلى القضاء على نفوذ ومكانــة هــذه الأسر، سعيا منها إلى تفكيك بنية المجتمع الجزائــري وتحطــيم الروابط الاجتماعية وهكذا كان الحال لعائلــة المقــراني الــتي استطاعت أن تحافظ على نفوذها، وقد أقرت فرنسا هذا النفــوذ منذ عام 1838م.

وفي هذه الفترة امتد نفوذ أحمد المقراني إلى فرجيوة شرقا، والتيطري غربــا وحدود بسكرة جنوبا، في وقت بدأت السلطات الاستعمارية تنفذ مــشاريعها الرامية إلى تقليص نفوذ هذه العائلة، فبعد وفاة أحمد المقراني عام 1853م عينت ابنه محمد بتسمية باش آغا، وهو منصب أقل قيمة ونفوذا من منصب الخليفــة وهذا يدل على تحجيم نفوذ هذه الأسرة [6]، وشيئا فشيئا بدأ نفوذ العائلة يقل ويتضاءل تدريجيا إذ عين الشيخ المقراني عام 1868م عضوا بسيطا في المجلــس البلدي الفرنسي. ومن الطبيعي أن يكون لهذه السياسة رد فعل سيء بالإضــافة إلى ذلك هناك عوامل وأسباب أخرى مهدت للثورة نذكر منها:

* مرسوم 24 أكتوبر 1870م الذي نص على:

- إلغاء النظام العسكري وتعويضه بالنظام المدني فبعــدما تبخــرت فكــرة "المملكة العربية" والتحول الذي شهدته فرنسا جراء انهزامها في الحرب ضد

بروسيا عام 1870م وتبني الجمهورية الثالثة السياسة التقليدية الاستعمارية التوسعية، وجدت في الجزائر حلا لمشاكلها المترتبة عن فقدان الألزاس واللورين، بالإقدام على مصادرة أملاك وأراضي الجزائريين المسلمين، وهو عمل شكل إحدى الدوافع التي غدت روح الثورة عند الجزائريين لمواجهة الاستعمار.

- إلغاء المكاتب العربية.
- تجنيس يهود الجزائري بصورة جماعية.
- وقد رأى الباش آغا محمد في هذا المرسوم وسيلة قهر وإذلال للشعب الجزائري وضعت في يد المعمرين، الذين استباحوا كل ما من شأنه ضمان مصالحهم.
- نداء كريميو وزير العدل اليهودي وحافظ الأختام في حكومة مندوبية إلى سكان الجزائر في منتصف شهر جانفي 1871م وقد اعتبر المقراني هذا النداء تحقيقا لما كان يتوقعهمن تسلط اليهود والمدنيين الأوروبيين على الجزائريين وهنا قال قولته المشهورة "إني مستعد أن أضع رقبتي تحت السيف ليقطع رأسي... ولا أقبل أن أخضع لحكومة من التجار اليهود" ومن هنا قرر بصفة نهائية أن يخوض غمار الثورة.

انطلاق الثورة ومراحلها:

انطلقت ثورة المقراني رسميا يوم 16 مارس 1871م إلى أن بوادرهـــا الأولى بدأت منذ شهر جانفي نتيجة تطور هام لبعض الأحداث، لعل أهمها:

- تمرد جنود الصبايحية الجزائريين في بلدة بحـــير قـــرب بوغـــار وفي الطارف وبوحجار وعين قطار قرب سوق أهـــراس ورفـــضهم الذهاب إلى فرنسا وأوروبا لخوض غمار الحرب.
- قيام جماعة من سكان أولاد عيدون في الميلية بمحاصرة برج المدينة.

ويمكن تقسيم مراحل هذه الثورة إلى مرحلتين أساسيتين هما:

مرحلة الإعداد والتنظيم:

بعد أن قدم الباش آغا محمد المقراني استقالته من منصب الباش آغوية يوم 9 مارس 1871م أعلن رسميا انطلاق ثورته. وهنا تستوقفنا نقطة مهمة وهـــي أن المقراني عندما كان في منصبه كان يحضر لهذه الثورة فقد شكل من رجالـــه مجموعة تقوم بإدارة المنطقة محليا وجمع الضرائب والسلاح والخيول ولا شك أن هذه التحضيرات قد استغرقت وقتا طويل قبل أن الإعلان عن اندلاع الثورة.

مرحلة العمل العسكري:

وفي يوم 16 مارس 1871م بدأ محمد المقراني بالزحف نحو مدينـــة بـــرج بوعريريج يقود نحو سبعة آلاف فارس بهدف فرض الحـــصار عليهـــا، إلا أن الحصار فشل بسبب وصول الإمدادات الفرنسية. وقد انسحب المقراني واتجه إلى مجانة استقر في جبل مريسان (أم الريسان) شمال مجانة، وحاول إعادة تنظيم

قواته وتوسيع نطاق الثورة، فقام بإرسال مبعوثين له إلى جهات عديدة من ولاية قسنطينة والجزائر يقترح على رؤساء العائلات الكبيرة على أن يتحدوا معه لتكوين جبهة قوية يواجهون بها النظام المدني وتمكنهم من حماية سلطتهم وامتيازاتهم. إلا أن جهوده ذهبت سدا، حيث رفض أغلب رؤساء هذه العائلات الانضمام إليه إذا ما استثنينا عائلة الشيخ الحداد صاحبة النفوذ الروحي القوي على سكان جرجرة والبابور وحوض وادي الساحل ووادي الصومام. وقد كان انضمام هذه العائلة للشيخ المقراني مكسبا كبيرا عوضه عن كل ما فقده في الآخرين من تأييد.

عندما علمت السلطات الفرنسية بأمر هذه الثورة قامت بتكليف الجنرال "سوسييه"[SAUSSIER] للقضاء عليها، بالفعل بدأ هذا الأخير في التحرك نحو منطقة البرج التي وصل إليها يوم 2 أفريل 1871م وقام بضم الحامية الفرنسية الموجودة بالمدينة وقد جرت معركة كبيرة في ساقية الرحا قرب جبل "تافرطاست" شمال مجانة يوم 12 أفريل، أحرقت خلالها قرية صوناف وجزء من منازل مجانة ما عدا قصر الباش آغا الذي تمركز فيه(7).

ترك الحاج المقراني قوة خاصة لمناوشة الفرنسيين وانتقل هو إلى زمورة ثم قمور لإقناع المعارضين له بالانضمام إلى صفوفه، وقد استطاع استمالة أولاد عبد السلام وأولاد عبد الله وأولاد بلقندوز، ونجح أيضا في استمالة عدد آخر من الناس كانوا من قبل خارج الصف معادين أو مترددين ؛ وكان انضمامهم إلى الثورة سببا فيما حدث لقافلة النقيب "ترانكان" [Trinquand]، فقد هاجم ثوار أولاد تبان، والأربعاء، وريغة، بزعامة محمد بن عدة، عدة مزارع حول

العلمة بعضها للأوروبيين، وبعضها للمتعاونين معهم أمثال الزين بـــن أحمـــد، وأولاد قليل، وقتلوا ثلاثة أشخاص. وتمركز محمد بن عبد الســلام، ومحمــد الصغير بن الشيخ ساعد في قرية رأس الواد بأمر من المقراني. واتهم الأوروبيون بالمنطقة، أحمد باي قائد أولاد عامر الظهرة، ومحمد الصغير بن الشيخ ســاعد، بالتسبب فيما حدث، وعجز "ترانكان" عن مواجهة الوضع والتعــرف علــى الفتنة، وكان قد كلف منذ30 مارس بحراسة الطريق بــين ســطيف والــبرج وتدعيم قوات "سوسييه" الذي كان يهاجم مجانة. وتعرض لهزيمة أمام الثــوار يوم 18 أبريل بعين تاغروط، فانسحب إلى سطيف واتهمته السلطات بالتقصير في واجباته العسكرية، وقدمته إلى مجلس عسكري برأه من التهمة يوم 21 أوت 1871 م [8].

أسند الحاج محمد المقراني قيادة الأعمال الحربية في وادي الشعير شرق برج بوعريريج لأخيه بومزراق مع بعض المقدمين الرحمانيين بزعامة عزيز الحــداد، وتوجه هو إلى بني عباس لتفقد أمور المنطقة وبذل المزيد من الجهود لكــسب الأنصار والمؤيدين ثم واصل سيره يوم2 5 أبريل إلى أولاد حلال حتى بلغ جبل "موقرنين" بسور الغزلان الذي اتخذه بومزراق أكبر معسكر لثوار، وعقد هناك اجتماعا كبيرا مع زعماء الثورة والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة، وحاول أن يخطط معهم ويحدد الأسلوب والوسائل التي يواجهون بها الجنرال " سيريز" [Cerez] الذي كان يغزو المنطقة منذ 11 أبريل بدعم الضابط المحنك العقيد "تروملــي" [Trumelet] وكذلك آغا البويرة بوزيد بن أحمد، ثم انتقل بعدها إلى عين طاقة ثم إلى ثنية أولاد داود ووادي الشعير بين أحريص وسيدي بــن داود، وقــضى

هناك ليلة 27 أبريل وعاقب أولاد سالم الذين استسلم البعض منهم إلى الجنرال "سيريز" بتحريض الآغا بوزيد. وحصلت في اليوم الموالي معركة طكوكة على ربوات ذراع المومن، جرح فيها العديد من الفرنسيين. وقتل عدد كبير من الثوار [9]؛ وبعد المعركة عاد الشيخ المقراني مسرعا إلى بني عباس يوم 29 أبريل وأخذ يجمع الأنصار والمؤيدين حيث نجح في جمع حوالي أربعة آلاف مقاوم، عاد بهم على عجل إلى الجهة الغربية عبر جبال البيبان، وانضم إليه في الطريق عدد كبير من رجال بوجليل، وبني مليكش، وبني عباس، وبني يعلى، وبني منصور، وأخذ طريقه إلى البويرة يوم أول ماي، بينما كان الثوار الآخرين يواجهون القوات الفرنسية بقيادة " تروملي" على الضفة اليسرى لواد سفلات[10]؛ وفي اليوم الثاني من ماي كان الشيخ المقراني أمام مدينة البويرة ففرض عليها الحصار وحاول اقتحامها غير أنه فشل في ذلك نتيجة مقاومة الآغا بوزيد وأنصاره، فتراجع إلى قرية بوشرين وعسكر بقواته وأخذ يستعد لمواجهة قوات "سيريز" التي كانت تتابع تحركاته بمساعدة الآغا بوزيد الذي كان يمد السلطات الفرنسية بالمعلومات الكافية عن تحرك الباش آغا المقراني، الذي تحرك بقوات قدرها الروايات الفرنسية بثمانية آلاف رجل إلى الربوات المحيطة بواد سفلات عبر واد الجمعة في اليوم الرابع من ماي وتوزع جنوده في واد سيدي سالم، وعسكر هو في واد الرخام الراف الأيسر لواد الجمعة عند مصب واد غالو على ربوة تدعى"كدية المسدور".

لم يأخذ الشيخ المقراني كل احتياطاته لحماية نفسه، باستثناء تغيير لباسه وكان أعداؤه يترصدونه ويحاولون التعرف على مكانه وعندما خف الضرب

والتراشق عند منتصف النهار اغتنم المقراني الفرصة ليؤدي صلاة الظهر مع رفاقه، و لم يعرف أن هناك عددا من جنود الزواف الفرنسيين يترصدونه هو ورفاقه على بعد أقل من ألف متر. وبينما هو يصلي رماه أولئك الزواف بأربع رصاصات أصابته في جبهته وقيل في حلقه فسقط على الأرض ميتا في الحين وهو يردد شهادة التوحيد، كما سقط معه ثلاثة من رفاقه، يوم 5 ماي 1871م، وتوقف الضرب تماما لهول الصدمة. فحمل الثوار في الحال جثة المقراني إلى قلعة بني عباس ودفنوه بمسقط رأسه (11)، وأخفيت وفاته طوال أيام عديدة. وما لبث بومزراق أن تقلد مهام القيادة واستمر في مناوشة الفيالق الفرنسية ومهاجمتها من شهر ماي 1871 إلى شهر جانفي 1872 ولكنه وهو المعروف بصلابته وشجاعته الكبيرة وكفاءته العالية في التنظيم قرر بعد أن اشتد عليه الخناق أن يتجه بقواته إلى الحدود التونسية ليعيد تنظيم قواته واستراتيجيته، واثناء عبوره للمسالك الصحراوية ألقي عليه القبض وهو مغمى عليه قرب مدينة ورقلة فسلم إلى " **دي لا كروا" [Delacroix]**، وتمت محاكمته هو وعزيز الحداد وعدد كبير من الثوار من طرف محكمة الجنايات بقسنطينة، وحكم عليه بالإعدام ثم نفي وأودع قلعة حصينة في كاليدونيا الجديدة، وبعد صدور الحكم عليه أطلق كلماته المأثورة وهو يمر أمام جمع من السيدات كن يراقبنه معجبات به أو بدافع من الفضول فقال "إيه لابد من الموت عاجلا أو آجلا، أما بالنسبة لي فإن الموت قد عاجلني قبل الأوان بقليل".

نقل بومزراق إلى نومية سنة 1873م و لم يعد منها إلى الجزائر حتى سنة 1904م بعد غياب دام واحدا وثلاثين عاما ؛ وأقام سنة واحدة تقريبا لدى ابنه

مفتي الأصنام ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في 13 جويلية 1905م عن عمر يناهز ستة وستين. ودفن بمقبرة الحامة أي مقبرة سيدي محمد بالعاصمة.

دور الإخوان الرحمانيين في الثورة:

انضم الشيخ محمد أمزيان بن علي الحداد إلى الثورة يوم 18 أفريل 1871 ببلدة صدوق الواقعة في الشرقية لوادي الصومام بين مدينتي أقبو وبجاية. وينتمي إلى الطريقة الرحمانية التي تأسست على يد محمد بن عبد الرحمان الذي لقب بعد وفاته بـ "بوقبرين". ولهذا سمي أتباع هذه الطريقة بالإخوان الرحمانيين.

إن أغلب الكتابات التاريخية التي تناولت هذه الثورة اعتبرت حركة الإخوان الرحمانيين بأنها حركة دينية مبنية على التعصب الديني والعرقي، ولكن الواقع غير ذلك فهناك ظروف عامة وخاصة أدت إلى انضمام الرحمانيين لهذه الثورة يمكن إيجازها في عدة نقاط منها:

* النزاع التقليدي بين زاويتي صدوق وشلاطة وتبادل التهم والتنازع بين الطرفين. فابن علي شريف كان متعاليا نظرا للمنصب الإداري الذي كان يشغله كـ: باش آغا وتعرضه لعائلة الحداد.

* السلوك السيئ الذي اتبعه الشيوخ والقياد الموظفون وضباط الجيش الفرنسي اتجاه الأهالي خاصة الإخوان.

إن انضمام الإخوان الرحمانيين إلى هذه الثورة قد أدى إلى تحول هذه الثورة من طابعها الأرستقراطي إلى ثورة شعبية عارمة شملت مختلف جهات الوطن من الجزائر العاصمة غربا إلى القل وجيجل شرقا وقد انضم إليهم أكثر من 120 ألف ثائر ينتمون إلى 250 قبيلة تؤلف 600 ألف نسمة خلال نصف شهر تقريبا

بينما لم يستطع الباش آغا المقراني قبل ذلك أن يجند سوى 25 ألف محـــارب. إضافة إلى هذا فقد شكل انضمام الرحمانيين إلى الثورة خطرا كـــبيرا بالنـــسبة لفرنسا، ففي رسالة بعثها الجنرال "لاباسي" [Lapasset] إلى الجنرال "لالمان" [Lallemand] بتاريخ 18 أفريل 1871 يقول: "إن الجزائر تمر بمرحلة صـــعبة ودقيقة وثورة الإخوان الرحمانيين الموزعة إلى عدة فروع دينيـــة أثـــرت علـــى أصدقاء فرنسا من تونس إلى المغرب الأقصى وأصبح الشيخ عزيز مثل السلطان في القبائل". إلا أن توالي الأحداث وتقدها بعد ذلك أدى إلى إخفاق وفـــشل الرحمانيين هذا الفشل الذي أرجعه بعض المؤرخين إلى عدة أسباب منها:

- إستلام سي عزيز يوم 30 جوان 1871 بعد أقل من 3 أشهر من إعلان أبيه الجهاد.
- إستلام الشيخ أمزيان يوم 13 جويلية في تيزي الأكحل قرب ذراع الأربعاء بعد أن علم بوقوع إبنيه في يد الاحتلال (12) وكان هذا الاستسلام سببا في استسلام العديد من الرجال والقبائل وهذا أمر. طبيعي لأن ضياع القيـــادة هو في الوقت نفسه ضياع للجبهة نفسها.

نتائج الثورة: من بين نتائج ثورة المقراني والحداد ما يلي:

1- إستشهاد زعيمها العسكري محمد المقراني الذي اغتيل نتيجة خيانـــة وتواطو بعض القبائل مع السلطات الاستعمارية وهذا للحـــصول على الامتيازات والألقاب ولولا ذلك لما استطاع الاستعمار الفرنسي أن يثبت أقدامه ويعمق جذوره في الجزائر.

2- إصدار أحكام جماعية على حوالي 6000 شخص بالإعدام والسجن خفف بعضها فيما بعد إلى النفي وهذا ما حدث لبومزراق الذي حكمت عليه السلطات الاستعمارية بالإعدام ثم خفّفت الحكم بالنفي إلى كاليدونيا الجديدة هو وسي عزيز.

3- فرض غرامات مالية باهظة.

4- مصادرة 611 ألف و130 هكتار من أراضي الثوار.

5- مصادرة أملاك المقراني وأفراد عائلته وتجريدهم من كل ممتلكاهم بعد عملية إحصاء دقيقة استغرقت عامين وأربعة أشهر.

6- مصادرة أملاك الشيخ الحداد وأفراد عائلته رغم أنها كانت فقيرة لا تختلف كثيرا عن وضع بقية الأهالي ومع ذلك لم تعفها السلطات الاستعمارية من دفع الثمن ما أقدمت عليه كمحاولة لمحو تأثيرها الروحي على السكان. وقد بلغت مجموع أراضيها التي تعرضت للمصادرة حوالي 5.025.205 هكتار ويتبين من الأسلوب الذي اتبعته السلطات الاستعمارية في المصادرة أنها كانت تريد تحطيم العائلتين تماما ماديا ومعنويا.

لقد تعرضت ثورة سنة 1871 للكثير من الأبحاث والدراسات، وانقسمت وجهات النظر في تقويمها نتيجة الاختلاف في المنطلقات الأساسية لعملية تحليل هذا الحدث التاريخي، ولعل من أبرز الانتقادات التي وجهت إليها ما يلي:

1- الاختيار السيئ لتوقيت تفجير الثورة، بحيث كان لزاما تفجيرها بتوقيت واحد مع الحرب البروسية الفرنسية حيث كانت القوات

الفرنسية منصرفة للحرب ضد بروسيا. وأن القوات الفرنسية المتواجدة بالجزائر حينذاك لتتعدى أربعين ألف رجل بعتادهم الضئيل [13]. فقد أوعز البعض أن المقراني لم يستغل هذه الظروف لكونه لم يكمل استعداداته. بينما فسرها البعض بأن المقراني لم يرد طعن فرنسا من الوراء واعتبر ذلك شهامة وهذا يعني أنه لم يفهم مبدأ "الحرب خدعة".

2- عدم تلاحم الجبهة الغربية الداخلية للجزائريين وعجز القادة عن تحقيق ذلك، بسبب تكوينهم القبلي (الأرستقراطي) أو الانفعال الديني. فقد كان سي العزيز الحداد يرى نفسه أجدر من غيره لقيادة الثورة وتزعمها، وبومزراق الذي عايش هذه الثورة حتى نهايتها كان يعتبر أن الثورة المقرانية قبل كل شيء وعلى الجميع أن يسيروا تحت رايته، وكلف ذلك حدوث انفصال وقطيعة بين الطرفين أديا إلى فشل الثورة عسكريا.

إن للدافع الوطني دورا في اندلاع هذه الثورة، وليست المشاكل الشخصية التي كان يعاني منها الباش آغا المقراني وسي العزيز الحداد كما ادعت الكتابات الفرنسية.

إن العبء الأكبر في ثورة المقراني تحمله الإخوان الرحمانيين من الطبقات الشعبية الكادحة وهم ليست لهم امتيازات أو مصالح خاصة يدافعون عنها وإنما الأهداف الوطنية هي التي دفعتهم إلى حمل السلاح.

نقص التخطيط والإعداد وعدم توفر الإمكانيات المادية فباستثناء العنصر البشري الذي كان متوفرا كانت الثورة لا تملك قيادة قديرة وفي المستوى المطلوب خاصة بعد استشهاد الباش آغا محمد المقراني واختفاء أولاد الحداد في الشهور الأولى من الثورة من جهة وبروز الخلافات بين بومزراق ورفاقه وسي العزيز ورفاقه من جهة أخرى.

لقد كان لعائلة المقراني دورها في قيادة الثورة وتحمل تبعاتها ومن الوفاء تجاوز كل ما قيل في مجال تقويم جهاد أفرادها، وكانت بعد ذلك وقبله ثورة الجزائر كلها، تحت راية الجهاد في سبيل الله، ومن هنا وإذا كان لابد للثورة من رمز تحمله، فقد يكون محمد المقراني هو رمز هذه الثورة، وإذا كان لابد للثورة من إطار شامل يضمها فيكفي وضعها في إطارها الزمني، أما بالنسبة لنسيج الثورة فقد كان امتداد للمقاومة الشعبية التي بدأت منذ الغزو الفرنسي للجزائر، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه الثورة لم تكن إلا بداية لثورات متلاحقة اتصل بعضها بعض، حتى توجت في الأخير بثورة نوفمبر الخالدة التي كانت ثمرتها استقلال الجزائر في 5 جويلية 1962.

الإحالات:

(1) L' Insurrection de 1871 en Algérie, Alger,Jourdan,1891,690 p. Louis RINN

(2) الدكتور يحي بوعزيز، ثورة 1871 [دور عائلتي المقـراني والحـداد]، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص:349 - 350.

(3) Lallemand (Général), Rapport du Général Lallemand sur les opérations de l'armée d'Algérie depuis le 10 November 1870 jusqu'à la fin du mois d'Août 1871,69 p. ,A. M. G. , carton H. 216 .

(4) Général de la division , Etat – Major , Rapport sur l'Insurrection de 1871 ,dans la province d'Alger ,Alger ,le 20-1-1872 ,68p. ,A. O. M. , 2H. 73 .

(5) Djilali SARI, Le Désastre Démographique ,Alger, S. N. E. D. 1982 .

(6) يحي بوعزيز، ثورة 1971، ص:58.

(7) نفس المرجع، ص"217.

(8) C. TAUPIAC, Débat de l'affaire Trinquand ,1er Conseil de guerre de Constantine ,Paris، 1871، pp. 7-15 . أنظر كذلك: يحي بوعزيز، ثورة، ص:218.

(9) Robin, L'Insurrection de la Grande Kabylie en 1871,Paris, Imp. Henri Charles Lavouselle,1901 ,pp. 24 4–258, .

(10) L. Trumelet ,Rapport sur les combats et expédition qui eurent lieu pendant l'année 1871),combat contre les tribus des ouleds sidi salem , de Harchaoua et de Nezlioua le 1er mai 1871), A. M. G. ,H. 375 .

(11) بوعزيز، نفس المرجـــع، ص:226 - 227. أنظـــر ايـــضا:, Robin,
.L'Insurrection de la grande Kabylie, pp: 244-258

(12) يحي بوعزيز، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، الجزائـــر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.

(13) Armée d'Algérie. Etat-major général ,Récapitulation sommaire et par arme, des Troupes de l'armée au 1er Juin 1870, A. M. G. H. 240 .

المحور الثاني
الأشعار الشعبية في المقاومة الوطنية

تقديم:

لاشك أن الشعر الشعبي قد واكب المقاومة الوطنية منذ الوهلة الأولى التي وطأت فيها أقدام الهمجية والإكبار لمغول القرن التاسع عشر الميلادي، أرض الجزائر الطاهرة والمقدسة، فدنسوها باحتلالهم الغاشم صيف 1830م.

لذلك على الباحث الذي يتصدى لدراسة جهاد الشعب الجزائري في ذلك القرن، أن يبحث باستمرار على المصادر والوثائق في كل مكان يحتمل وجودها، وخاصة الوثائق المحلية الشحيحة، ومنها الأشعار الشعبية التي نعتصر منها بعض المعلومات التاريخية المفقودة في المصادر الأخرى، ذلك أن الشعر الشعبي يعد من الوسائل التعبيرية المجسدة للثقافة الشعبية خلال تلك الفترة الكالحة حينما تغلب على المجتمع الجزائري الطابع الأمية فلم يجد أي وسيلة ليعبر بها عن نفسه سوى الشعر الشعبي، لذلك اعتمدناه في بعض الحالات كشواهد تاريخية.

وتنحصر هذة الدراسة على بعض النماذج من الأشعار التي تخلد الوقائع والأحداث التاريخية الهامة في كل من الزيان والزعاطشة والهضاب العليا الغربية خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة، وسنركز على أشعار الفحل محمد بلخير ومسيرته التاريخية، مع ذكر غيره من الشعراء.

1- الشعر الشعبي في الزيبان:

نقتصر في هذه المناسبة على بعض الأشعار التي خلدت خليفة الأمير عبد القادر في الزيبان الشهيد فرحات بن سعيد الذي كان محتجز في تقدامت عاصمة الأمير، فأطلق سراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيبان " وأنعم عليه بإيالة بسكرة وما إليها. " [1]، على شرط أن يلاحق أولاد بن قانة. مع ترك أفراد عائلته عند الأمير عبد القادر كرهائن حتى يضمن عدم خداعه واستسلامه للفرنسيين مرّة أخرى. وفعلا أخْلَصَ فرحات بن سعيد هذه المرّة وأبْلى البلاء الحسن واستطاع أن يضايق القبائل الموالية لأولاد بن قانة خلال سنتي 1840 ــ 1841م ويمنعهم من الإرتياد والإنتجاع بمواشيهم للبحث عن الماء والكلأ، كما أنه قام بجولة في الزيبان صحبة الحاج مصطفى(شقيق الأمير) خلال صيف 1841م مكنتهما من جمع الضرائب؛ [2] غير أن بعض الأفراد من البوازيد قد غدروا به وقتلوه بأولاد جلال في سبتمبر 1841م حين ذهب إليهم، فبمجرد نزوله عن جواده حتى التفوا حوله وطعنوه جميعًا طعنة واحدة بسيوفهم ــ لأنه حسب ظنّهم أن الرصاص لايخترق جسمه[3] ثمّ انتزعت منه وثائقه وأُرْسِلَتْ إلى الحاكم الفرنسي بقسنطينة. [4]

دفن فرحات بن سعيد بعد هذه الحادثة الأليمة من قِبلِ أنصاره في ضريح (النبي خالد) بمسجد بلدة سيدي خالد، وقدآثار موته موجة من الحزن والأسى في ربوع الجزائر، لأن رحيله يعدخسارة كبيرة للمقاومة الجزائرية، حيث أصبح اسمه رمزًا للكفاح والشجاعة، وقد أثر هذا الحدث في نفوس

الشعراء فأنجبت قرائحهم العديد من القصائد ضمن الشعر الملحون (الـــشعبي) نذكر منها القطعة التالية:

يا فارس إلي جيت تسير   ردّ الجواب عني عاود الأخبار
عرق الجواد غطى الديرة الجواب عني يا راعي الصبار
كيفا مات حرمة أهل بن عليفرحات الدوادي حرمة من حار

ثمّ يـــقـــول:

كيفا مات راعي الأحمر   يلغوا به في كل نـــهـــار
عدوه مـــنه يـــفزع وينهزم على ظهره بالـــنـــار
كيفا مات زين الفرسان كيفا فرحات من سرجه طار
يوم البارود لاسلاك إلاّبه قتله الطمع بن قانة الغـــــدار
يا الخيال بـــاء تسيـــروا   أبكوا يا رجال على خلاّص الثّار. (5)

ورغم القضاء على فرحات بن سعيد، وإقصاء عائلة بوعكاز، فإن المقاومة الوطنية بقيت ملتهبة، ولم تعرف منطقة الزيبان لحظة واحـــدة مـــن الهـــدوء والسكينة، حتى جاءت ثورة الزعاطشة.

والملاحظة البارزة في هذا المجال هي أن الخـــلافات القديمة بـــين العـــشائر والقبائل قد لعبت دورًا هامًا في عدم توحيد المقاومة وجمع الإمكانيـــات ورصّ الصفوف ولّم الشمل لدحض الدخيل المحتل؛ وقد استفاد الاحتلال الفرنسي من هذه الوضعية ولو بطريق غير مباشر، وعمل على بثّ بذور الشقاق وجـــذور النزاع، ضمن سياسة "فرق تسد"، واستطاع أن يـــستدرج بعـــض العناصـــر والشخصيات الوطنية وقبائلهم إلى صفوفه لضرب قبائل أخرى جزائرية.

لذلك استطاع العدو أن يدك حصون الزعاطشة وقضى على كل شيء يتحرك، وأصبحت الزعاطشة أثر بعد عين. وصلت هذه الأخبار إلى العديد من القبائل، وعلمت بهذه الجرائم الشنيعة فتأثرت كثيرًا وعزمت على الانتقام لموتاهم والأخذ بالثأر على المساجد التي هدمتها مدافع الحصار ولغابات النخيل المقطوعة التي تعتبر ثروة الزعاطشة. وفي هذا الصدد نظّم الشاعر محمد ليشاني قصيدة طويلة من الشعر الملحون يذكر فيها بطولات ثورة الزعاطشةوقائدها الشيخ بوزيان نورد منها بعض الأبيات:

الحمد لله.

فرد الحمام اسعاني يحميك يا أبي الدونان

توصل الباي الصحراء سلم عليه بوزيان

بسم الله القصة صارت في آخر الزمان

هذا الروم جارعلينا ابدو يرفد بوزيان

بوزيان راه واعر ماهوشي مهمول للخزيان

غير الى راشق زويجة طبنجة بالفضةوالمرجان

ثمّ يقول:

إن شاء الله من حوضو نروا من عسل وحمروليان

تابعين طريق النبي ومصدقين يا بوزيان

إن شاء الله في الدنيا نسعدوا في الجنة يقول مضمان

يا الاسلام خسارة عنكم اتبعوا في أولاد جوان.

ويختم الشاعر قصيدته بالأبيات التالية:

ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان

يرحم مبارك بن الاحمر وعلي بن داود فتان

أولاد عبدالله جملة طاحوا في شاوالميدان

الى قال القول محمد ليشاني نظم غيوان.

كذلك خلّــد الشاعر ابن الشرقي من قرية فلــاش هذه الثورة في قــصيدة رائعة، بــدأها بالحمد لله والصلاة على الرسول الكريم(ص) ثمّ طرح الــسؤال التالي:

يادرا واشــنــهُ المفعول بين سيدي وناس الكفار؟ ـــ الجواب:

جــات ليهم قــدّ الجــراد والعساكر مثل الويــدان

يحلفوا بعبادة ا لأوثان لن نخــلوها وتبقى قــفــرًا

جملة من كل أوطان من المدية للغرب اتلمسان

لــمْ عساكرحتى لوهران ذي قــضــية ما جــرا

والجزاير من كل مرسى جات سكيكدة وعنابة باثبات

على الزعاطشة تلاقات تــورخو يا من هو يقــرأ

العساكر والقوم تــدور والمدافع تــعمــرّ بالكور. (6)

وفعلا سجلنا تاريخ بعض هذه الأحداث في دراسات عديدة تلبية لنداء هذا الشاعر، ورغم ذلك فإننا نشعر أنها غير كافية، تنتظر دراسات الأجيال الصاعدة لتخليد كفاح الأجداد الباسلة.

2- تعريف بالشاعر محمد بلخير:

اصطدم الاحتلال الفرنسي في توسعه نحو الجنوب الغربي الجزائري، بثورة عارمة أشعلها الشعب الجزائري، بقيادة أولاد سيدي الشيخ، للدفاع عن مجالهم الحيوي، عبرالهضاب العليا الجزائرية التي تتمتع بموقع استراتيجي هام في عمليات التوسع الاستعماري. وقد خلد الشاعر محمد بلخير عدة وقائع تاريخية لهذه الثورة في قصائد رائعة. إذن من هو هذا الشاعر؟

هو محمد بلخير فحل من فحول الجزائر، اشتهر بجهاده وشعره الشعبي في احوليات الجزائرية، طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولد الشاعرمحمد بلخير حوالي سنة 1237هـ/1822م في واد المالح الذي يقع بالشمال مابين مدينتي وهران وعين تموشنت، ومن المفروض أن يلد في مراعي الرزيقات حسب عادة البدو، لكن الظروف الطبيعية القاهرة جعلت عائلته تهجر المضارب الى الشمال؛ ذلك أن مواطن الرزيقات تمتدّ ما بين جبال الاكسل بالأطلس الصحراوي وسي ناصر والغسول والطمار، وهي البيئة السهبية التي تنتمي إليها قبائل الأغواط الاكسل المنحدرة من قبائل بني هلال وبني سليم، فهم إذن عرب أقحاح مشبعين بالقيم الأصيلة. تلكم هي البيئة التي ترعرع فيها الشاعر، حيث قضى معظم طفولته وشبابه يرتع بين أحضان الخساسنة في جو ملؤه السعادة والهناء وتحفّه البهجة والسرور، وقد لازم

منذ نعومة أظافره الطلاب والكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربيـــة وأصول الدين الإسلامي، مما جعله فصيح اللســـان، كما عاشر بعض الشعراء والمداحين و" القـــوالين"، وتـــأثر بهم إلى حـــد أنه بـــدأ يقلـــدهم ويـــنظم الشعر وهو في ريعان شبابه، فقد تطرق إليه ما يعرف عندهم بــــ "شـــيطان الشعر"، وهو الإلهام ليتغزل ببعض الجميلات.. والخـــيرات.. والمالحـــات... ، وكذلك مدح بعض الشخصيات التي إشتهرت بها منطقته منهم:بلحضري من فرندة أو قدور صحراوي أو القاسمي وغيرهم.

كان محمد بلخير قوي البنية متوسط القامة (مربوع القدّ)، أسمر اللون ببشرة داكنة، وله عيون خضراء، وجبهة مجعدة، ويتميز الشاعر بـــتديـــنه القـــوي، فهو يخشى الله كثيرًا في الســـرّ والعلانية، وله إرتباط متين بـــالولي الـــصالح سيدي الشيخ الذي يعتبره الدليل والمرشد والقائد الهمام في حياته، لذلك فإنّـــه ينتمي إلى الطريقة الشيخية. كان أيضا كريما شجاعا، فارسا مقداما، لايهـــاب الأعداء، وكان يفضل أن يستشهد في سبيل الله وعرضه، علـــى أن يعـــيش في بحبوحة من العيش في ظـــلّ الخضوع للنفوذ والهيمنة الإستعمارية، ولهذا فإنّـــه يعدّ من رجال الحروب والقتال، حيث قد روض حصانه الملقب بـــ "الأزرق" للوغى إلا أن سقط في ميدان الشرف، وقد خـــلّد ذلـــك الحـــدث في عـــدة قصائد؛ أما أسلحته فهي بندقية مزدوجة (زويجة) مع مـــسدسين (كـــوابيس رديف) وخـــنجـــر (خُـــومـــيـــة) وحربة.

حين نُـــكبت الجزائر بالإحتلال الفرنسي، وتوسع كـــالمرض الخبيـــث في جـــسم الأمّة، إنـــدهش الشاعر محمد بلخير من هذه الظاهرة الغريبـــة، ونظـــم

حول ذلك عدة قصائد يبيّن فيها طغيان هذا الأجنبي الفرنسي والذي يطلق عليه "الرومي" المسيحي. وقد تجسّم هذا الطغيان الثقيل وغير المحتمل في الجيش الفرنسي وأعوانه من "الحركة" و"القومية" والذين يلقبهم بـ" المزّانات "، ثمّ في رحال الدرك والضرائب الثقيلةوالعديدة وأعمال السخرة والمداهمات والإعتقالات والسجون الرهيبة... وغيرها، وهذا ما جعل عائلة بلخير ـوغيرها ـ تنتقل وتهاجر من موطنها الأصلي ـ قرب السعيدة ـ إلى أماكن أخرى أكثر أمناً، وليستقرّ بهم المقام في الأخضربالقنطرة. وهذا قبيل وفاة الخليفة سي حمزة بن بوبكر مسموما من طرف السلطات الفرنسية بالعاصمة، صيف 1861م.

يعدّ محمد بلخير من الأعيان البارزين في قبيلته، حيث يشارك في كل قرارات مجلس العشيرة، وقد تزوج في سنّ مبكرة ـ لايتعدى العشرين عاما ـ من السيدة فاطمة بنت بوقفدة وأنجب منها عدة أطفال منهم:الأخضر والشيخ، وله اليوم مجموعة من الأحفاد منهم ابن الأخضر الذي يسكن بقرية عين كرمس. لقد شارك محمد بلخير في جميع المعارك الكبرى، خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864م، منها معركة عوينة بوبكر والتي قتل فيها العقيد "بوبرتر" (Beauprêtre) ومعركة ابن الحطاب ومعركة غارات سيدي الشيخ (فيفري1865م) والتي إستشهد فيهازعيم الثورة سي محمد بن حمزة وهو في ريعان شبابه، وقد نُسبت رصاصات الغدر إلى العميل قدور الصحراوي، وبذلك إنقطعت العلاقة الودّية التي كانت تربط الصديقين محمد

بلخير وقدور الصحراوي، كما شارك أيضا في معركة عين ماضي أو غـــارة الــغــشــوى في عهد ثورة بوعمامة.

ومما لاشك فيه هو أنّ اسم محمد بلخير ومسيرة حياته قد أرتبطتا بتــاريخ المقاومة الشعبية بالجزائر خلال الإحتلال الفرنسي للجنوب الوهراني والذي دام أكثر من ربع قرن (1864 - 1889م). وقد خلّد هذا الشاعر المجاهد الفــارس الفحل جهاده مع الشعب الجزائري من أجل العقيدة والحرية في عدة قــصائد تعكس وقائع تاريخية هامة ومرحلة من تاريخنا المجيد، لهذا احتفظت بها الذاكرة الشعبية لترويها للأجيال الصاعدة وتبيــّن تلك الأيام الحالكة التي عاشــها الشعب الجزائري في ظــلّ الإستعمار، كما أنّها أيضا تظهر الوجــه المــشرق لأجدادنا في جهادهم البطولي الذي كتبوه على صفحات ماجــدة نعتــــز ونفتخر بها اليوم.

وبعد مسيرة قتالية جهادية طويلة مع ثورة أولاد ســيدي الــشيخ الأولى والثانية هاجر محمد بلخير مع الثوار وأولاد سي حمزة بن بوبكر إلى الــــوادي الغربي ومنه إلى قــيــر ثمّ إلى إيغلي وتينقورارين. وبعد بُرهة حصل نوع مـــن الخلاف ما بين سي الدين بن حمزة المؤيد للتفاوض مع الفرنسيين وأخيه ســـي قدور بن حمزة -قائد الثورة حينذاك- والمتحمس لـــمـــواصلة الجهاد مع عمّه سي الأعلى، فإضطرّ محمد بلخير إل مغادرة معسكرهم بـــبوزيد لينـــتــقل إلى المنيعة ليحثّ أولاد زايد والشعانبة على إستــئــنـــاف الجهاد المقدس ؛ غـــير أنّه لم يوفق في مهمته، فإتجه صوب مخيّمات ومراعي الرزيقات عنـــد عـــشيرته وقبيلته، لكنّ ابن أخيه محمد بن الشيخ بن بلخير آخير قائد القبيلـــة بـــاحوس

بالقدور الذي سارع بإبلاغ المكتب العربي بالبيض، لهذا قام أعـوان المكتـب العربي بترصد خطوات الشاعر الذي إنتقل عند أقاربه وأحبابـه بـالحساسنة قرب مدينة السعيدة، أين وجـد رجال الدرك في إنتظاره، فحموه وأشـاروا عليه بالفرار، فأسرع إلى الإختفاء بـقـبـّة الولي سيدي الشيخ بقصر الأبيض سيدي الشيخ لكنّ القوات الإستعمارية لحقت به هناك وألقت عليه القبض سنة 1884م، وسيق إلى المكتب العربي بالبيض، وأخضع للتحقيقات والإستجوابات. وبعد الإستجواب، سـيـق محمد بلخير إلى السجن، وقضى به عـدة أيـام، ثمّ نـقـل تحت حراسة مشـددة إلى معسكر حيث إلتأم مجلس حرب الذي أصـدر حكمه بخمس سنوات سجـن نافـذة مـع نفـيـه إلى جزيـرة "كورسيكا" سنة 1884م.

إنتشر خبر هذا الـنـفـي كالنار في الهشيم في كلّ أنحاء الجزائر (التـلّ والصحراء)، وعند جميع النّاس ــ أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء ــ لأنه يمثـل رمز الجهاد والشجاعة والغضب من الأعداء. وبعد انقضاء فـتـرة بـسجن معسكر، أخذوه إلى وهران ومنها أبحر إلى مرسـيليا ثمّ حـوّل إلى جزيـرة كورسيكا ليسجن بقلـعـة "كالفي" (CALVI) الرهيبة، ولهذا يقول بلخـير في احدى قصـائده أنّه أبعد عن بلاده بمسافة طويلة قـدّرها بطول بحرين. عاش المجاهد الشاعر بهذا المنفى سـنـوات الجـمـر، وكان أكثر ما يورقـه هو أنّه يـعيش في غربة على أرض كفر، وكان يطلـب مـن الله تعـالى أن يُـفَـرِّج عنه ليرجع إلى أرض الجزائر الطاهرة، دار إسـلام، ومما يؤلمه أيـضا داخل السجن هو الإذلال الذي كان يشعر به من شـدّة المهانـة وفقـدان

لكرامته وإنسانيته وهو الفارس الشهم، فرغم العذاب الجسدي المتمثل في أعمال السخرة الشاقة، فإن آلامه النفسية كانت أشد؛ حيث كانوا يذهبون بالمساجين إلى جزيرة "روس" (Rousses) من حين لآخر ليسرحوا أرجلهم من القيد تحت حراسة مشددة، فيراهم السكان بلباسهم وهندامهم الرثّ ولحياهم الكثّة فيشتمونهم ويرميهم الأطفال بالحجارة بإعتبارهم أعداء فرنسا؛ وقد دوّن الشاعر أروع قصائده في هذه الظروف، وقد وصل البعض منها إلى الجزائر رغم الستار الحديدي المضروب عليه. وهي قصائد رائعة وخالدة، وقد جمع جزء منها الأستاذ بوعلام السائح والراهب عيسى ميلاد وسي حمزة بوبكر وغيرهم، وبقيت مخزونة في الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة، ويرددها بعض المولوعين بالأدب الشعبي أمثال القشفوش والحبيب المدني وقويدر بن كحل الرأس وغيرهم.

أفرج عن شاعرنا المجاهد محمد بلخير سنة 1888 أو 1889م فرجع إلى أرض الجزائر، ولم يسمح له بزيارة أهله بالبيض، فتوجه إلى الأبيض سيدي الشيخ عند قبّة الولي، وأقام بعض الوقت، وحاول أولاد سيدي الشيخ أن يعوضوه عن معاناته فقدموا له هدايا ثمينة من ملابس فاخرة وحصان جميل بسرجه المطرز بالخيوط الذهبية.. إلخ.

أمضى محمد بلخير بقية حياته في قول الشعر الذي يفضح فيه أعمال الإحتلال الفرنسي في الجزائر؛ ولم يمكث في مكان واحد، بل كان يتجول عبر الجنوب الوهراني، وحين تقدم به العمر أصبح يصاب من حين لآخر بوعكات صحيّة تلزمه الفراش حتى فارق الحياة سنة 1904 أو 1906م ودفن في مقبرة

القناطر، لكنّ بعد الإستقلال قام أحبابه وأقاربه بنقل رفاته إلى مقبرة الشهداء بدائرة بوعلام قرب البيض، ليدفن من جديد بجانب شهداء ثورة التحرير الكبرى [7]. (رحمة الله عليه).

3- أشعار المخلدة لثورة أولاد سيدي الشيخ وبوعمامة:

بعد عدة معارك قام بها الثوار عملت السلطة الفرنسية على التقليل من شأنهم، وكلفت قاضي البيض بإصدار فتوى تعتبرفيها الثوار بمجرد خارجين عن القانون. وقد رد عليه الشاعر الشعبي المشهور محمد بلخير فيما بعد بقصيدة طويلة، نورد منها بعض الأبيات.

مقواني نبكي الأجراح مهولين بي فرقت وطني وعزّ الأوطان
رانا ضروك راس النحوع متزهين ما قعدوا في الذل إلا أصحاب بوران
إلى يبغي الجنة يضاد الكافرين والي ابغى الهناء ابغى التمزان
قولوا لعطاء الله واش كلفك يا حزين ولاه تشمت في والي ما لداهم قران
لعبت بك الدنيا أيامها فاتين ما أخيار آتنا وألا أكلاب رحمان
رجال الله من توات إلى سطيف رضوا عن الشيخ سقام الفرسان..

ويقول أيضا:

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيفتبعنا ما قال ربي في القرآن
وأحنا فزنا على العرب جيد واشريف وافرح بنا الهاشمي شارع الأديان
مات منا أحداش فراسين الحيف متين ونصف بين كفرة وامزان
واحنا بنا الناس تحترف اقتريف واشوايعنا من الدزاير للسودان

ثم يختم قصيدته بالأبيات التالية:

إلى ما نافع النبي ما عنده نيف　　محمد صاحب الشفاعة والغفران

من علم الأعباد بأيام التعريف　　فرض الصلاة والزكاة وشهر رمضان

والطامع فيك يا الله ما هوش اشخيف　　كذا من حد تنصره يصبح سلطان[8].

وهكذا أوضح الشاعر في هذه القصيدة أن المجاهدين أفضل وأشرف من الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي وحاربوا بجانب الضابط بوران خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م، كما عاتب الشاعر محمد بلخير قاضي البيض عطاء الله على ما صدر منه للحط من مكانة الثوار وأتباعهم، رغم أن الله سبحانه وتعالى والرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مع المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لرفع راية الإسلام وتحرير البلاد لذلك قد بارك جهادهم وأصبح سلاحهم أقوى وأنجح من سلاح العدو، فكتب لهم النصر واستشهد إلا أحد عشر فارسا، بينما العدو قتل منه أكثر من مائتي كافر وخائن وهذا بفضل الله ورضوانه عن الشيخ وبركة رجال الله الصالحين من إقليم توات إلى منطقة سطيف..

ويظهر من هذه القصيدة أيضا أن معنويات المجاهدين مرتفعة، وأنهم قد انتصروا في معاركهم ضد الكفار، خاصة معركة " المويلك" الشهيرة التي اعتبرتا فرنسا هزيمة لبوعمامة وانتصارا للجيش الفرنسي الذي انتقم لاغتيال الملازم "وانبرونر" من جهة ودعم نفوذه في الجنوب الوهراني من جهة أخرى.

وتوصلت القوات الفرنسية إلى هذه النتائج حسب زعمها إلى الدور البارز الذي قام بها الجنرال "سيريز" (CEREZ) قائد الناحية الوهرانية، حيث نظم

أربع طوابير للحفاظ على المناطق التلّية من الناحية الوهراني ودفع بطابور سعيدة داخل الأهالي المتمردين، كما أشادت السلطات الفرنسية أيضا بدور العقيد " اينوسنتي "وجنوده الذين تلقوا التهنئة والتنويه من قبل وزير الحربيـــة ورئـــيس الجمهورية. [9] ولكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس مـــا جاء في التقارير العسكرية الفرنسية، ذلك أن هذه الموقعة تعتبر انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة ويتفاداه كلما أمكن ذلك وأن العقيد "اينوسنتي" قد أرغم بعد المعركة إلى التوجه نحـــو الشمال أي إلى خيضر هروبا من بوعمامة، ويظهر أن عزله -فيما بعد- كـــان بسبب هزيمته أمام بوعمامة.

ظل بوعمامة طيلة هذه المدة سيد الموقف وقد توجه إلى الأبـــيض ســـيدي الشيخ للاستعداد والتهيئة للمسيرة الطويلة التي أجبرت الجيش الفرنسي علـــى الهروب وجعلته يتيه في تلك الفيافي بدون دليل؛ وقد نسج حول هذه المـــسيرة الكثير من الأساطير والغيبيات، مثل أن "بركة" سيدي الشيخ بوعمامة جعلتـــه يسبق القوات الفرنسية، ويمر بجانبها أحيانا و لم تره، ودامت هذه المسيرة حوالي ثلاثة وعشرين يوما من 30 ماي إلى 21 جوان 1881. وكانت هذه المـــسيرة نحو الشمال مرورا بـــالبيض وستيتن ثم سيدي عبد الرحمان وعيـــون الـــبراش ليعود ثانية إلى بوسمغون في الجنوب قاطعا الخط الرابط بين بوقطوب المـــشرية عين الصفراء، وقطع خلالها ما يقارب السبعمائة وثلاثين كيلومتر، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه وعرقلة مسيرته ولكنها لم تستطيع إيقافه أو مواجهته وهذا خلافا لمـــا روجتـــه

الأوساط الاستعمارية بأنها لم تره، وهذا غير معقول إذ كيف يمكن لجيش جرار يمر بجانب العدو بدون أن يراه أو يسمع ضجيجه.

والجدير بالذكر هو أن انتصارات بوعمامة، جعلت عدة قبائل من المنطقة تنضم إليه الواحدة تلوى الأخرى منها قبائل الأغواط الأكسل[10] والتي وضعتها فرنسا تحت قيادة الدين العموري آغا آفلو، فثارت وحاولت الانضمامات وحاولت الانضماارك في هجوم فرندة مع بوعمامة، لكنها تعرضت لهجوم من طرف قوم أحرار تيارت بقيادة الآغا الحاج قدور الصحراوي يوم 14 جوان 1881م بواد خروف، فاضطرت إلى الرجوع على أعقابها فتعرضت مرة أخرى يوم 16 جوان إلى هجوم قبائل أرباع الأغواط تحت قيادة سي باحوص بن قدور، المدعم من طرف الرائد "بولا" (BELIN) مع أربع فرق خيالة فكانت معركة ضارية خسر فيها الأغواط الأكسل مائة وخمسة قتلى، واشتهرت هذه الواقعة الشنعاء بين الأشقاء بموقعة " قارة الغشوى" والتي تقع على بعد عشرين كيلومتر شمال شرق استيتن. وقد دون الشاعر محمد بلخير وقائع هذه المعركة في قصيدة من الشعر الملحون منها:

دير علي يا صاحب التدبير درلي في القسمة الوافية عودي

يوم في قارة الغشوى نهار كبير كاملين ثلث ضربات في عودي

ضرب نطح من الرقبة لحد الدير عادم بالجراح باليمنى يردي[11]

هكذا التجأت السلطات الفرنسية إلى استعمال جميع الوسائل لتحطيم الثورة كتحريض القبائل والأعراش فيما بينها.

وقد كلفت السلطات العسكرية العقيد "دي نيقريه" بمهمة معاقبة القبائل التي شاركت في الثورة، لكنّه تصرف بمحض إرادته فكانت تصرفات حمقى، منها نسفت زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بقرية الأبيض سيدي الشيخ، وقبل وصوله إلى هذا الهدف كانت قوته قد إقترفت أعمالا إجرامية بشعة ضد السكان العزل خاصة أهالي الطرافي بضواحي البيض وأهالي الأربعوات وذلك يوم 9 أوت 1881م. وهاجم أيضا سكان الشلالة الظهرانية وطالب من قائدهم تسليم كل الذين شاركوا في معركة "المويلك" للإنتقام منهم ومصادرة أسلحتهم من بنادق ومسدسات وسيوف.

وفي 14 أوت 1881م وصلت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد "دي نيقريه" إلى قصور الأبيض سيدي الشيخ الأربعة حيث قام بأعمال شنيعة يندى لها جبين الإنسانية، فقد وصل به البغض والإستهتار والعجرفة إلى تفجير قبة سيدي الشيخ (12) كلية ونبش قبره الذي مر عليه حوالي قرنان ونصف، وكان يهدف من وراء ذلك الإستهزاء من الرموز الروحية التي تحث السكان على الثورة والمقاومة والدفاع عن حمى الموطن والدين، وتشتيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسية لهم.

كذلك الإنتقام من ثورة بوعمامة ومناصريه وتخويف الأهالي من مغبة التمرد والإنفصال عن السلطة الإستعمارية والإلتحاق بالثورة.

وعملت فرنسا على استمالة أولاد سيدي الشيخ إليها وتفاوضت مع سي قدور بن حمزة عن طريق بوحفص لغواطي وتم الاتفاق بين الطرفين في شهر ماي 1883م. وينص هذا الاتفاق على الأمور التالية:

أولا: أن تقوم السلطات الفرنسية بتجديد بناء ضريح سيدي الشيخ، الذي نسفه القائد العسكري " دي نيقريه"، في أوت 1881م.

ثانيا: أن تقدم السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنـــك، لسي قدور بن حمزة وأفراد عائلته عما صودر منهم منذ عام 1864م.

ثالثا: تعيين سي قدور على رأس قيادة كبيرة بالبيض وتعين عدد من أفـــراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابعا: يقوم سي قدور وأفراد عائلته بإقناع كل أفراد عائلة أولاد ســيدي الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة إلى الجزائر[13]. وفعلا، فقد تم تطبيق هذا الاتفاق، وأعيد بناء ضريح سيدي الشيخ، ثم رجع سي الدين بن حمـــزة وابن أخيه سي حمزة بن بوبكر ومعها عائلة الأولاد سيدي الشيخ وكثير مـــن قدماء المجاهدين ليستقروا كلهم في التراب الجزائري [14].

وما من شك أن هذا الإجراء كان يهدف إلى عزل الشيخ بوعمامة وإفشال ثورته التي وقفت كحاجز صلب يمنع تسرب الاحتلال الفرنسي إلى الجنـــوب الجزائري. ولكن الشاعر محمد بلخير ورفيق الــشيخ بوعمامـــة في الكفـــاح يـــبيـــّن في قصيدة طويلة تشبث في الأهالي ببوعمامة لمواصلة الكفاح، نورد منها بعض المقتطفات:

يا الفارس حشمتك عيد الأخبار

واش حال القرامي رايس القوم

اليانك من البيض فرحة والأبشار

الشيخ أتبنى وإلا مازال مهدوم

هدموا قنطاس الهمة والأوقار

ولا أبقى حد على السلطان معكوم

ثم يقول:

كان شئ من الأبطال أولاد بكار

لا تخلو نجع السلطان مقسوم

بوعمامة مولى سطوة وزيار

وأباه بين أكتاب النبي المعصوم

بوعمامة يعطي تسبيح الأذكار

وبوعمامة سره للناس مفهوم

ثم تختم القصيدة بما يلي:

راه ربي شاهد بالي نخلف الثار

أو عارف القلب إلى من نحوه مهموم

لو أنصيب أنجي لك كالجار للجار

أو تفارقني في اليقظة مع النوم(15).

4- نعي الشيخ بوعمامة:

طيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ بوعمامة قضاها في الجهاد تارة وفي الهدوء طورا آخر وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال " ليوتي" (LYAUTY)، وأخيرا التجأ الشيخ بوعمامة إلى ضواحي

وحدة بزاوية رأس بو ـــ رديـــن قرب عين سيدي ملوك حيث وافته المنـــون في السابع من أكتوبر 1908م[16]. (رحمه الله). ودفن هناك.

وقد نعاه العديد من الشعراء منهم المقدم المهناني من أولاد سيدي الحاج عبد الحاكم لأولاد سيدي الشيخ بقصيدة عنوانها: عزوني ياناس، قالهـــا بعـــشرين رمضان 1326هـــ /1909م.

عـــزوني يـــاناس في شيخ العربـــان عزّي واعتـــايني ومفتـــاح اورادي
تبكي عيني على بوعمامة طول ازمان تبكي عيني على امد كش ميعاد
تبكي عيني عليه ما طال الزمان طول الحياة والدموع على خدي
تبكي عيني عليه مفتاح البيان نور الرحمة الى على الخير يهادي
تبكي الارض والسمـــاء والحيـــوان وتجاوبهم جبال بـــانواح اتصـــادي. [17]

أما الشاعرالشعانبي قـــدور بن لخضر فقد نظّم قصيدة طويلـــة بعنـــوان: عـــزّى الفقراء في شيخهم نورد منها بعض الأبيات:

عظّم الأجر على بكاكم يا الأخوانوعلى بالـــخَصْلة ديـــما
غيّب قطب الدايرة مولى البرهــــان شيخ الفقـــراء بوعمامـــة
غيّب قطب الدايرة معدن الأكوانور وضي لكل ظلمة
الاسقم بالخصلة وعمارت الأوطانتبري به الّي سقيمة
يا فتى خلّيك راني في الاحزان جرحي مـــا تبريـــه حكمة
وعلى شيخي بوعمامة غالي الشانقنطاس هدى وحـــُرمة [18].

والله ولي التوفيق.

الإحالات:

(1) محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، الطبعة الثانية شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة، 1964، ص: 300.

(2) Rapport sur la puissance et les réssources d'Abdelkader par M. MASSOT, Adjoint à - l'intendance militaire, Grenoble, le15 juin 1841. A. M. G. , H. 228. (29)-SEROKA, op. cit. ,p. 420 .

(3) Le Commandant SEROKA « Le Sud constantinois de 1830 à 1855 – « in Revue Africaine , n° 56 , (1912), p. 420 .

(4) Charles FERAUD,« Les BEN - DJELLAB , Sultans de Touggourt , Notes historiques sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n° 28, (1884), pp. 331-332 .

(5) FERAUD, «les Ben - Djellab» , op. cit. , pp. 334-336 .

(6) Ibid. , pp. 416-420 .

(7) أنظــر: Cheikh Si Hamza BOUBAKEUR , Trois poèmes algériens (Mohamed Balkhayr - Abdallah Ben Karriou - Mohamed Baytär.) ,Paris,Maisonneuve & Larose, 1990, 324 .pages

(8) BOUALEM BESSAIH, Etendard Interdit, Paris, Sindbad, 1976, pp. 135-138 .

(9) A. M. G. , H. 376 Ordre Général, Au quartier Général à, Alger,le 24 mai 1881

(10) قبائل الأغواط الأكسل: أخذ هذا الإسم من المنطقة الجبلية ومنها جبل الأكسل من جبال عمور، شمال غرب مدينة الأغواط، وهم بدو من خمسة أقسام، هم الزيقات-أولاد مومن- فرارجة - أولاد عيسى - وأولاد عمران، وبذلك يمكن أن نميزهم عن قبائل الأغواط الأرباع المرتبطين بالأغواط المعلوم)حسب ماهو رائج هناك.).

(11) AISSA MILAD, "Etude détaillée d'un poème de Mohamed Belkheir", S. G. A et d'Arc. d'Orany, Bulletin spécial sur le centenaire de Bou-Amama, (1981-1982), pp. 21-37 .

(12) Réveil de Mascara, n° 85,11 Septembre 1881.:Journal

(13) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، قسنطينة، دار البعث، 1980، ص. 255-256

(14) Le Martiniere et LACROIX, Documents pour servir a l eude du Nord - Ouest Africain,, Tome II,Lille,L. DANEL,1896, p. 915 .

(15) BOUALEM BESSAIH, op. cit. , pp. 123-125 .

(16) Télégramme (chiffré) du Général CAZE commandant le XIX corps d'armée à Monsieur le gouverneur général d'Algérie,Alger,le 29 mars 1903, A. O. M. ,30H80 .

(17) Bul. Com. Afr. Fr. , Octobre 1908, p. 343 .

(18) Si Hamza BOUBAKEUR, Un Soufi Algérien SIDI CHEIKH , PARIS, Maisonneuve et Larose,1990, p. 259 .

المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر
خلال القرن XIX م
محاولة اجتثاث جذور الشعب الجزائري

تقديم:

تعرضت الجزائر الحبيبة إلى أخبث نوع من أنواع الاستعمار الأوروبي الحديث، والمتمثل في الغزو العسكري، والنهب الاقتصادي، والاستعمار الاستيطاني القهري، والغزو الفكري –الديني لمسخ وفسخ شعب الجزائري.

ولقد قاوم الشعب الجزائري هذا الاحتلال بكل ما لديه من قوة وإمكانات منذ الوهلة الأولى من تواجده على أرض الوطن. ومن المؤكد أن التنظيم العسكري الذي فرض لفترة طويلة على الجزائر انتهى بالفشل، لأن الشعب الجزائري لم يركن للخضوع واستمر في ثورات شعبية متتالية، لذا قررت الجمهورية الفرنسية الثالثة في خريف 1870م تطبيق النظام المدني على الجزائر، مع إبقاء النظام العسكري بالمناطق الجنوبية المحتلة، وذلك لاستكمال سياسة الإدماج الإداري الذي بدأ منذ عام 1834م؛ وألحق مرسوم 24 أكتوبر 1870م الجزائر بوزارة الداخلية، ورافق هذا التحول في النظام الإداري تغيير الحاكم العام العسكري بحاكم عام مدني، استجابة لرغبات المستوطنين المتمثلة في السيطرة على أخصب الأراضي والغابات، والقضاء على روح المقاومة، بعد فسخ ومسخ مقومات الشخصية الوطنية.

وحسب رواد الجمهورية الثالثة فإن عدم إتمام احتلال الجزائر منذ أربعين سنة، ناتج عن سياسة استعمارية فاشلة، انشغلت فيها فرنسا بمحاربة المقاومات المسلحة والعصيان الشعبي، عوض العمل على قتل روح هذه المقاومات باستعمال وسائل مادية ومعنوية، وتوجيه الشعب الجزائري لخدمة أغراض الاستعمار وإخماد الروح الوطنية فيه.

وقد تمثل المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، واستمر حتى القرن العشرين، من أجل اجتثاث جذور الشعب الجزائري، في عدة مظاهر نذكر منها على الخصوص ما يلي:

سياسة الاستيطان في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة

بعد هزيمة فرنسا في معركتي "سيدان" (Sedan) و"ميتز" (Metz)، استسلم الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث مع حوالي مائة ألف جندي فرنسي إلى البروسيين (الألمان) وقائد هم " بيسمارك"، عندئذ حدث انقلاب في باريس ألغي على إثره نظام الإمبراطورية الثانية وتم الإعلان عن قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة ذات الميول اليسارية في شهر سبتمبر 1870م، فاستقبل أوروبيو الجزائر ذلك بحماس شديد تحول إلى هيجان واضطراب ضد السلطة المحلية، وضد الجزائريين الذين تعرضوا لتهديداتهم.

ذلك أن الإعلان عن قيام نظام جمهوري، يعتبر انتصارا لهم لأن هذا النظام قد خلصهم من مشروع نابليون الثالث المتمثل في إنشاء ما يعرف بـ-"المملكة العربية" كما خلصهم أيضا من السلطة العسكرية ونفوذها القوي، الذي كان أكبر عقبة أمام أهدافهم وطموحاتهم، رغم ما وصلوا إليه من سطوة ونفوذ،

وقد بالغوا في فرحتهم لدرجة أنهم فكروا في الانفصال عن وطنهم الأم فرنسا والاستقلال بالجزائر، ولو بمساعدة أمريكا أو بريطانيا في صورة ما إذا عجزت فرنسا في التصدي للغزو البروسي المتوقع. فقد قاموا فعلا بحركة تمرد في الجزائر ووهران وقسنطينة ولكنهم فشلوا في النهاية، خاصة بعد أن داهمتهم ثورات الثوار الأهالي في مطلع عام 1871م بزعامة عائلتي المقراني والحداد، وكذلك ثورات الصبايحية بالحدود الشرقية وثورة أولاد خليفة بالشريعة وتبسة، وأولاد عيدون في الميلية، وبني مناصر في ححوط ومليانة وشرشال، وغيرهم في مناطق عديدة من البلاد.

وبسبب ضغوطات وتشويشات مستوطني الجزائر أصدرت حكومة الدفاع الوطني في "تور" (Tours)، قرارات يوم 24 أكتوبر 1870م، والتي تنص على تطبيق الأمور الثلاثة التالية بالجزائر وهي:

أولا: إلغاء النظام العسكري، والمكاتب العربية وامتيازات رؤساء الأهالي.

ثانيا: إنشاء محاكم الجنايات وإخضاع الجزائريين إليها.

ثالثا: تجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية وإجبارية وذلك حسب قرار الوزير اليهودي، "كريميو" [1](Cremieux).

ثم تبع هذه القرارات، إصدار مرسوم يوم 19 مارس 1871م، ومن أهم ما جاء فيه:

1- تقسيم الجزائر إلى إقليمين شمالي مدني وجنوبي عسكري.

2- يحكم الإقليمين حاكم عام مدني واسع السلطات سيخضع رأسا لوزير الداخلية.

3- يتم انتخاب مجالس بلدية وولائية وفق ما يجري في فرنسا.

4- يحق للمستوطنين الأوروبيين انتخاب تسعة نواب في المجلس الوطني وثلاثة في مجلس الشيوخ.

5- يتم إنشاء مجالس استشارية للنظر في شؤونهم.

لقد كان سن القوانين الجائرة، والتشريعات الماكرة تجري مع عمليات التوسع الاستعماري في البلاد لاحتلال ما بقي من الأراضي الجزائرية الحرة، وهذا من أجل اغتصاب كامل الوطن من أهله الأصليين، وسلكت فرنسا في سبيل ذلك سياسة تستهدف إلى جعل الجزائر جوهرة مستعمراتها فيما وراء البحار، نظرا لقربها من فرنسا "الوطن الأم" من جهة ولثرواتها الهائلة من جهة أخرى.

وهكذا بدأت السلطة الاستعمارية تقوم بلعبة التشريع وتمطيط القوانين وتحويرها ليتسنى لها المزيد من نهب الأراضي والأملاك وتسليمها إلى المستوطنين الجدد والذين عرف عددهم طفرة هائلة في عهد الجمهورية الثالثة، ومن ثم تحويل الجزائر تدريجيا إلى مقاطعة فرنسية، وتصبح كأنها امتداد لفرنسا في القارة الإفريقية.

وقد دفعت الجمهورية الفرنسية الثالثة هذه السياسة إلى الأمام. فأعادت تمثيل المستوطنين في مجلس النواب، وأقامت لهم مجالس إقليمية، ومجلسا استشاريا عاما في الجزائر ليكون الأداة التي تعبر عن مصالحهم الخاصة، أمام حكومة باريس [2]، أما السكان الأصليين (الجزائريون) فلم يكن لوجودهم أي اعتبار بل ربما فكر الفرنسيون فيما هو أبعد من سيطرة العنصر الفرنسي إداريا واجتماعيا

وثقافيا، وهو تحقيق الأغلبية العددية لعنصرهم بسلب السكان الأصليين جميع موارد الرزق. ويضطرونهم إما إلى الهجرة خارج الوطن، أو النزوح إلى الجبال الوعرة أو إلى الصحراء القاحلة.

ومما زاد في تفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين هو تشييد صرح نظام سياسي جديد صارت فيه السيادة للمستوطنين، قابضين فيه على زمام الحكم بيد من حديد، فاستأثروا بجميع الحقوق واستولوا على كل الخيرات، واشتغلوا في جميع الوظائف العمومية والمهن الحرة، واحتكروا كل ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ورؤوس الأموال وغيرها. وقد سنت الإدارة الفرنسية عدة قوانين جائرة وحاقدة نذكر منها قانون "وارنييه" (Warnier) الصادر عام 1873م والهادف إلى القضاء على الملكية الجماعية للقبائل والأعراش[3].

ورغم ذلك فقد خطط النواب والإدارة الاستعمارية مشروع إنشاء ثلاثمائة قرية استيطانية جديدة في الجزائر خلال ثلاث سنوات، ابتداء من سنة 1881م، نصفها (هي 150 قرية) ستبنى على مساحة ثلاثمائة ألف هكتار، تعتزم السلطات الاستعمارية أن تفتكها من أيدي الأهالي، لذلك طلبت الإدارة الفرنسية في الجزائر، اعتماد خمسين مليون فرنك لتشييد هذا المشروع [4].

وفي هذه الفترة بدأت السلطات الاستعمارية تعمل على توسيع المناطق المدنية، وتبنى القرى الاستيطانية تحت رقابة الحاكم العام السيد "ألبير قريفي" (Albert Grevy) وهو أول حاكم مدني صرف في الجزائر (1879-1881م)

وهو من الحزب الجمهوري، لذلك عمل على تقليص صلاحيات الإدارة العسكرية التي اختصر حكمها إلا على المناطق النائية والجنوبية.

وبعدما عرفت الجزائر عامة والمنطقة الوهرانية خاصة بعض الهدوء واستتباب الأمن، قررت المصالح الاستعمارية في الجزائر تعميرها، لتجعلها مقاطعة أوروبية، وبدأت كالعادة في سن القوانين العقارية، فجاء قانون 18 أفريل 1887م الذي هو أشد عنفا على الجزائريين وأكثر خبثا ومكرا في تحويل الأراضي من أيدي الجزائر إلى الأوروبيين، لهذا دعم هذا القانون ونشط التعمير الرسمي الذي اعتزمت السلطات الاستعمارية إنجازه في هذه الجهة من البلاد، غير أنه لم يف بالغرض المطلوب بعد عشر سنوات من تطبيقه فغيرته بقانون جديد يوم 16 فيفري 1897م [5] لتدفع بهذه العملية إلى الأمام.

هذا وتبع هذه العمليات سياسة الإدماج التي بلغت أوجها منذ أن صدر مرسوم إلحاق الجزائر إداريا بفرنسا سنة 1881م ، وظل معمولا به حتى سنة 1896م، وبمقتضاه أصبحت كل شؤون الجزائر من اختصاص الوزارات بباريس ومصلحة الضرائب لوزارة المالية هناك، وهكذا أصبحت كل إدارة في الجزائر تتبع للوزارة المختصة بباريس، وبذلك فقد الحاكم العام للجزائر كثيرا من سلطته إبتداءا من" تيرمان" (Tirman) الذي حكم الجزائر من 1881 إلى 1891م فتدعمت سلطة المستوطنين وأصبحوا أسياد البلاد الحقيقيين وبدون منازع.

وقد غضت السلطات الفرنسية النظر عما يرتكب من ظلم وعجرفة ومآسي وفضائح من طرف المستوطنين، ولم تلعب الحكومة الفرنسية دورها الطبيعي

كحكم معدل ما بين أطماع المعمرين المتزايدة ومصالح الأهالي، حتى تحرك ضمير البرلمان الفرنسي خلال سنوات 1890و 1892 فقرر فجأة أن يهتم بالسياسة المطبقة على الأهالي في الجزائر. (6)

قام البرلمان الفرنسي بإرسال عدة بعثات إلى الجزائر لتقصي الحقائق، والنظر في أحوال الأهالي، والتفكير في مصيرهم ضمن جشع المستوطنين، ودراسة إمكانية استقلال الجزائر عن فرنسا اقتصاديا وحتى سياسيا. ولذلك تألفت لجنة برلمانية للتحقيق من ثماني عشرة عضوا برئاسة؛ " جول فيري "(Jules Ferry) أحد رواد الاستعمار الفرنسي، وقد زارت هذه اللجنة الجزائر لمدة ثلاثة وخمسين يوما تفقدت خلالها مائة واثنين من المراكز المختلفة للأوروبيين والمسلمين، وقدم "جول فيري" تقريرا تحت عنوان ؛ «حكومة الجزائر»، أكد فيه فضائح المعمرين واستنكر فيه أيضا سياسة الإدماج الإداري، وتطبيق قانون الأهالي الذي تذمر منه السكان (7).

لهذا عين، "جول فيري" حاكما عاما جديدا للجزائر وهو السيد " كامبون" (Cambon) من (1891 – 1897) مكان؛ "تيرمان" وقد أوكل له رئيس الجمهورية الفرنسية " كارنو" (Carnot) مهمة مزدوجة: ؛ "عليك أولا أن تبرهن للأهالي على اهتمام فرنسا بهم، وتذكرهم بأننا نحبهم ثم بعد ذلك عليك استرجاع استقلال إدارتنا"، ثم زوده بسلطات قوية وواسعة ليطبق سياسة معتدلة ويحد من أطماع المعمرين الأوروبيين الذين حاولوا عرقلة كل الإصلاحات الجديدة لفائدة الأهالي، كما أنب " جول فيري " عقلية المستوطنين في الجزائر، والذين لم يعترفوا بأي حق سوى حقوقهم في بلاد

عربية، ثم قدم النائب " شارل جونار " (Ch. jonnart) تقريرا سنة 1892م أشار فيه إلى إعادة النظر في النظام القائم في الجزائر ، وطالب بإعطاء بعض الحقـوق للمواطنين الجزائريين كما اقترح تكوين مكتب لمصالح الجزائـر بـباريس: " لإعطاء سياسة الجزائر دفعة مطابقة لوجهة نظر وشروط السياسة الوطنية " (8).

ولكن وفاة " جول فيري " في 17 مارس 1893م، قد عطل برنامج وأعمال اللجنة البرلمانية، وبذلك تصاعد نفوذ المستوطنين واستفحل خطرهم وأصـبحوا ينادون بتغيير الوالي العام "جول كامبون" وإعطاء الجزائر الاسـتقلال الإداري. وإنشاء مجلس الوفود المالية، وإنشاء ميزانية مستقلة للجزائر منفصلة عن الميزانية الفرنسية، بحيث تخصص إيرادات الجزائر للصرف عليها.

تأثيرات تعليمية وتربوية

أسهمت الجزائر بفعالية في تشييد الحضارة العربية الإسلامية منذ نـشأتها - مثل باقي الأقطار الإسلامية الأخرى- وكان لها النصيب الوافر في ذلك حسب الدلائل والقرائن التاريخية المتوفرة لدينا، والتي لا تحتاج لبرهان.

ولاشك أن السياسة التعليمية الاستعمارية في الجزائر تهدف وتعمل علـى توقيف هذا المد الحضاري عن طريقة المدرسة الاستعمارية التي تـستهدف إلى تحطيم الروح المعنوية للجزائريين، بغزوهم فكريا وثقافيا.

ذلك أن التعليم كان ولا يزال الأساس الحقيقي لأي تقدم أو تطور في حياة الشعوب والأمم، غير أن التعليم الفرنسي في الجزائر لم يكن يرمي إلى ازدهـار الإنسان الجزائري.

إننا نعلم أن الإدارة الفرنسية قد فتحت عددا من المدارس، إلا أنه لم يتحقق أي تقدم من ذلك، بل لم يتحقق حتى الهدف المنشود من وراء التعليم ألا وهو القضاء على الأمية. وفي نفس الوقت عملت فرنسا منذ الغزو على محاربة الثقافة العربية، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ قرون خلت، كذلك أغلقت نحو ألف مدرسة ابتدائية وثانوية والعالية كانت موجودة في الجزائر قبل الاحتلال. وقد حمل أحدهم فرنسا مسؤولية تأخر الجزائر في القرن العشرين، إذ يقول: «لقد أشاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية والأدبية، اضطرابا شديدا، فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين. ولقد كان يقدر عدد الطلاب قبل 1830م بمائة وخمسين ألف طالب أو يزيدون ؛ ومهما يكن من شيء فلم ينجح من المدارس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة وحرمت أجيال عديدة من التعليم». وهذا يعني أن فرنسا تسعى في خدمة خطتها الاستعمارية استكمال غزوها العسكري بغزو ثقافي.

وروجت الدوائر الاستعمارية في أوساط الأجيال الصاعدة أن الجزائر قد بلغت في القرون الماضية أسفل درجات الجهالة والهمجية إذا لم يكن بالبلد أي تعليم منظم ولا حياة فكرية فلا عالم بينهم ولا كاتب أديب ولا شاعر. فالأمة الجزائرية مؤلفة كلها من أميين يجهلون القراءة والكتابة، وقالوا أن اللغة العربية قد ماتت منذ زمن بعيد ودفنت مع اللغات الميتة الأخرى، وهذا من أجل تبرير سياستها التعليمية ودعم مطامعها الاستبدادية موهمة الرأي العام أن من واجب الأمم الراقية أن تنقذ سكان الجزائر المساكين من آفة جهل شامل وتأخر فاحش عن ركب الأمم المتمدنة وذلك باسم الحق والإنسانية.

غير أن الحقيقة التاريخية لا توافق ذلك في شيء والواقع يدحض تلك الأباطيل فما استولى الجهل على الجزائر في القرون السالفة وانقطعت بالجزائر مسيرة التعليم وما أن عدمت المدارس ولا قلت العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها في جميع العصور الإسلامية ومنها القرن التاسع عشر، فلم تزل وقتئذ المساجد في المدن حافلة بالأساتذة والتلاميذ و لم تزل الزوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة وكلهم يبذلون جهودهم في الإلمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير. وحتى التعليم العالي، لم يكن مهملا، في عهد الجزائر العثمانية فقد كان له نظام خاص يتكفل به مجلس بعاصمة الجزائر مؤلف من المفتيين المالكي والحنفي ومن القاضيين المالكي والحنفي، وكان ذلك المجلس يعين ناظرا يقوم على التدريس ويقدم للداي بالجزائر وللباي بقسنطينة وبوهران العلماء المترشحين لكراسي التدريس [9]، فقد كان ذلك الناظر بمنزلة مدير التعليم العالي، كما كان المجلس يقوم مقام المجلس الأعلى للجامعات العصرية.

وفي السنوات الأولى من الاحتلال استمر التعليم بالمساجد والمدارسوالزوايا مزدهرا وعلى نفقات ريع الأوقاف، وإيرادات المحبسين، فنجد مثلا أن الأساتذة بالمسجد الكبير بالعاصمة كثر منهم الشيخ المفتي محمد بن الشاهد) مفتي المالكية، توفي 1792م (و الشيخ العربي الإمام المفتي بالمسجد الكبير والشيخ محمدبن الكاهية والشيخ مصطفى بن الكبابطي والقاضي واعزيز والشيخ علي بن محمد المنجلاتي، مفتي المالكية سنة 1823م ومحمد بن إبراهيم بن موسى، مفتي المالكية سنة 1824م، والشيخ بن الأمين والحاج حمودة الجزائري وغيرهم.

و إذا انتقلنا إلى عاصمة الشرق قسنطينة وجدنا بها في ذلك العهد علماء أجلا قائمين بدروس مختلفة في العلوم العربية نخص بالذكر منهم الشيخ محمد بن علي الطلحي الذي كان مجلس درسه عامرا بمسجد سيدي مسلم الحراري والشيخ عامر بن شريط وعمار العربي الذي كان يدرس بمسجد القصبة والشيخ محمد المبارك خطيب المسجد الكبير ومفتي المالكية.

أما الجهات الغربية، فكانت تلمسان مقر العلوم يتوارثها الأبناء عن الأباء في بيوتات شهيرة مثل عائلة شعيب وعائلة المجاوي، إلى أن أفل نجمها فهجرها العلم والعلماء إلى وهران ومازونة وغيرها.

وهكذا كان العلماء الجزائريون في السنين الأخيرة من عهد الجزائر العثمانية وأوائل الاستيلاء الفرنسي قائمين بواجبهم نحو اللغة العربية والأمة يخدمون العلوم في مساجد العواصم وكذلك في المدارس التي بناها محبو العلم وأنصاره من الولاة وذوي البر والإحسان.

فكانت بعاصمة الجزائر عدد ليس بالقليل من المدارس مثل مدرسة سيدي أيوب بالقرب من الجامع الجديد ومدرسة حسن باشا في جوار جامع كاتشاوة فضلا عن الزوايا العديدة. ومن المدارس التي اشتهرت في القرن الماضي بحاضرة قسنطينة المدرسة الكتانية ومدرسة سيدي الأخضر ونظيرتها بالناحية الوهرانية، كمدرسة مازونة التي نالت شهرة طائرة الذكر منذ تأسيسها في القرن الحادي عشر للهجرة، و لم يكن التعليم وقتئذ مقتصراً على مساجد المدن ومدارسهاو زواياها و لم يكن العلم منحصراً في عواصم البلد بل كانت القرى تشارك في الحياة الثقافية وتأخذ نصيبها منها وذلك بواسطة بعض الزوايا المنتشرة في جميع

النواحي شرقا وغربا في الشمال وبالجنوب في السهول وبالجبال، حيث لا يسعنا المجال لإحصائها، وكان مستوى التعليم بهذه الزوايا على العموم جيد، وكـــان العلماء بالمغرب الأقصى وبتونس يقدرون شهادات الطالب الجزائري حق قدرها ويعترفون له بقيمة دراساته بتلك المؤسسات، فإذا قال ذلك الطالب بأنه تخرج من مدرسة مازونية أو زاوية شلاطة أو زاوية الهامل، أو زاوية ابن أبي داود أو غيرها من المعاهد الجزائر قدرت دراسته واعتبرت إجازته وإلحق بالأقسام العليا للتخصص بجامع القرويين بفاس أو جامع الزيتونة المعمور بتونس.

تلك هي الوضعية التعليمية ولغتها العربية قبل الاحتلال، وهكذا كان حال شعبنا من الناحية العلمية والثقافية، مساجد عامرة بالأساتذة والتلاميذ ومدارس زاهرة وزوايا حافلة بالطلبة، وذلك بـــشهادة الأعـــداء. وحـــسب المقـــالات والدراسات والتقارير الصادرة عن مصلحة الاستخبارات العـــسكرية وعلـــى رأسهم إسماعيل أوربان، حيث يقول:« أن عدد العرب الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة في سنة 1937/1836 يفوق ما يوجد في الجيش الفرنسي المحتل إذ عدد الأميين في الجيش الفرنسي المشار إليه كان يبلغ 45% وعليه كان عدد الأميين عند الجزائريين يقل عن تلك النسبة ».

موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجزائريين

ازدادت وحشية السياسة الاستعمارية في الجزائر بتدمير المحتويات الشخصية والحضارية للأمة الجزائرية، وذلك بالسيطرة على عقول وفكر الأهالي بتجهيلهم أو عن طريق توجيههم لخدمة أغراض استعمارية. ولذلك لجأت إلى المدرســـة

كوسيلة فعالة لتحطيم مقومات الشخصية الجزائرية بترسيخ فكرة الفرنسة ونشر الثقافة الفرنسية ومحاولة تنصير بعض الجزائريين.

من النتائج المباشرة للاحتلال الفرنسي للجزائر، انخفاض مستوى الدخل والمعيشة للغالبية العظمى من السكان بحيث أن أعدادا ضخمة منهم حرمت من التمتع بالخدمات العامة كالصحة والتعليم والتي كانت تتوفر للوافدين المستوطنين بشكل لم يكن يتوفر لسكان فرنسا نفسها، والواقع أن كل اهتمام الإدارة كان يقتصر على توفير الخدمات للفرنسيين المستوطنين حتى ولو أدى الأمر إلى إهمال التعليم الوطني للجزائريين دافعي الضرائب.

ورغم اهتمام نابليون الثالث بتعليم الأهالي لتسهيل استقطابهم إلا أنه مما يؤسف له أن الإدارة الاستعمارية قد أهملت التعليم الوطني خاصة بعد ثورات 1871م، وانتشار المشاعر المعادية للجزائريين بين المستوطنين حتى لم تزد مخصصات التعليم العربي في سنة 1897م عن 33. 000 فرنك ووصلت بعد اثني عشر سنة 49. 000 فرنك فقط(10).

و يجدر بنا أن نذكر أن تدهور التعليم الجزائري كان لا يرجع إلى قلة الاعتمادات فقط بل كان يرجع أيضا إلى مقاومة المستوطنين وأعضاء المجالس المحلية لفكرة تعليم الأهالي، ففي سنة 1871م قامت البلديات الكاملة الصلاحيات بغلق المدارس الفرنسية – العربية وعوضتها بالمدارس البلدية، وذلك إثر تظاهر الجمهوريين بحقد وسخط تجاه سياسة تعليم الأهالي، خاصة في المدن، إذ في نفس السنة (1871) تم إلغاء الثانوية العربية – الفرنسية في كل من الجزائر العاصمة وقسنطينة(11).

كما ضيقت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على التعليم العربي – الفرنسي، ففي 12 فيفري 1873م أقترح على الوالي العام بالجزائر على تكثيف التعليم الفرنسي في منطقة الزواوة(القبائل)بإلغاء المدارس العربية – الفرنسية والزوايا، وتأسيس مكانها مدارس بلدية فرنسية فكل من تادمايت وجمعة سهاريج. كما قام الكردينال "لافيجيري " بتأسيس مدارس خاصة تنصيرية (تبشيرية)، وذلك بفتح مدرسة بـ جمعة سهاريج وأخرى ببني يني سنة 1873م. كذلك فتح مدرسة واغزن بـ"ميشلي"(عين الحمام)، وقد قدمت الحكومة الفرنسية قرضا لهذه المدارس التنصيرية (التبشيرية) سنة 1875م قدر بـ عشرين ألف فرنك – وهو مبلغ مهم في ذلك الوقت–، ولعبت هذه المدارس التبشيرية المسيحية دورا فعالا في نشر التعليم المسيحي الفرنسي في المنطقة [12].

كذلك حينما أنشأت فرنسا المدارس لقلة من الجزائريين لم تكن تهدف إلى منحهم ثقافة حقيقية تبصرهم بأحوال وطنهم ولغتهم وتاريخهم وحضارتهم، بل كان الهدف هو إنشاء أجيال من الجزائريين يخدمون الاستعمار الفرنسي لا بأبدانهم فحسب، بل يخدمونه أيضا بعقولهم وأرواحهم وبذلك يسهل استيعابهم في المجتمع الأوروبي، وجعل منهم كذلك بعض الموظفين في المناصب الدنيا في الإدارات المحلية وبعض المعلمين وغيرهم.

ولم يقتصر عداء الإدارة الاستعمارية وعداء غلاة الاستعمار على توفير فرص التعليم للأهالي فحسب بل نجحوا منذ 1880م في منع تعليم اللغة العربية في المدارس القليلة التي كانت موجودة، بحجة اختلاف لغة الحديث عن لغة

الكتابة، حتى قال أحد الجزائريين المتفرنسين:" إن تعلم اللغة العربية أصعب من تعلم اللغة الفرنسية حتى بالنسبة للجزائريين ...".

كذلك ضغط الكولون على الإدارة منذ 1891م لكي تقضي على بقايا المدارس الوطنية القديمة التي كانت موجودة في الزوايا أو على الأقل إخضاعها لرقابة إدارية صارمة بحجة أن التخلي عن مراقبة هيئات التدريس يعني تهديدا لمستقبل الجزائر، والواقع أن المستوطنين كانوا يؤمنون باستمرار بأن الجزائري المتعلم يتمسك بأن من حقه أن يعيش بكرامة مثل المستوطنين أنفسهم كما أنه سيجهر برأيه هذا أمام مواطنيه ولهذا كله طالب أكثر من مستوطن وكاتب ومجلس بعدم إنشاء مدارس للأهالي حتى لا يثير المتاعب للمستوطنين.

ومع مرور الوقت كان المستوطنون يزيدون من ضغطهم على الإدارة ويزيدون من معارضتهم لتعليم الأهالي حتى أعلنوا أمام اللجنة البرلمانية بقيادة "جول فيري" سنة 1892م، ولجنة شارل جونار المكلفة بهذا الشأن:" إن تنظيم التعليم الوطني غير مفيد...".

وعلى عكس من ذلك نجد أن بعض غلاة الاستعمار يتحمسون لفكرة نشر المدارس الابتدائية الفرنسية في كل مكان من الجزائر، بل انهم نادوا بتعليم الأهالي اللغة الفرنسية بدلا من اللغة العربية باعتبار اللغة الفرنسية " أداة لغزو النفوس والقلوب" ولذلك طالب هؤلاء الغلاة باجتذاب الجزائريين إلى المدارس الفرنسية عن طرق طريق منحهم بعض المزايا حتى يمكن تكوين طبقة معتدلة من الزعماء الوطنيين الذين يعملون على تدعيم النفوذ الفرنسي في الجزائر.

وقد يفهم من ذلك أن الأهالي كانوا هم الذين يعارضون في الذهاب إلى المدارس الفرنسية، وهو أمر تكذبه الوثائق وكذلك تكذبه بعض الدراسات المتزهة إذ تعترف بعضها بأن " تعليم الأهالي لا يوجد إلا على الورق ولا يتعلم من الأهالي في المدارس القليلة إلا أقلية لا تذكر".

وفعلا نجد أنه في العام الدراسي 1886/1885 لم تتوفر فرص التعليم إلا لحوالي خمسة آلاف طفل جزائري من بين حوالي خمسمائة ألف طفل كانوا في سن التعليم[13].

ويحاول الفرنسيون أن يعتذروا عن ذلك التقصير في مجال تعليم الجزائريين، ففي تقرير نشر سنة 1955م، يعترف فيه المسؤولون الفرنسيون باستحالة توفير التعليم لمائتي ألف طفل جزائري كل سنة، هذا في الوقت الذي كان مائة بالمائة من أبناء المستوطنين يجدون أماكن لهم في المدارس، وعلى أي حال فإن الأوضاع البشرية ليست إلا عذرا وهميا خاصة وأن كل اهتمام المستوطنين واللجان المالية كان ينصب باستمرار على توفير التعليم للأطفال الأوروبيين.

النظام القضائي والمسائل الدينية

لقد كان للجزائر قبل الاحتلال نظام قضائي خاص يستند إلى الشريعة الإسلامية، وهو ما يعرف بالقضاء الإسلامي، حيث تعالج في المحاكم القضائية الإسلامية القضايا المدنية والاقتصادية والشخصية، وترفع الشكاوي أمام قاضي إسلامي من المذهب المالكي أو الحنفي.

وبعد الاحتلال حطمت السلطات الاستعمارية القضاء الإسلامي تدريجيا، وأخضعت الأهالي بالقوة للقضاء الفرنسي حتى تبعد الجزائريين عن شريعتهم

السمحة والتعامل بقوانين "نابليون بونابرت" التي لا تراعي حرمة الدين الإسلامي. ومن هنا جاء مرسوم 26 أفريل 1896 الخاصة بغلق أو فتح الزوايا ومراقبة الشؤون الدينية الإسلامية (14). وجاء في قرار الحاكم العام ضرورة مراقبة الشؤون الدينية الإسلامية بدقة، وحماية كل من يساهم في خدمة الاستعمار. ومراقبة كل من يظهر عداوته للسيطرة الاستعمارية، وذلك بمراقبة اتجاهات وحركات وأعمال الشخصيات الدينية، وهكذا بدون بتطبيق الاضطهاد، تستطيع فرنسا القضاء على التفكير الديني لهذه الطائفة.

ولذلك قرر الحاكم العام تكليف رؤساء البلديات والإداريين بالتعرف على كل الأمور التي تخص الشخصيات الدينية والمرابطين، ورجال الطرائق الصوفية في الجزائر. كما أقرت الأمرية أن يكون الحاكم العام المقرر الوحيد في الشؤون الدينية الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بغلق أو فتح الزوايا، وهذا بعد تقديم كل المعلومات الخاصة التي تخص مسيّرة الزاوية.

وقد واكب هذه القوانين الجائرة تجديد ما يعرف بـ" كود دانديجينا"، أو قانون 21 ديسمبر 1897 – قانون الأهالي (15): الذي جاء فيه ما يلي:

يحتفظ الإداريون في البلديات المختلطة بالمناطق المدنية بالسلطات التأديبية لمدة سبع سنوات ابتداء من تاريخ الإعلان هذا القانون، لمعاقبة الأهالي المسلمين غير المجنسين على المخالفات الخاصة بقانون الأهالي.

وتتمثل هذه المخالفات في المخالفات البسيطة، ويمكن تعويض السجن بأداء عيني على المحكوم عليه، فمثلا يقوم بأعمال الصيانة، وإصلاح طرق المواصلات،

وتنظيف العيون، والآبار، ويمثل كل يوم عمل يوم سجن، كما يمكن للإداري استبدال الغرامة بالسجن، وتقليص أو إلغاء العقوبة إذا كان هناك استئناف.

وبقرار من الحاكم العام يمكن تخفيف أو إلغاء المخالفات الواردة في هذا القانون.

وتتمثل هذه المخالفات في 26 مخالفة، وهي:

1- أقوال ضد فرنسا وحكومتها.

2- رفض القيام بالحراسة والمراقبة.

3- عدم التسديد الفوري لثمن التعريفات المرسومة من الوالي لأعوان وسائل النقل.

4- عدم احترام القرارات الخاصة بقوانين الملكية، الإهمال أو التأخر في الإعلان عن الحالة المدنية، وعدم مراعاة التعليمات الواردة في قانون 23 مارس 1882. (القاضي بتأسيس قانون الحالة المدنية للأهالي المسلمين في الجزائر).

5- عدم احترام القرارات الإدارية الخاصة بإسناد الأراضي الجماعية الزراعية بعد استشارة رأي "الجمعة".

6- التأخر عن دفع الضرائب، أو عن دفع فرق الأنصبة في استرجاع المحجوزات، والمغارم، أو كل ما يتعلق بأموال الدولة أو البلدية، أو عدم القيام بالأداء العيني.

7- عدم الامتثال لاستدعاء مفتش أو مقسط الضرائب المباشرة ومحصل الضرائب المختلفة بمناسبة تحصيل الضرائب.

8- إخفاء المواد الخاضعة للضريبة والتواطؤ في إخراج الحيوانات أثناء عمليات الإحصاء.

9- حجز الحيوانات الضائعة من 24 ساعة.

10- تقديم حق اللجوء لأي أجنبي لا يحمل رخصة التجول.

11- عدم القيام بتسجيل الأسلحة النارية في أجل خمسة عشر يوما بعد ملكيتها الرسمية، إما عن طريق الوراثة أو الامتلاك القانوني.

12- سكن معزول بدون رخصة من الإدارة خارج الدشرة أو الدوار والإقامة في المناطق الممنوعة.

13- عدم امتلاك جواز أو رخصة السفر، أو بطاقة الأمن أو دفتر العامل بطريقة قانونية، عند التنقل من دوار إلى آخر. وتستعمل نفس رخصة الذهاب لمدة سنة. وتسحب من صاحبها إذا استعملها لأغراض أخرى.

14- التهاون في توسيم رخصة السفر في البلديات التي يقيم فيها الأهلي أكثر من 24 ساعة، وتوسيم بيان الرحلة، في المقاطعة الأخرى غير مقاطعة إقامته.

15- عدم حمل الأهلي الراعي لحيوانات الركوب، أوالحليب، أو لقطيع كبير موجه إلى سوق البلدية، لرخصة من طرف المساعد الأهلي لفرع البلدية، الذي يخبر الإداري برقم ووصف الحيوانات واسم المالك.

16- القيام بالأعمال التخريبية في الأسواق والأماكن العامة.

17- رفض أو إهمال الأداء، أو تقديم المعونة والمساعدة أثناء الحريق، أو الحوادث، أو أي كارثة، أو أثناء العصيان، أو اللصوصية، أو النهب، أو الصياح العام.

18- التجمعات بدون رخصة في الزردة أو الزيارة، أو اجتماع لأكثر من 25 شخصا بدون رخصة، أو إطلاق عيار ناري أثناء حفل الزواج أو زيادة أو ختان.

19- فتح مؤسسة تعليمية أو دينية بدون رخصة.

20- رفض المثول بعد إنذار مكتوب أمام ضابط الشرطة القضائية.

21- إهمال أو رفض إرسال الطفل البالغ سن الدراسة إلى مدرسة، عندما تكون على بعد ثلاثة كلم من المنزل وبدون مبرر.

22- مخالفة القانون أو النظام أو عدم تنفيذ الأوامر المقدمة من طرف السلطة الإدارية المختصة.

23- مخالفة نظام المياه واستعمال العيون والآبار والينابيع والأودية وقنوات الري، بغض النظر عن المغارم وسائر التعويضات المفروضة على مخالفة نظام المياه.

24- قطع شجرة أو عدة أشجار ذات منفة دون رخصة من الإدارة.

25- رفض تقديم المعلومات، أو تقديم معلومة خاطئة لمأمور السلطة الإدارية أو القضائية أثناء القيام بوظيفتهما.

26- كسر أو تدمير أو إتلاف أو نزع أو نقل نصب، أو كتلة حجر، أو شاهد، أو رموز الحدود، أو العلامات التي وضعت من طرف المأمورين.

الاستنتاج

لاشك أن المشروع الصليبي للاحتلال الفرنسي في الجزائر قد فشل، رغم جوانبه الثقافية المتعددة، حيث كانت الجزائر قبل دخول سرطان الاستعمار الفرنسي مزدهرة ثقافيا وعلميا وكانت لغة الضاد جيدة لأنها لغة حاملة عقيدة وحافظة دين وجامعة أمجاد ورائد مقاومة "دخلت الجزائر تحت راية الفاتحين تغرس ودا وتنشر هداية، وتربط بين القلوب المتنافرة وتولف بين الأذواق المتناقضة لتجمع على صعيد التوحيد شتاتها وتمنح الخصب والنماء".

استمرت اللغة العربية على تلك الحال رغم فقدان البلاد لاستقلالها وما يتبعه عادة من ضغط وزجر ومنع، فصان العلماء الجزائريون الكرام جيلا بعد جيل لغتهم العربية وثقافتهم الإسلامية صيانة الأمانة والعلم أمانة الأنبياء والعلماء ورثة الأنبياء محافظين على ذلك التراث النفيس العزيز وعلى ما يستوعبه من قيم رفيعة ومعان روحية سامية.

ومرت السنون وأنصار اللغة العربية يدافعون عنها بكل قواهم، إذ السلطات الفرنسية كانت لها دائما بالمرصاد لنشر لغتها ليصبح المرء مستعبدا من طرفها خادما لها ولأهلها، وخاصة حينما تتحول إلى أداة "ايديولوجيا" ذات أهداف سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية، وهذا ماعبر عنه الفيلسوف

الألماني "فيخته" بقوله:" إن العبد يأخذ لغة سيده" وهذا القـــول لا يحتـــاج إلى تعليق.

وهكذا تعمل الدوائر الاستعمارية على اغتنام كل فرصة سانحة لتقطع أمام الناطقين بالضاد سبل الارتقاء وتوصد أبواب الحياة حتى لا يحـــل الجزائريـــون محلهم في المجتمع ولا يقومون بالدور الذي كان لهم الحق في القيام به.

إذن رغم موقف الإدارة الفرنسية من حرمان الشعب الجزائري من مشروع ثقافي يخدم ويطور المقومات شخصية الفرد الجزائري من نشر تعليم اللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ الوطني، فإن الثقافة العربية الإسلامية قد انتصرت في الجزائر على أقسى غزاة حاقدين وأخبث مستعمرين نـــاقمين، فاســـتعادت حيويتها ونشاطها واسترجعت جاذبيتها بعد مرور المرض بأطوار فخرجت من صقيع الموت إلى دفء الحياة.

الهوامش:

(1) اسمه اسحاق موسى كريميو، ويدعى أدلف يهودي الأصـــل، رجل سياسي فرنسي، ولد في نيم 1796 وتـــوفي في بـــاريس 1880م محامي ثم نائب في المعارضة 1842 م وأصبح وزير العدل في الحكومة المؤقتة بعد ثورة فيفري 1848م ، انتخب في المجلس التأسيسي في أفريل 1848م. أيد مع اليسار ترشيح لـــويس -- نابليون بونابرت للرئاسة، كما أعيـــد انتخابـــه في المجلـــس التشريعي ماي 1849، عارض سياسة الأمير- الرئيس فسجن بعد انقلاب 2 ديسمبر 1851م. ثم أصبح نائب أقصى اليـــسار 1869 وعين وزير العدل في حكومة الدفاع الوطني بعد سقوط الأمبراطورية الثانية، ومباشرة اصدر قراراته باعطـــاء المواطنـــة الفرنسية ليهود الجزائر سنة 1870 انظر قاموس: petit Robert 2, .5 édition, Paris, 1981, p 478

(2) E. Rouard de Card , la représentation des indigénes musulmens dans les conseilles de l'Algérie, Paris ,1900,pp. 11-12 .

(3) Rapport par M. Warnier, membre de l'assemblée nationale ,n° 1770 séance du 4 avril 1873 .

(4) Ch. R. Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, TomeII, 1871-1954,Paris,P. U. F. ,1979,pp. 82-83 .

(5) V. DANGLES. La colonisation en Oranaise, in B. S. G et d Archeo ,Oran,Tome XXIV,1904,p. 310 .

(6) Ageron, histoire, Tome II. p. 39 .

(7) Ibid, p. 46 .

(8) Ibid, p. 47 .

(9) ,M. EMERIT L' ETAT Intellectuel et moral en Algerie en 1830, in Revue international de l enseignement, Juillet-Septembre ,1955 .

(10) Bordier , Colonisation scientifique, p. 190 .

(11) CH. R. Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine,T. II,France,pp. 152-154 .

(12) CH. R. Ageron, Les Algériens musulmans et la France , T. I,Paris,P. U. F. ,1968,p. 332 .

(13) JONNART, Rapport

(14) - ESTOUBLON Robert et LEFEBURE: Code de l'Algérie annoté supplément 1896-1897-1898, Alger. Recueil chronologique des lois, ordonnances, décret, arrêtés, etc..... portant la législation Algérienne, p:28.

(15) B. O. G. G. Tome trente septième année 1897, Imprimerie Administrative, Alger, 1898, p:1021-1025 .

دور الزوايا في نشر التعليم الأصلي

تقديم:

كان التعليم في الزوايا وفي المساجد قائما منذ زمن بعيد، بحيث كان الأطفال يجلسون على الأرض، باعتقادهم أن ذلك فيه الخشوع المناسب للعبادات، وتقربا من الله، الذي يريد أن يرى عباده جالسين صفا واحدا، فسيستجيب لدعواهم.

ولقد كان التعلم ولا يزال الأساس الحقيقي لأي تقدم وتطور في حياة الشعوب والأمم ولهذا عمل الإستعمار البغيض منذ غزوه لبلادنا العزيزة على محاربة الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ومحاصرة الزوايا والمراكز التعليمية، وغلق المدارس والمعاهد، حتى تروج الدوائر الإستعمارية في أوساط الأجيال الصاعدة، أن الجزائر قد بلغت في القرون الماضية أسفل درجات الجهالة والهمجية إذ لم يكن بالبلاد أي تعليم منظم ولا حياة فكرية، فلا عالم بينهم ولا كاتب ولا أديب ولا شاعر، فالأمة الجزائرية مؤلفة كلها من أميين يجهلون القراءة والكتابة، وقالوا أن اللغة العربية قد ماتت ودفنت مع اللغات الميتة الأخرى وهذا من أجل تبرير سياستها التعليمية ودعم مطامعه الإستبدادية موهما الرأي العام أن من واجب الأمم الراقية أن تنقذ سكان الجزائر المساكين من آفة جهل شاملة وتأخر فاحش عن ركب الأمم المتمدنة وذلك باسم الحق والإنسانية.

غير أن الحقيقة التاريخية لا توافق ذلك في شيء، والواقع يدحض تلك الأباطيل فما استولى الجهل على الجزائر في القرون السالفة وما انقطعت بالجزائر مسيرة التعليم وما انعدمت المدارس ولا قلت العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها في جميع العصور الإسلامية ومنها القرن الماضي أي القرن التاسع عشر، فلم تزل وقتئذ المساجد في المدن حافلة بالأساتذة والتلاميذ ولم تزل الزوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة وكلهم يبذلون جهودهم في الإلمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير.

وقد حافظت الجزائر على تقاليدها العربية الإسلامية في التعليم والثقافة، فالكتاتيب القرآنية كانت منتشرة في كل بقعة، والتعاليم الدينية متوفرة، وكان للطرائق الصوفية الدور الهام في هذا المجال، فهناك الدروس الدينية وحلقات الذكر والمدائح الدينية وانتشار الأوراد الصوفية وغيرها.

وقد شاعت بالجزائر الطرائق الصوفية بشكل واضح منذ القرن السادس عشر ميلادي، ثم أخذت تنمو تدريجيا وتنتشر على نطاق واسع في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي. وقد تمكنت الثقافة الطرائقية الصوفية من المحافظة على وجودها بما لها من إلهام روحي وولاء شعبي سمحا لها بأن تحافظ على الروح الدينية والمقومات العربية.

وقد كان — وما يزال — تشبث النّاس بالطرائق الصوفية، لاقتناعهم بأن التصوف مؤسسة على الكتاب والسنّة، قائم على سلوك الأنبياء والأصفياء، ويقال: " التصوف مبني على ثمان خصال: السّخاء، والرضا، والصبر، والإشارة، والغربة، ولبس الصوف، والسياحة، والفقر. " لهذا فإن التصوف

طريقة سلوكية قوامها التقشف والزهد والتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح، وفي هذه الحالة يشعر المرء بأنه على اتصال دائم بالإله الأعلى؛ ولذلك تتفق معظم الآراء حول التصوف على أنه:" نزعة روحية تنأى بالإنسان عن العالم المادي وترتفع به إلى العالم الخارجي"، ويقول ابن خلدون عن أصل التصوف:" وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالي والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها، مما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعباد". (1)

فالتصوف إذن، عند ابن خلدون وغيره، عبادة ومجاهدة للنفس، ومحاولة لإدراك الحقيقة أي أن غاية المتصوف هو التوحيد والمعرفة. أما رجال الطرقية أنفسهم فيختلفون حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى هدفهم، إن البعض يراه في الممارسات والوسائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التطهر والتقشف والقيام بالواجبات الشرعية على أتمّ وجه، والتحلي بالأخلاق والفضائل، وتجنب كل الشبه والمزالق، بينما يراه آخرون منهم في الوصول إلى الإلهام، والكشف والرؤى والسرحان في عوالم الأسرار الغامضة، ولكن النتيجة واحدة تقريبا، فهي التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه... (2).

ويجمع العديد من العارفين بخبايا التصوف أن حركة التصوف قد بدأت تنتشر لأول مرة في ربوع المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي أثناء حكم المرابطين حيث انتشرت آراء الإمام حامد الغزالي من خلال كتابه الإحياء الذي لقي معارضة شديدة وأمر علي بن

يوسف بن تاشفين بإحراقه عام 503هـ. ويبدو أن ظاهرة التصوف كانت قد رسخت وتغلغلت في صفوف طبقات المجتمع المغربي أيام الموحدين، حيث ازدهرت الحركة الصوفية بتأثير الزاهد الأندلسي أبو مدين شعيب بن الحسين (حوالي 520هـ – 590هـ /1126م – 1197م)، الذي يعد شيخ الصوفية دون منازع بكل الأقطار المغربية والأندلس في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي، وعمدة التصوف السني ودعاه ابن عربي "شيخ الشيوخ".

ومن أقطاب التصوف الذين وفدوا على الجزائر بعد أبي مدين شعيب نجد المتصوف الشهير محي الدين بن عربي الأندلسي (ولد 1165م في مرسية بالأندلس وتوفي 1240م في دمشق) الذي يعد بدوره قطب من أقطاب التصوف الفلسفي في عهد الموحدين (560هـ – 638هـ)ومن بجاية واصل ابن عربي طريقه صوب المشرق، حيث دخل مصر في أواخر القرن السادس الهجري، لكن المصريين نقموا عليه وعملوا على إراقة دمه نظرا لآرائه الفلسفية الصوفية حول وحدة الوجود والحقيقة الوجودية المقتبسة من الفلسفة اليونانية القديمة. وقد كان ميزة التصوف السني والفلسفي آنذاك الزهد سلوكا كالتقوى وعدم الاهتمام بالرزق، وذم الدنيا، وحب الخلوة والانعزال عن الناس وحياة الفقر والتوكل على الله.

ومع القرن الثامن للهجرة/القرن الرابع عشر الميلادي كانت الحركة الصوفية قد لعبت دورا أساسيا في رسم معالم الحياة الدينية والاجتماعية في الأقطار المغربية ومنها الجزائر، ولم تعد هذه الحركة منذ ذلك القرن تقتصر على جماعة

من الزهاد والمتصوفين بل كافة المجتمع، ورسخت وتغلغلت في التقاليد الشعبية، وأصبح المتصوفة يبحثون عن أماكن للخلـوة والعبـادة في المـدن والقـرى والأرياف، وانتشرت الألقاب مثل الولي والغوث والقطب ومعرفة علم الحقيقة، وبدأ الناس يقبلون على المجاهدة والكشف وينخرطون في الزوايـا ويؤمنـون بالأولياء وكرامتهم ويندفعون إلى زيارة المقابر وأصبح المتصوفة يمثلـون قـوة روحية، وقد صاحب كثرة العلماء والمتصوفة بالجزائر شيوع طريقتين القادريـة والشاذلية.

التعريف بـالقـادرية

تنتسب القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو"القيلاني" سلطان الأولياء وقطب الأقطاب، والغوث، وعضد الإسلام، ويلقبـه أتباعـه بـــ " مـولى بـغـداد ".. فمن هو إذن الشيخ عبد القادر؟

هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد محي الدين الجيلاني، أوالكيلاني، أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة 471 هـــ/ 1078م، وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488هـــ، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، والـشعر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528هـــ، وتوفي بها سنة 591هـــ /1166م له كتب، منها " الغُنية لطالب الحـق "ـــ مطبوع و"الفتح الربان"ي ـــ ط، وللمستشرق مرجليوث الإنجليزي رسـالة في ترجمته، نشرها ملحقة بالمجلة الآ سيوية الإنجليزية. ولموسى بن محمـد اليونـاني كتاب "مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني" ـــ مخطوط، ولعلي بـن يوسـف

الشطنوفي "بهجة الأسرار" ـــ ط. ، في مناقبه، ولمحمد بن يحي التاذفي "قلائـــد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر" ـــ ط. ، وترجم عبد القادر بـــن محـــي الدين الإربلي عن الفارسية " تفريح الخاطر في مناقب الـــشيخ عبـــد القـــادر" ط.[3].

وكل هذه المؤلفات تبين حسب العديد من الدراسات، أن الطريقة القادرية تتسم بنشر التعليم عند أتباعها، وبالإصلاح والإرشاد والتسامح، ونشر المعرفة والعلم، ومحاربة المستعمر المحتل والغاصب للأرض والعرض، وهي أول طريقـــة صوفية ظهرت في العالم الإسلامي، حسب كتاب الغنية، لـــطالبي طريق الحـــق في الأخلاق والتصوف والآداب الإســـلامية، للـــشيخ عبـــد القـــادرالجيلاني الحسني(470-561هـــ)، الطبعة الأولى، بيروت دار صادر-دمشق دار البشائر، 1996م ولهذا فهي منبع وأصل لكل الطرائق الصوفية الـــتي جـــاءت بعـــدها، كالشاذلية والدرقاوية والشيخية والتيجانية والطيبية والسنوسية وغيرها.

تصدى الشيخ عبد القادر للتدريس في بغداد لأكثر مـــن 30ســـنة، ليبلّـــغ رسالته التصوفية إلى العالم، كما طاف أنحاء عديدة من العالم الإسلامي، ليوصل تعاليم طريقته التي وضع لها سبع دعائم هي: المجاهدة ـــ التوكل ـــ حسن الخلق ـــ الشكر ـــ الصبر ـــ الرضا ـــ والصدق. هذا وبعدما أســـس الزاويـــة الأم ببغداد، أوصى الشيخ عبد القادر ابنه عبد الرزاق بما يلي: " أوصيك يا ولـــدي بتقوى الله وطاعته، ولزوم الشرع وحفظ حدوده، واعلم أن طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة، وسلامة الصدر، وسخاء اليد، وبذل الندى، وكف الجفـــاء، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان، وأوصيك يا ولـــدي بـــالفقراء،

وحفظ حرمة المشايخ، وحسن المعاشرة، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة إلا في أمور الدين... "

انتشرت الطريقة القادرية ببلاد المغرب العربي عن طريقين هما مصر والأندلس ولهما به فروع للزاوية الأم في بغداد.

إن أول من أسس فرعا للقادرية في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر هو الشيخ مصطفى بن محمد بن المختار الغريسي سنة 1200هـ/1785/11/4م والواقع أن فروع هذه الطريقة كانت موجودة من قبل في مختلف المدن ولها زوايا وأضرحة وقباب ومساجد في تلمسان والجزائر، وبجاية، وقسنطينة، وغيرها ولها أوقاف كثيرة ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد.

من نشاط القادرية بسوف

ظهرت فروع أخرى في شرق الجزائر وجنوبها، كان لها دور بارز أثناء غزو فرنسا للصحراء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، منها زاوية عميش بالوادي، وزاوية الرويسات بورقلة وزاوية مسعد - الأغواط، ومعظم هذه الزوايا ذات صلة بزاويتي نفطة والكاف القادريتين بالقطر التونسي الشقيق.

ومؤسس زاوية نفطة هو أبو بكر بن أحمد الشريف، وهو تلميذ الشيخ المنزلي (نسبة إلى منزل بوزالفة — تونس) وقد تطورت الزاوية بفضل جهود الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف، وترك إبراهيم أولادا تقاسموا بركة والدهم على النحو التالي:الأكبر منهم، وهو محمد تولى الزاوية الأم بنفطة، وأسس الهاشمي زاوية بالبياضة في وادي سوف، واصبح نائبا لأخيه، أما أخوهما محمد الطيب، فقد نشر الطريقة في ناحية ورقلة، وأسس زاوية في الرويسات،

وكان له أتباع في الأغـــواط وغـــرداية وبين الـــشـــعانبة، ولهم أخ رابع اسمه الحسين، أسس زاوية بقمار بوادي ســـوف، بينما أسس الأخ الخامس زاوية في تبسة، والابن السادس وهو محمد الإمـــام أسس زاوية في صحن الشعانبة بوادي سوف أيضا.

وقد أنجب الشسخ إبراهيم ابنه الهاشمي سنة 1853م من زوجته الســـوفية من عرش أولاد أحمد، لهذا رجع سي الهاشمي إلى أرض الوطن عند أخواله سنة 1892م، حيث أسس زاوية قادرية بالبياضة على غـــرار أجـــداده، ليواصـــل نشاطه الديني والفكري هناك، ويجـــدّد الأتبـــاع وينشر الطريقـــة إلى أقـــصى الجنوب، ويـــربط عـــلاقات ودية مع السودان وغات. وقد واجه الشيخ محمد الهاشمي منافسة شديدة ومـــريرة من طرف الزاوية التجانية التي تمثل طريقـــة " الأحباب " المنتشرة بكثرة في ســـوف.. وكانت السلطات الفرنسية تزكي هذا التنافس بل وتثير النعرات والفتن بين الطريقتين وتدس أعوانها بـــين الـــزاويتين لإشعال النيران بينهما ضمن سياسة "فرق تسد"

نشاط الشيخ عبد العزيز الشريف

بعد وفاة الشيخ الهاشمي سنة 1923م، أصبح الشيخ عبد العزيـــز المؤهـــل الوحيد لمشيخة الزاوية باعتباره المتخرج الأول من جامع الزيتونة، فضلا عـــن كونه مشهورا بذكائه وفصاحة لسانه ووضوح بيانه، كما كان الشيخ أديبـــا ظريفا لبقا، لهذا تم الإجماع على أن يتولى مشيخة الزاوية القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة، كما يقـــوم بالإشراف على شؤون العائلة وعلى إخواته الذين يزاولون تعلـــيمهم بجـــامع

الزيتونة، بالإضافة إلى العمل المستمر في تطوير أملاك الزاوية وخاصة في غرس غابات النخيل، واستثمار تجارة التمور المزدهرة والمربحة عبر مناطق الجنوب، حتى أصبح الشيخ عبد العزيز يعرف بـ « ملك التمور ».

انضم الشيخ عبد العزيز إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كعضو فعال وبارز فيها بحكم امكانياته العلمية والإجتماعية، ففي المؤتمر السنوي العام لجمعيةالعلماء المسلمين الجزائريين الذي بدأ أعماله يوم 24 سبتمبر 1937 م بنادي الشرقي بالعاصمة، قدم الشيخ ابن باديس بعض كبار الرجال الذين لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية من جمعية العلماء منهم الشيخ الفضيل الورتيلاني والشيخ سعيد صالح... ثم تقدم هو بنفسه وألقى خطابه الرسمي مقترحا أن يسمى هذا الإجتماع بعيد النهضة الجزائرية ثم طلب من زميله الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين، فقال: «الشيخ عبد العزيز كان من شيوخ الطرق، أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندي من جنود الإصلاح ومن أعضاء جمعية العلماء».

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الإنطواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح وتبرع لهم بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك [4] وهو مبلغ هام في ذلك الوقت.

و قد أثار هذا النشاط المتزايد للشيخ عبد العزيز حفيظة السلطات الفرنسية بالوادي وأظهروا تخاوفهم من تسرب أفكار الحركة الإصلاحية إلى المنطقة، فيزعزع كيانهم ويكذب ادعاءاتهم بأن الصحراء هادئة وآمنة وراضية بحالها.

رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الرئيس الإمام ابن باديس إلى الوادي في شهر ديسمبر 1937م [5]، لتدعيم نشاطه النهضوي وتكريس أفكار الحركة الإصلاحية في المنططقة، وتركت الزيارة الأثر الطيب عند أهالي والمخاوف عند الدوائر الإستعماريةوأعوانها، كما كان لهذه الزيارة الأثر العميق عند الشيخ عبد العزيز دفعته لتكثيف نشاطه وتنقلاته عبر القرى والمداشر شمالا وجنوبا.

وكان لهذا النشاط استجابة كبيرة عند شباب سوف، لأنه اهتم بتأسيس المدارس لنشر العلم والتعليم وفق مناهج جمعية العلماء، فحول جزء من زاوية البياضة إلى أقسام للتعليم العصري وفي شهر مارس 1938 م وبعد بيع محصول التمور، وظف هذا المال في تهيئة زاوية الوادي — التي شرع فيها أبوه منذ سنوات خلت — لجعلها جامعة تستوعب أكثر من خمسمائة طالب جزء منهم يخضع للنظام الداخلي، ولهذا الغرض جهزت قاعتان كبيرتان للمحاضرات، وعشرين غرفة، كما خزن لهم التمور والأرز [6]، واستقدم لها أساتذة أكفاء كالشيخ علي بن ساعد خرن والشيخ عبد القادر الياجوري المعروفين بغزارة علمهماوبراعتهما في ميدان التعليم والإرشاد، كما درّس في هذا المعهد الأستاذ لعروسي ميلودي والشيخ معراج دريال وبعض المتعاونين جاءوا من الجريد (الجنوب الغربي التونسي)، فعرفت المنطقة بذلك حركة علمية تعمل على البعث الحضاري ونشر الوعي الفكري، أثارت مخاوف السلطات الإستعمارية، فحاولت معارضتها وهدمها عن طريق أعوانها.

ورغم ملاحظات السلطات المحلية، فإن الشيخ عبد العزيز لم يتوقف، بل واصل مشروعه التعليمي، و لم يعترف بمرسوم 10 أكتوبر 1892م واعتمد على مرسوم 8 مارس 1938م الذي يراقب التعليم في المدارس القرآنية، لأن الشيخ يعتقد أن التعليم في الزوايا غير مراقب، ونستشهد في هذا الصدد بجزء من مقال الشيخ ابن باديس في "البصائر" تحت عنوان « الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح»، حيث يقول:" ...شرع عبد العزيز بعمارة زواياه بالعلم وعين رحلين للتعليم من أبناء سوف المتخرجين من جامع الزيتونة المعمور هما علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياجوري...وجمع عددا من الطلاب وحضر هممؤونتهم وأخذت حركة العلم تدب بين الناس والرغبة فيه تنمو في الطلاب، دعا الحاكم الشيخ عبد العزيز في شأن التعليم وطلب الرخصة ورد الشيخ بأن الزوايا من قديم الزمان تعلم بدون رخصة وتكرر الأخذ والرد في الأمر وفهم أن الأدارة مستثقلة لتلك الحركة العلمية وتخوف الناس حتى كانت الكارثة..."[7].

و لما علم الشيخ عبد العزيز بزيارة الموظف السامي السيد " ميليوت " (MILLIOT) المدير العام للشؤون الأهلية وأقاليم الجنوب، إلى الوادي في 12 أفريل 1938م، عزم على تنظيم مظاهرة احتجاجية على تصرفات السلطات المحلية بحضور هذا الموظف السامي.

و استقبل السيد "ميليوت " المدير العام الشيخ عبد العزيز في المكتب ودارت بينهما مفاوضات عسيرة استغرقت حوالي ثلاثة ساعات تمحورت حول عريضة السكان، الذين يعبرون فيها عن غضبهم على تصرفات المصالح

الإستعمارية كما قدم شكوى بالحاكم العسكري بالوادي المتواطئ مع قياد بلدة المقرن وشيوخها الذين ضايقوه و لم يفعل لهم أي شيء.

و يمكن إجمال ما جاء في عريضة السكان في النقاط التالية:

- رفع الظلم والتعسف على السكان من قبل الإدارة الفرنسية وأعوانها.
- المحافظة على المقومات الحضارية للأهالي بانتشار التعليم باللغة العربية واحترام تعاليم الإسلام ورجاله مثل ما تفعله الإدارة مع الآباء البيض التي تزكي حركتهم التبشيرية(التنصيرية).
- مساعدة الفقراء والمحتاجين بالحبوب والغذاء، وطالب بتزويدهم بـ 10 قناطر من القمح ـ صدقة ـ(8)

وافق الموظف السامي على هذه المطالب وأخبر الشيخ أنه سيرفعها إلى السلطات العليا، ولكن الأمور تطورت واشتد الغضب بالشعب فاندلعت ثورة بالبلاد، أسفرت عن اصطدمات دموية بين السكان وقوات الطوارئ الفرنسية التي حاصرت المنطقة بحشود ضخمة للقضاء على هذه الثورة.

وبعد هدوء العاصفة ألقت السلطات الفرنسية القبض إلى الشيخ عبد العزيز وزملاءه الشيخ علي بن سعدخرن والشيخ عبد القادر الياجوري والتاجر المناضل عبد الكامل النجعي وزجت بهم في السجن ويذكر الإمام ابن باديس في جريدة « البصائر » عدد 121 ـ وقائع كارثة سوف الأليمة بما يلي:

« ... عج وادي سوف يوم 18 أفريل بالجنود والعتاد ورصعت رباه بالمدافع الرشاشة وأرعدت أجواؤه بأزيز الطائرات فأوشك أهله ونساؤه

وأطفاله وبيوته وتخيله أن تنسفهم قنابل الأرض أو تمحقهم صواعق السماء، فذهلت المراضع ووضعت نحو ثلاثين امرأة حملها.. وأصبح الوادي على حين بغتة وقد عطلت أسواقه وسدت طرقاته، ومنع عنه الداخل والخارج وضرب عليه نطاق شديد محكم الحصار ... ألقي القبض على الشيخ عبد العزيز الهاشمي والشيخ علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياحوري والسيد عبد الكامل بن الحاج عبد الله وسيقوا إلى السجن بقسنطينة، وحشرت جماعات من الناس إلى المراكز الإدارية وزج بهم في السجون، ثم حكم على عدد وفير منهم بالنفي والسخرة، كل هذا والناس معتصمون بالصبر ومنتظرون للفرج.

وقد عالج ابن باديس هذا الموضوع في مناسبات عديدة على جريدة "البصائر" فقال في احداها أن هؤلاء الشيوخ دخلوا السجن «.. ضحية عقيدتهم الإسلامية وقيامهم بواجبهم الديني نحو اخوانهم المسلمين أهل ديار سوف... ».

كما طالب ابن باديس معاملة هؤلاء المساجين العلماء معاملة تليق بمكانتهم الدينية والثقافية حيث لا يمكن حشرهم مع اللصوص والمجرمين لأنهم سجناء الرأي والأفكار السياسية. مكث الشيوخ بالسجن حوالي أربع سنوات ثم حكم عليهم بالإبعاد والإقامة الجبرية، غير أن صداهم وإشعاعهم الفكري والثقافي بقي ينير درب النهضة والوثبة نحو الإنعتاق. وفي الأخير نستشهد بهذه القصيدة الرائعة والصادقة من طرف شاعرة عجوز من بلدة الزقم عاشت الأحداث وأثرت في نفسها فقالت:

حايد عَلْ عبد العزيز وينَوزْ وجهه السعيد

رام قالوا جا قالوا إيقري بخمس اميّا
إيكثر في العلما   فمه لا يخرج العيب
حديت الله ولانبياما أحلى لفظه المفيد
على وجُه الجنة   جبت اغنايا وقولي عنه
راه مارق في اخيار الهمة لبسُه والجبّه حرير
ولّي شافه وحّد اللهانغي على ضاوي الجبين
حايد على عبد العزيز وبنور وجهه السعيد
حين لدّوه   نحنا قلنا نالحقوه
فقسنطينة ثم لاحوهباالهاتف جانا قريب
شفتوش سيدا[1] قدّام   منين لاحوه في لغب الصيد
ولقوه مفرش وبصلي   يذكر والسبحة في ليد
حايد عل عبد العزيز وبنور وجهه السعيد
قلبي انرهب   قالوا سي مسعود[2] عقب
واحعني هاك الولد[3]   يبكي وبَدْرْوَخ مسكين
مارق لصحابة ينشد|أبوني علْ بابا وين
مرْقت ليسلام أنحرب   بلمْكاحل والسكين
حايد عل غبد العزيز وبنور وجهه السعيد

---

[1] الشيخ الهاشمي الشريف والد الشيخ عبد العزيز

[2] الشيخ مسعود عباسي والد الشيخ عز الدين

[3] الشيخ عز الدين عباس

الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف

تنسب الطريقة الرحمانية إلى مؤسسها الأول محمد بن عبد الرحمان بن أحمد بن يوسف بن ابي القاسم بن علي بن ابراهيم بن عبد الرحمان بن احمد بن الحسين بن طلحة بن جعفر بن محمد العسكري ابن عيسى الرضي بن موسى ادريس بن ادريس بن عبد الله بن محمد بن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا هو مكتوب في لوح معلق في محراب ضريحه المقدس قرب حامة الجزائر.

و هو الغوث الأكبر والمربي الأشهر، جامع الناس إلى كلمتي الشهادة وداعيهم إلى مقام الإحسان في العبادة، ولد قدس الله سره وخلد في ألسنة الصدق ذكره ما بين سنتي 1126 و1133 هـ[9] الموافق فيما بين أعوام 1715-1725 م، بقرية آيت اسماعيل في فروحة على بعد خمسة عشر كلم من شرق مدينة ذراع الميزان بجبال جرجرة في القبائل الكبرى، وزاول تعليمه الإبتدائي على يد الشيخ ابن أعراب في قرية آيت ايراثن مع الشيخ محمد بن بلقاسم التاحديوي وكان الشيخ ابن اعراب قد زار مصر وتعلم هناك وعاد، بثقافة واسعة، وتصدى للتعليم والتثقيف في موطنه وأخذ طلاب العلم يفدون عليه من كل جهة ومنهم محمد بن عبد الرحمان، والذي ينتسب الى قبيلة قشطونة[10].

و بعد أن استنفذ محمد بن عبد الرحمان ما عند الشيخ ابن اعراب من معلومات، شد الرحال إلى المشرق فادى فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر واستقر

بمدينة القاهرة مدة طويلة من الزمن، اعتكف على الدراسة، وتتلمذ على عدد كثير من شيوخ الأزهر وعلمائه ابرزهم الشيخ الحفناوي، شيخ الطريقة الحفناوية[11]. وبسبب نبوغه وحيوته أرسله شيخه الحفناوي مبعوثا عنه كداعية ديني إلى بلاد الهند والسودان، فنشط هناك في نشر طريقة شيخه وتعاليمها مدة، ثم عاد إلى مصر وتزوج هناك بامرأة حبشية مسلمة بفضل الأموال التي عاد بها من السودان وبعد مدّة زمنية إلتحق به هناك أخوه الكبير محمد.

و بعد المكوث بالقاهرة مدة معينة أمر الشيخ الحفناوي تلميذه محمد بن عبد الرحمان بالرجوع إلى وطنه لنشر العلم وبث الأخلاق الفاضلة، ودعا له بالتوفيق، بعد أن أذن له باعطاء الورد والخلوة وألبسة الخرقة فاستقر بعض الوقت سنة 1770 م في بجاية كواعظ ومرشد في مسجد سيدي محمد أمقران، فغرس الإيمان والاحسان في القلوب وبدد غياهب ظلومات النفوس بذكر علام الغيوب. ثم ذهب إلى حي الحامة قرب مدينة الجزائر العاصمة، واستقر هناك فالتفت حوله طلاب العلم وتكاثروا عليه بمرور الزمن، وعلا صيته فاهدى له أفراد قبيلة بني عيسى أرضا بنى عليها زاوية صغيرة جعلها مركزا لنشاطه الثقافي والديني، ومأوى لإخوانه وأتباعه.

لم يمض نصف عام على عودته حتى أصبح صاحب مركز كبير بقرية الحامة وصار حديث الناس كلهم بعمله الواسع وثقافته الكبيرة، وأسرار طريقته الدينية الجديدة التي أخذها عن شيخه الحفناوي بمصر، فأثار ذلك أحقاد بعض رجال الدين بمدينة الجزائر الذين غاروا علىما يظهر من توفقه عليهم وتحول أنظار الناس عليهم فاتهموه بالإبتداع والخروج عن مذهب أهل السنة والجماعة

فحرضوا عليه باشا المدينة فدعاه إلى مدينة الجزائر وجمع لـــه كبـــار علمائهـــا وفقهائها في المسجد الكبير ليناقشوه ويجادلوه في مبادىء دعوته وطريقته الدينية الجديدة فافــحمهم جميعا بالحجة والبرهان وانتصر عليهم مما جعل باشا المدينة يستضيفه عدة أيام في قصره يأخذ عنه الورد والميثاق كأحد اتباعه.

ورغم انتصار الشيخ محمد بن عبد الرحمان على خصومه في تلك المنـــاظرة الكبيرة إلا أنه أصبح يشعر بعدم الرضى والإرتياح من أولئك الخصوم نحـــوه، وعزفت نفسه على البقاء بينهم فقرر مغادرة الحامة والعودة إلى مسقط رأســه بآيت اسماعيل في جبال جرجرة حيث أسس زاوية جديدة له، ولكنه لم يعش طويلا هناك، فبعد بضعة شهور تـــوفي عـــام 1208 هــــ (1793 – 1794م) واكتسبت زاويته بعده شهرة واسعة.

و كان لوفاته تأثير سيء على اتباعه وإخوانه بالحامة فعزموا على نقل جثته سرا إلى الجزائر وحققوا ذلك، وعندما علم أهله بالخبر عزموا على اســـتعادتها فحصل خلاف بين الطرفين، ونشأت عنه الأسطورة التي تدعي بأن جثة الشيخ موجودة بالحامة وبآيت اسماعيل معا ودعوه منذ ذلك اليوم بـــ " بو قـــبـــرين " ولم يخلف بعد وفاته أبناء من نسله ولكن خلف « مقادم » كبارا في الجزائر وفي تونس وفي السودان، وغيرها منهم سيدي علي بن عيسى (من أصل مغربي، زوج الشيخة خديجة ووالد الشيخة فاطمة شيخة ايسومار)، ومن بين تلاميذته الشيخ محمد أمزيان الحداد (مقدم الطريقة الرحمانية بصدوق).

تسلم الشيخ علي بن عيسى الزاوية، وواصل نشاطه كـــرئيس للأخـــوان الرحمانيين واحتفظ بوحدتهم واستمر في اعطاء الورد ومبادىء الطريقة لكـــل

المقدمين في الجهات الأخرى إلى ان توفي عام 1836 م، فخلفه الشيخ بلقاسم أولحافيظ من المعاتقة (معتوق) ولكنه لم يعمر طويلا إذ توفي في العام الموالي 1837م، وكان ذلك سببا في انقسام الأخوان الرحمانيين على انفسهم وقيام زوايا رحمانية جديدة مستقلة عن الزاوية الأم في شرق البلادوجنوبها الشرقي ومنها زلوية سيدي سالم بمدينة الوادي.

حسب الشيخ ابراهيم بن محمد الساسي بن عامر، في رسالة « البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح» يقول:

« أسس الزاوية الولي الكامل المرحوم العامل، السائر في اوضح طرق القوم، ذي المناقب الحميدة والأفعال الجميلة السديدة، الذي طار صيته في كل قطر وبلاد، وأقر بعلو مقامه ذوو الأتباع والإنتقاد، وتواضع له أولو المكانة والإحترام والتعاظم، شيخ الطائفة الأعرج سيدي سالم نفع الله به وبفروعه أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين، ابن سيدي محمد بن محمد بن سيدي محمد بن سيدي نصر بن سيدي عطية الشريف من نسل الزائر بن سيدي المحجوب دفين القيروان، قبره بها يزار إلى الآن ويشهد له كل الناس بالصلاح والكمال والنجاح»(12).

ولد سيدي سالم بالوادي حوالي 1182هـ/1768م فقيرا إلا أنه كان ينتقل بين البلدان. أما طريقته فأخذها عن الشيخ الزهاد وفخر العباد سراج الطريقة ومعدن السلوك والحقيقة، سيدي علي بن عمر الطولقي الشريف ذي الشرف العالي والمقام المنيف، وهو أخذها عن أبي البركات القدوم الهمام ذي النفع

والفيض على جميع الأنام الشيخ محمد بن عزوز، وقد أمر سيدي علي بن عمر الطولقي بتأسيس زاوية بالوادي عام 1236هـ/1820م.

بقي سيدي سالم يرعى الزاوية حتى توفي ودفن بها عام 1277هـ/1860م، وبقي أولاده وأحفاده يشرفون على الزاوية إلى يوم النّاس هذا.

ترك سيدي سالم ولدين فاضلين أحدهما الشيخ سيدي مصباح وهو الأكبر سنا والآخر سيدي محمد الصالح، لكن الأول جرى على طريق الأشياخ الـذين يكـتمون أمرهم وهو مقام عظيم يفتخر به كل من له أدنى مسكة بـأحوال القوم، وقد منّ الله على هذا الشيخ بولد عفيف نظيف ظريـف أديـب ورع زاهد في الدنيا زهدا تاما، فقيه دائم الطهارة كثير التجنب من النـاس، يحـب الخلوة والإنفراد، وينقبض من رؤية الناس انقباضا كليا وهو الشيخ سيدي محمد العربي أدام الله سناه وبلغه في الدارين مُناه. والثاني جرى على طريق من يـذيع ذلك.

بعد سيدي مصباح الذي ولد سنة 1255هـ/1831م وتوفي عام 1327هـ/1909م، سيدي محمد الصالح الذي ولد عام 1263هـ/1846م وتـوفي عـام 1335هـ/1916م. وقد تولى الشيوخ التالية أسمائهم الزاوية:

- سيدي محمد العربي ولد 1294هـ/1877م وتوفي 1365هـ/1945م.
- سيدي محمد بن عزوز ولد 1308هـ/1880م وتوفي 1392هـ/1972م.
- سيدي محمد الطاهر ولد 1320هـ/1902م وتوفي 1398هـ/1978م.

أما شيخ الزاوية الحالي فهو الشيخ الحسين بن الشيخ محمد الطاهر أطال الله في عمره وحفظه من كل مكروه.

للزاوية ثلاثة أدوار أساسية هي التعليم، والتصوف، وإطعام المساكين، نردها كمايلي:

I- أسس سيدي سالم مسجدا لاصقا للزاوية في حدود عام 1246هـ/1830م وهي السنة التي تعرضت فيها الجزائر للهجمة الشرسة، الصليبية الحاقدة من قبل الإستعمار الفرنسي؛ ولهذا إضطلعت الزاوية بدور الدفاع عن المقومات الشخصية للشعب الجزائري، وكان أهم عمل قامت به الزاوية هو نشر التعليم والعلم وإرشاد الناس وإصلاح المفاسد، بحيث أصبحت الزاوية بالوادي عبارة عن خلية تضم العديد من الطلبة لحفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم المختلفة، فتضمن لهم الزاوية الرعاية التامة من إيواء وإطعام ولهذا استقطبت الزاوية طلاب العديد من المناطق كالزاب الشرقي (أولاد عمر ووادي ريغ خاصة من تماسين، واللمامشة من الشريعة وتبسة وخنشلة وأولاد نائل فضلا عن طلاب الوادي وضواحيها، وسنذكر البعض منهم:

فمن أفراد عائلة سيدي سالم الذين قرؤا القرآن الكريم بالزاوية الشيخ سيدي مصباح، والشيخ محمد الصالح وسيدي محمد الطاهر الأول وسي محمد العربي بن سيدي مصباح وسي محمد الطيب بن سيدي محمد الصالح وسي محمد الصادق بن سيدي محمد الصالح وسي محمد بن عزوز بن سيدي محمد الصالح ومصباح بن سيدي محمد الصالح ومحمد الهادي بن محمد بن عزوز وعبد الحفيظ بن الصادق بن محمد الصالح ومصطفى بن محمد الهادي بن محمد العزوز ومحمد البشير محمد العربي بن مصباح ومحمد الطاهر بن محمد الصالح.

أما الطلبة من سوف منهم:

طلبة عميش: ومنهم سي العربي بن سعد ومعه 12 طالبا، وطلبة الطرفاوي: ومنهم سي محمد بن قدور بن بلقاسم وعددهم 6 طلاب ومحمد ابراهيم من تاغزوت: وسي علي بن مصطفى من قمار، ومن مدينة الوادي بأحيائه الثلاث، نجد من أولاد حمد: سي عبد القادر بن العبيدي الحداد وسي محمد بن الدبيل وسي العربي بن الحاج عبد القادر عون ومحمد الصغير بن الزربيط وأخيه سي علي بن الزربيط وسي أحمد بن ميلود.

أما الطبقة الأولى من عرش الأعشاش: ومنهم سي محمد الصغير بن غنبازي وسي شنوف وعددهم 19 طالبا، أما الطبقة الثانية من عرش الأعشاش منهم العربي بن بلقاسم بن العربي بوسبيب، والطبقة الثالثة من الأعشاش سي البشير بن بكوشة وعددهم 29 طالبا والطبقة الرابعة منهم الطيب بن عملا الصغير بن غنباز، والطبقة الخامسة فيها 15 طالبا والطبقة السادسة 10 طلاب والطبقة السابعة 39 طالبا. وعدد لابأس به من المصاعبة.

الطلبة من خارج سوف:

أولا: النمامشة: ومنهم أولاد حميدة برارشة، وقد درس بالزاوية سيدي عثمان بن مبارك وابنه محمد البشير بن عثمان وسي عباس بن امبارك وسي عبد الله بن العمري وابنه سي محمد ابن عبد الله بن العمري، الصادق بن عبد الله، وسلطان بن بوزيان، سي الطاهر بن محمد وسي أحمد بن بوزيان بن عبد الله، وسي محمد بن عثمان بن زروال، وسي محمد بن عبد الله محمد.... وسي العربي بن صالح بن الرزق وكذلك عدد من الطلبة أولاد مسعود وأولاد عز

الدين ومنهم محمد اللموشي بن محمد الصغير وأخيه سي الحفناوي بن محمد الصغير وابن الطيب بن القايد أرغيس وأخيه محمد الأخضر، واعبيدي محمد بن عز الدين والبشير بن العيش، وأولاد سليم ومنهم سي محمد العيد بن عمار وعددهم 22 طالبا وأولاد شعالة وأولاد الطوار، والخلافنة، وأولاد كيانة، وأولاد لمبارك، ومن أولاد نائل وحركات وزيتوني، وافنيت، وخلفاوي، وعيساوي، ومطوي، وزردوم، وطكوك ومقداد واحميدة.

ثانيا: طلبة من الزاب الشرقي: من عرش أولاد خديجة ومنهم سي السعيد بن محمد بن خليفة ومن عرش أولاد عمر ومنهم سالم داد بن عبد الله والحركات بن حمتين.

ثالثا: طلبة وادي ريغ: وخاصة طلبة من زاوية سيدي عابد ومنهم القروي بن طاهر بن أحمد وطلبة اتبسبست ومنهم سي احمد بن يوسف، وطلبة بني أسود بتقرت وطلبة تماسين.

رابعا: طلبة من مناطق مختلفة منهم طلبة من أولاد حميدة وأولاد خليفة، وأولاد عاشور وأولاد الحاج وطلبة أولاد بوشارب والكنارة واولاد زايد من خنشلة وغيرهم [13].

أهم شيوخ الزاوية

ومن أشهر الشيوخ الذين درسوا بالزاوية، نذكر سيدي عثمان بن لقصير وسيدي عثمان بن مبارك التمسيني وسيدي مصباح بن سيدي سالم وسيدي عزالي بن عمارة وسيدي احمد بن بكار وابنه سيدي العيد بن بكار ونجله سيدي محمد بن العيد (المشهور بسيدي حمه) والطالب بوخزة علي، كما درس

بالزاوية علماء مشهورين لهم الباع الكبير في العلم والعطاء كالشيخ الصادق بن الهادي العقبي الذي ختم بها كتاب المرشد المعين، والشيخ الطاهر العبيدي واخيه الشيخ أحمد العبيدي والشيخ عبد الرحمان العمودي والشيخ ابـراهيم العـوامر والشيخ محمد بن حديديوالشيخ العربي موساوي وابنه الشيخ الميداني والـشيخ لزهاري الحرزولي والشيخ الحبيب احنبش رحمهم الله جميعا وقد تـرك هـؤلاء العلماء الأجلاء الأثر الطيب في نفوس الناس وخلدهم بذلك التاريخ. وأنا شاهد على آخرهم، حيث عرفته عن قريب.

ولقد تشرفت الزاوية بزيارة ثلة من اهل العلم والصلاح نذكر منهم الشيخ ابراهيم البحـتـري ومحمد بن حمد الـنـفطي من علماء الجريـد والـشيخ العروسي بن عزوز والشيخ مكي بن عزوز والشيخ الأخضر بن الحسين شـيخ جامع الأزهر بمصر، والشيخ محمد الصالح بن عبد الرحمان الغزال مـن علمـاء الأزهر، والشيخ عبد المجيد حبه العقبي، وقد ألقوا دروسا ومواعظـا لمـا زاروا الزاوية ومكثوا بها ضيوفا لعدة أيام.

كذلك زارها سيدي أحمد بن البشير التجاني شيخ زاوية تماسين وكـذلك مشايخ الزاوية القاسمية بالهامل وهم الشيخ حسن القاسمي وابن أخيه الـدكتور سيدي خليل وأخيه الدكتور سيدي مأمون الشيخ الحالي للزاوية وكذلك شيخ الطريقة الرحمانية بالجزائر وشمال افريقيا الدكتور عبد القادر الطولقي وغيرهـم من العلماء والمشايخ عبر التراب الوطني وخارجه.

II– تضم الزاوية أيضا الإخوان والمريدين وتعقد بهـا حلقـات الـذكر والمدائح وقراءة الورد المتمثل في التعوذ من الشيطان الرجيم والإستغفار والتشهد

وقراءة الفاتحة وبعض الأدعية. ويطلب من المريد أن يذكر الله كثيرا أثناء الليل وأثناء النهار لأن الذكر يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، يرضي الرحمان عز وجل، يزيل الهم والغم عن القلب، ينور الوجه والقلب ويقوي البدن ويجلب الرزق، ويكسو الذاكرة مهابة، ويورث المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين، يورث المراقبة حتى يدخل الذاكر باب الإحسان، يورث القرب من الله تعالى يورث المعرفة، يورث الهيبة لربه عز وجل، يورث ذكر الله تعالى له، يورث حياة القلب وقوته وجلاءه من صداه، يحط الخطايا ويذهبها، إنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة، إنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى له يوم لا ظل إلا ظله، به تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، فهو أصل كل مقام وقاعدته التي يبنى عليها. وأن يكرر الشهادة من العصر يوم الجمعة إلى العصر يوم الخميس أي ستة أيام سواء كان المرء على طهارة أو غير طاهر، وكذلك يطلب من المريد قراءة الصلاة الشاذلية وهي اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه بعد عصر يوم الخميس إلى عصر الجمعة، ثم يكرر الشهادة من عصر الجمعة إلى الخميس التالي وهكذا طوال حياته[14].

III – إلى جانب هذا النشاط العلمي والديني كانت الزاوية تقوم بإطعام عابري السبيل والفقراء والمساكين، رغم إمكانياتها العادية البسيطة ؛ ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة.

الإستنتاج:

حافظت الزاوية على العلوم الدينية، وبريق اللغة العربية. فرغم فقدان البلاد لإستقلالها وما يتبعه ذلك من ضغط وزجر ومنع، ثم أن الجزائر كانت تخضع لحكم استعماري جائر، لهذا كانت محرومة من اهتمام السلطات الفرنسية بالتعليم فالمدارس الإبتدائية القليلة وهي لا تعلم الطفل إلاّ مبادىء اللغة الفرنسية، ولهذا فهو على العموم غير مؤهل لخوض معترك الحياة.

لهذا صان علماء الزاوية الكرام جيلا بعد جيل لغتهم العربية وثقافتهم الإسلامية صيانة الأمانة والعلم أمانة الأنبياء والعلماء ورثة الأنبياء محافظين على ذلك التراث النفيس العزيز وعلى ما يستوعبه من قيم رفيعة ومعان روحية سامية.

واستمر دور الزوايا المحصور في مهمتها التربوية والتعليمية النبيلة، وذلك بالإرشاد إلى الطريق السليم والمستقيم طبقا للقرآن والسنة. وبذلك تتمكن الأمة الجزائرية من المحافظة على دينها ولغتها وقيمها وإصلاح المفاسد بها.

ونتيجة لتلك العناية المستمرة باللغة العربية وعلومها ووقايتها من الهلاك أحدثت في الأذهان قابلية للشعور الوطني والعمل السياسي لمقاومة الإحتلال وإحباط مساعيه في محاولة ترويج أكبر كذبة في التاريخ وهي تحويل الجزائرالعربية إلى جزائر فرنسية.

وكانت الزوايا تبذل أقصى الجهود من أجل الحفاظ على التراث الإسلامي، غير أنها الآن لم تكن في المستوى المطلوب خلال التطورات المعاصرة، فأصابها نوع من التدهور وعقم في التعليم يعود إلى أسباب كثيرة منها:

1- عدم تدريس فن الأصول بالزوايا.

2- عدم الثبات في المتعلمين، وعدم تسليم أمر التعليم للمعلمين، من أن التلميذ يلزمه أن يكون بين أيدي معلمه كالميت بين أيدي غساله، وعلى المعلم أن يكون كالطبيب الماهر.

3- عدم تنظيم أمور الدراسة والقراءة بالزوايا، إذ لا تدرج في الكتب ولا امتحان ينتظره التلميذ لا شهريا ولا سنويا، ولا يخفي ما في الامتحان من فوائد.

4- لا حرية للمعلم ولا رأي له في كل كبيرة زصغيرة، وهو منفذ ما يؤمر به من مقادم الزواية.

عقم التعليم بالزوايا يعود أيضا إلى جمود رجالها الذين لم يستطيعوا تجديد معارفهم وإثراء ثقافتهم التي ظلت محاصرة ضمن إطار تعليم حفظ القرآن دون التبحر فيه. كما أن معظم رجال الزوايا قد تخلوا عن الرسالة الفكرية والثقافية وأصبحوا يهتمون بالقضايا السياسية حفاظا على السلطة والمكاسب المادية.

إنه ما لم تتوفر بعض القواعد التربوية الأساسية، كربط مواد التعليم النظري بالنشاط العلمي للطفل والشاب، ومعرفة الأهداف العلمية كالوظيف بالنسبة للمتخرجين، فإنه ما لم تتوفر مثل هذه المبادئ الأساسية لا ينتظر النجاح من عملية التعليم نفسها.

الهوامش والإحالات

(1) عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ العلامة بن خلدون، كتاب العبر، المجلد الأول، ط.. 2 بيروت، 1931، ص 683.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع، بـيروت، دار المغرب الإسلامي، 1998، ص 9.

(3) خير الدين الزركلي، الإعلام، قاموس تـراجم، بـيروت، دار العلـم للملايين المجلد الرابع، ط 7، 1987، ص 47.

(4) د. محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، القاهرة، دار المعارف، 1968، ص77.

(5) الشيخ محمد خير الدين، مـذ كـرات، الجـزء الأول، الجزائـر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص280.

(6) Les populations musulmans du souf et leur Evolution politique par le capitaine Robert THIRIET , chef de l'annexe d'EL-OUED octobre – novembre , 1938 , p. 34 Archive d'Outre – mer , 10 h. 89. Voir aussi ; Etude sur l'activité des oulamas dans les tiritoires du sud , par GARDEL -, fevrier , 1938A. O. M. , 10H89 .

(7) البصائر، عدد113، 24 جمادي الأول 1357هـ/22 جويلية 1938م.

(8) A. O. M. , 10H89 , Les populations musulmans du souf et leur Evolution politique,pp. 46-49 .

(9) –أبوالقاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال الـسلف، الجـزء الثاني، الجزائر، موفمللنشر، 1991، ص. 298.

(10) Louis RINN, Marabouts et Khouans ;Alger ;1884 ;pp. 452-456 .

(11) الدكتور يحي بوعزيز، ثورة 1871، (دورة عائلتي المقراني والحداد)، الجزائر، الشركة الوطنيةللنشروالتوزيع، 1978، ص. 68.

(12) الشيخ سيدي إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر السوفي الوادي الشريف، البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق محمدالصالح، تونس، مطبعة بيكار وشركاه، 1323هـ.

(13) الشيخ محمد بن عزوز، تاريخ زاوية سيدي سالم، مخطوط بخزانة الزاوية بالوادي.

(14) الدكتور أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص. 515.

مساهمة العلامة إبراهيم العوامر
في النهضة الجزائرية

تقديم:

عرفت الجزائر كوكبة من العلماء والصلحاء والشيوخ الذين وقفوا بكل حزم وصرامة في وجه السياسة الجهنمية للسلطات الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، والرامية إلى تقويض الأسس الحضارية للمجتمع الجزائري، بمحاربته الدين الإسلامي واللغة العربية، لاجتثاث جذوره ومحوي أصوله، ليسهل عليها سياسة الإندماج.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين تفطنوا لسياسة المحتل الفرنسي وكشفوا نواياه المبيتة الشيخ العلامة إبراهيم العوامر من خلال نشاطه العلمي من تدريس وتأليف الدراسات ونشرها في الصحافة وغيرها.

تعريف بالعلامة العوامر:

هو ابراهيم بن محمد الساسي بن ابراهيم بن محمد بن عامر، ولد سنة 1298هـ/الموافق لـ 1881م بمدينة الوادي، من أسرة متوسطة الحال تدعى " العوامر"، أما والده محمد فقد كان تاجر يبيع الصوف ببلدة قمار، وكان يصحب ابنه ابراهيم للمتجر ليهيئه للتجارة ويستعين به، غير أن الأقدار قد وجهته توجيها آخر، حيث أظهر الصبي ميولاً للعلم والتعليم، فحفظ نصيباً من القرآن الكريم في صباه، وتلقى دروسا أولية في الأجرومية وابن

عاشر، وبعض مبادىء الفقه والنحو والصرف والأدب على يد شيوخ المنطقة ومنهم الشيخ عبد الرحمان العمودي والشيخ محمد العربي بن موسى الذي أصبح صهره، حينما تزوج الشيخ ابراهيم ابنته.

ولما بلغ أشدّه تجلت رغبته في الإغتراف من مناهل المعرفة والاكتراع من حياض العلم، فارتحل إلى الجريد بالجنوب التونسي لأخذ عن كبار مشائخها، ثمّ انتقل إلى تونس العاصمة لمواصلة دراسته بجامع الزيتونة، وتتلمذ علىأشهر مشائخه كالشيخ النخلي — الذي تأثر به أيضا الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية — كما تتلمذ على يد الشيخ الأخضر بن الحسين والشيخ الحسن بن يوسف وغيرهم.

وبعد أن أتمّ دراسته بجامع الزيتونة عاد الى الوادي وتوظف في سلك القضاء فاشتغل بالمحكمة الشرعية بالوادي برتبة " باش عادل ".

وقد باشر مهمته ضمن فضاء عالمي وجزائري متميز خلال العقد الأول من القرن الحالي، حيث كان العالم الإسلامي يعيش أحداثا حساما، منها ظهور وتبلور حركة الجامعة الإسلامية بقيادة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وغيرهما من الذين أثروا في المجتمع الإسلامي بأفكارهم المنشورة عبر الصحف والمجلات "كالعروة الوثقى". ومجلة "المنار" التي كانت لسان حال الحركة العبدوية، وكان لها صدى واسع في الجزائر، لأنها كانت بمثابة مدرسة إصلاحية متنقلة. كذلك الإنقلاب العثماني في سنة 1908 وما إنجر عنه من تغييرات في العالم الإسلامي كالهجوم الإيطالي على ليبيا عام 1911، وحروب البلقان

لتقليص رقعة الإمبراطورية العثمانية، وأحداث أخرى أدت إلى إشعال الحرب العالمية الأولى.

أما الجزائر فقد عرفت عهدا من الإستقرار النسبي على يد بعض الحكام العامين المعتدلين، أهمهم شارل جونار (CH. JONNART) الذي حكم الجزائر في الفترة الثانية من 1903 إلى 1911. والذي حث فيها السلطات الفرنسية على معاملة الجزائر معاملة حسنة لكونها مستعمرة من نوع خاص، حيث يجب الحفاظ على التقاليد الوطنية، ونشر التعليم باللغة العربية، وإحترام الشريعة الإسلامية والتخفيف من الضرائب والقوانين الجائرة، وتعيين الكثير من العلماء والفقهاء والقضاة والأئمة، وإنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية والمطابع لنشر التراث وتشييد المباني الضخمة وفق الطراز المعماري العربي الإسلامي مثل عمارة البريد المركزي بالعاصمة وغيرها من الأمور التي ترمي إلى الحفاظ على الجزائر عربية إسلامية، ولكنها مرتبطة بفرنسا إرتباطا وثيقا لا تنفصم إلى الأبد.

ففي هذا الفضاء العالمي والمناخ الوطني برز الشيخ إبراهيم العوامر على ساحة الوادي كمصلح ومرشد يدافع عن حمى الدين واللغة العربية والفضيلة، حيث شاعت الرذيلة نتيجة السياسة الاستعمارية في البلاد ؛ فانتشرت العادات الفاسدة في المجتمع كتعاطي الخمور والتفسخ والإعتداء على المحرمات، والكسب الحرام والتهريب والاحتكار والغش والرشوة وما إلى ذلك من الأمراض الاجتماعية. لهذا رفع الشيخ صوته عاليا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، واصلاح ما كان فاسدا ضمن خطة رسمها لنفسه، وذلك بجمع الناس حوله في

مسامرات دينية ودروس التفسير أو شرح سيدي خليل، وذلك يوميا بعد صلاة المغرب بجامع النخلة بحي أولاد أحمد بمدينة الــوادي.

واشتهر الشيخ العوامر بعلمه وبأسلوبه التربوي الراقي والمشوق الجــذاب، حيث تتسم دروسه بالفصاحة والسلاسة والــصراحة والــشجاعة والطرافــة والظرافة مما يجعل الكثير من تلاميذه، ورواده وأتباعه من مدينة الوادي ونواحيها كالطريفاوي والزقم وعميش وتاغزورت والعلندة وغيرها، تتزاحم على دروسه والاستفادة من علمه، في حين كانت اللغة العربية والثقافة الاسـلامية مهــددة بالإهمال لإعراض الناس عنها وإقبالهم على التعليم الفرنسي ضــمن الــسياسة الهادفة للتنصير والمسخ والفسخ للشعب الجزائري، وكان الــشيخ يــستعين في تدريسه بكتاب الشيخ النبهاني « إرشاد الحيارى وتحذير المسلمين مــن تعلــيم أولادهم في مدارس النصارى». حيث أدرك بوعيه الثاقب وعبقريته الفذة خطط الاستعمار الرامية إلى القضاء على اللغة العربية وإضــعاف العاطفــة الدينيــة والوطنية، فكرس كل جهوده وسخر جميع إمكانياته للدفاع عن حمى الــوطن، وبذلك استطاع أن يحافظ على صمود اللغة العربية والدين الإسلامي بتــشبث الناس بهما.

وما يكاد الشيخ أن ينتهي من التدريس في المسجد حتى ينتقل بعــد كــل عشاء إلى المنزل المخصص للندوات والسهرات مع الأصدقاء والرواد للمسامرة وقراءة الصحف والمجلات وتوعية وإيقاظ ضمائرهم بتتبع أحداث وأخبار مــا يدور حولهم. وكذلك تتبع أنباء العالم مثل جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطــالي وحروب الدولة العثمانية مع النصارى في البلقان أو الهجوم الفرنــسي علــى

المغرب الأقصى، وقد تتواصل هذه الندوات مع الشاي وبعض المرطبات أحيانا إلى ساعات متأخرة من الليل.

لم يقتصر نشاط الشيخ إبراهيم في التدريس والتوعية والترشيد، بل اقتضى بعد نظره اتخاذ الزوايا الدينية باختلاف طرائقها الصوفية كوسيلة أخرى لبلوغ أهدافه ونشر دعوته، ذلك أن هذه الزوايا كانت عبارة عن خلايا تضم العديد من طلاب القرآن، والمريدين والإخوان، وتعقد بها حلقات الذكر والمدائح، لذا فكر الشيخ في ربط صلات ودية مع هذه الزوايا والإنتماء إليها دون تحيز أو تعصب لواحدة دون الأخرى. فكان يتردد على زاوية سيدي سالم الرحمانية بالوادي لينشط داخلها، وقد ألف كتيب يمدح فيه مقدم الزاوية سيدي محمد الصالح تحت عنوان: « البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح »، وسنتحدث عنه فيما بعد.

كما كان يتصل بزاوية سيدي المولدي القادرية بمدينة توزر الجميلة لأنها تستقطب العديد من الطلاب وتضمن لهم الإيواء والغذاء والتعليم، فيقوم بالزيارة لها ليلتقي بالإخوان في القطر التونسي الشقيق ليمتن الروابط الأخوية ويتدارس معهم أحوال المسلمين عامة.

كم كان الشيخ المرجع والمفتي في الكثير من القضايا التي تطرح أمام المحكمة، وكان يسهل في افتائه ويخرج في بعض الأحيان من المذهب المالكي إلى غيره من المذاهب ليبسر ولا يعسر تماشيا مع قوله «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» صدق الله العظيم.

ورغم أخلاقه العالية، وطيبة نفسه، فقد عرف الشيخ بروحه الثورية وغضبه الشديد للظلم والاستعمار، مما أدى إلى مضايقته من طرف السلطات المحلية الجائرة، وقد دون لنا الشاعر المرحوم زهير الزاهري هذه الحالة في قصيدة الرثاء "إلى روح الشيخ إبراهيم بن عامر " بيما يلي:

إذا حلت بساحتك الصروف فذكرك في بني الدنيا نطيفُ

وأهل العلم كلهم ضحايا وعند الله مترلهم مُنيفُ

وفي دنيا المحاكم كنت حرا فما استهواك في حكم رغيفُ

إلى أن يقول:

وقد علمت ارشاد الحيارى وصوت الحكم في الوادي مَخُوفُ

ومن يجهر بإصلاح يعاقب وليس هناك قانون لطيف

ذلك أن الجزائر عاشت مع معظم بلدان العالم ويلات الحرب العالمية الأولى، وبعدها عرفت اجراءات وقيود جديدة ضمن ما يعرف بـ "منشورات كليمونصو" الصادرة عام 1919م. والتي تجازي الجزائريين على مساعدتهم لفرنسا والوقوف معها وقت الشدة، وبدل تنفيذ الوعود المعسولة أثناء الحرب، جاءت القيود المجحفة، لذلك اختلقت السلطات الحاكمة في الوادي عدة تهم باطلة ضد الشيخ – مثل قضية دية الأرامل اللواتي قتل أزواجهن على الحدود الجزائرية – الليبية من طرف الإيطاليين – مما جعلتها تحكم عليه بالنفي من مدينة الوادي وابعاده إلى بلدة أولاد جلال حتى تقطع عنه كل صلة بأتباعه وتلاميذته، وتبدد قوته الضاغطة، ضمن سياسة تفكيك كل الجماعات الضاغطة التي تخشاها في أي جهة من الجزائر.

وبعد أن مكث مدة لا بأس بها في الزيبان وتتلمذ عليه العديد من الطلاب أشهرهم نعيم النعيمي، حيث يقول زهير الزاهري في قصيدته:

وعلمت النعيمي المفدى وحمزة والزهور لها قطوف

فإما يضمر الأذناب طعنافمثلك في الرحال هم الأنوف

وكلهم لهم علم وذكر وأعلام الجزائر هم ألـــوف

سعى الشيخ العوامر لدى السلطات الفرنسية من أجل نقلـــه إلى مدينـــة الـــوادي، لكن سمحت له بالانتقال إلى مدينة تقرت باعتبارها قريبة من مسقط رأسه، ووجد في صديقه وجاره بالـــوادي العلامة الطاهر العبيدي خير أنيس، لهذا تكاثف نشاطهما في حقل العلم والمعرفة، مما جعل ابن باديس يقدم لهمـــا الدعوة لحضور حفل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ســـنة 1931م، ولكنهما اعتذرا واكتفيا بحضور تلاميذهم كحمزة بوكوشة ونعـــيم النعيمـــي وغيرهما.

وبعد أن عاش مدة طويلة نسبيا في تقرت أصيب الشيخ بمـــرض مفـــاجئ يقال له:" داء الوخم " رجع على إثره إلى مدينة الـــوادي حيث توفي فيها عام 1934م، رحمة الله عليه.

مساهمة الشيخ العوامر الفكرية:

للشيخ إبراهيم العوامر عدة أعمال فكرية هامة، منها ما انقرض وضـــاع ومنها ما هو محفوظ بيننا، وسنتعرض لها بإيجاز كالتالي:

– كتاب، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، وقد علق عليه ابن المؤلف الأستاذ الجيلاني بن إبراهيم العوامر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – مع – الدار التونسية للنشر، 1977، 360 صفحة.

يقول المؤلف في مستهل كتابه:" الحمد لله وحده، والصلاةوالسلام على من لا نبي بعده.

وبعد فهذه نبذة لطيفة ومسائل شريفة في بيان أحوال الصحراء وسوف وما إشتملت عليه من الحوادث والصروف، سائليها ولاة الأمور ومن حولهم رحى الأحكام تدور، وعلى الله الإتكال، وإليه المرجع والمآل.

وقد اعتمد العوامر في تأليفه أهم مصادر، منها: كتاب الشيخ العدواني، الذي هو تاريخ العدواني، وكتان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وابن أبي الدينار القيرواني، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، والعياشي، ماء الموائد أو رحلة العياشي، وإبن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار والمعروف برحلة إبن بطوطة، وإبن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، إبن عبد ربه، العقد الفريد، وغيرها.

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية والضرورية لدراسة تاريخ المنطقة، فهو عبارة على وثيقة تاريخية هامة جدا، لما تحتويه من معلومات غزيرة حول الصحراء وسوف.

- ومن أقطاب سوف ولي الله الصالح سيدي سالم مؤسس الزاوية الرحمانية بالــوادي، وقد أرخ الشيخ العوامر لهذه الزاوية وذكر أفضالها ومجــد علــى الخصوص ابن الشيخ سيدي محمد الصالح في رسالة، البحر الطــافح في بعــض فضائل شيخ الطريق محمد الصالح، حيث يقول حول جذور سيدي سالم:

« أسس الزاوية الولي الكامل المرحوم العامل، السائر في أوضح طرق القوم ذي المناقب الحميدة والأفعال الجميلة السديدة، الذي طار صيته في كل قطــر وبلاد، وأقر بعلو مقامه ذوو الأتباع والانقياد، وتواضع له أولو المكانة والاحترام والتعاظم، شيخ الطائفة الأعرج سيدي سالم نفع الله به وبفروعه أبد الآبــدين ودهر الداهرين آمين، ابن سيدي محمد بن محمد بن سيدي محمد بــن ســيدي نصر بن سيدي عطية الشريف من نسل الزائر بن ســيدي المحجــوب دفــين القيروان، قبره بها يزار إلى الآن ويشهد له كل النــاس بالــصلاح والكمــال والنجاح»

ويطبق الشيخ إبراهيم وصية جده محمدالعوامر بقولــه: « كــان الأســتاذ الفاضل والجهبذ الكامل جدي الشيخ محمد بن عامر ذو الكرمــات الظــاهرة والأسرار الباهرة، يخدم السالكين وسند الواصلين، الشيخ سيدي سالم الأعرج ذي القدم الراسخ في طريق القوم رضى الله عن الجميع، ونال منه مــا يبــهر العقول، كما هو متواتر بالتقول، وكان يوصينا بخدمة أولاد شيخه وأتبــاعهم ويحضنا على ذلك غاية، ويقول إنكم تنالون منهم إن شاء الله حقق الله ذلــك آمين، فمنّ الله علي بامتثال تلك الوصية، وجعلت أتردد عليهم في الزيارة وأنظر

في أحوالهم وسيرهم وخدمتهم مدة طويلة إلى أن تحققت الشيء، علمت أن متبع هم ينال بلا ريب... » [7]

ويقول الشيخ العوامر أيضا حول كرامة الشيخ محمد الصالح: « لازمت الشيخ سيدي محمد الصالح (رضي الله عنه)، حتى ظهرت لي الكرمات الخارقة والمقولات الصادقة، فأردت أن أذكر بعض ما رأيته أو سمعته من ثقة صادق بعد التتبع الشافي والتفحص الوافي، كان الله لنا ولإخواننا معينا آمين. فمن ذلك أني أتيته يوما في وقت القيلولة مع أستاذي وعمدتي وملاذي الورع الزاهد والحبر العابد شيخي سيدي عبد الرحمان العمودي (رضي الله عنه) ومنا به ونفعنا ببركاته آمين، فقال لنا الشيخ: إن سيدي علي بن عثمان الطولقي (رضي الله عنه) قد انتقل إلى عفو الله، رحمه الله الرحمة الواسعة، فسرى في عقولنا أنه أتى أحد من عنده، أو أتى جواب أو نحو ذلك، وغفلنا عن كون الشيخ علم ذلك من طريق الكشف، فلما خرجنا من عنده وقع في قلبي أن هذا الأمر لم يأت به أحد، ولا جاء في جواب، وإنما هو من الشيخ (رضي الله عنه)، فضبطت ذلك اليوم، وبقيت أسأل عن خبر وفاة الشيخ فلم أجد علما عند أحد، فلما مضت ستة أيام بعد التاريخ (08 شعبان عام 1316هـ / ماي 1898م) أتانا الخبر بأن الشيخ انتقل إلى رحمة الله منذ ستة أيام رضي الله عن الجميع .... ». أنظر:

– الشيخ سيدي إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر السوفي الوادي الشريف، البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق محمد الصالح، تونس، مطبعة بيكار وشركاه، 1323هـ. (1905).

- "مواهب الكافي على التبر الصافي، في نظم الكتاب المسمى بالكافي في علمي العروض والقوافي".

كتب على صفحته الأولى ما يلي: هذا الشرح للعالم الأجمل والفاضل الأكمل صفوة الأبراب وخلاصة الأخيار أبي الشيخ إبراهيم بن محمد بن عامر السوفي الوادي المصعي الشباطبي الشريف.

- الطبعة الأولى، بمطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1323هـ الموافق لـ 1905م. ويحتوي الكتاب على 72صفحة.

إستهل المؤلف هذه الرسالة بالبسملةوالحمد لله والصلاة والسلام علىنبينا، ثم ذكر ما يلي: «أني كنت مشتاقا إلى نظم الكافي، المسمى بالتبر الصافي. فيسره الله بعد ما كدت أيأس من التلاقي، فمتعت نظري به وبمانطوى عليه من المحاسن، فوجدته عسلا مصفى وماء غير ماسن، فحاز الله مؤلفه خيرا مما أودع فيه من الفوائد، وهذب ونقح وزاد من الدور اليتيمة ...، فرأيت أن أكتب عليه ألفاظا لطيفة، تفوز بحل مبانيه وتوضيح معانيه الشريفة، فبعد أن يسرت سيمتها مواهب الكافي على التبر الصافي، في نظم الكتاب المسمى بالكافي في علم العروض والقوافي. نفع الله بها كما نفع بأصلها والله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل».

وتحتوي هذه الرسالة على مقدمة وبابين وخاتمة في 68 صفحة. وهي دراسة أدبية ترد على كتاب الشيخ مولود بن الموهوب مفتي قسنطينة حول بحور الشعر الستة عشر، وخصص الخاتمة في ألقاب الأبيات وغيرها.

ويختم المؤلف هذه الدراسة بالعبارة التالية: «وكان الفراغ من هذه الكلمات عشية يوم الخميس الثاني وعشرين من جمادى الأخيرة عام 1322هـ إثنين وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ـ أمين ـ».

" النفحات الربانية على القصيدة المدنية "

الطبعة الأولى، بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد 75 تونس 1326هـ (1907م). ويحتوي على أكثر من أربعين صفحة.

يقول المؤلف في هذا الشرح بعد البسملة والحمد لله والصلاة والسلام على خير الخلق:» وبعد، فقد أشتهرت ؟ ناس بالعشق والهيام، بطيبة وساكنها، عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان من جملة أولئك أوحد الزمان، وعلامة الأوان، الذي ليس له مجاري في هذا الميدان بالمكان، أستاذي الشيخ سيدي الحاج علي بن الحاج نصر الجريدي، القاطن بنفطة الذي أشتهرت نسبته لفرقة بالزيدي، غاص هذه البحار الزاخرة، وأخذ من مضمونها لألئ فاخرة، من شذراتها القصيدة المدنية الباهرة، التي جعلها في توجهه للحجاز وبقاعه الطاهرة، وإعتنى بنقلها الطلبة لما فيها من اللوائح الظاهرة، ولما إنطوت عليه من ذكر المحبين وأنوارهم الزاهرة، وكان المطلوب من كل إنسان بأن يجعل في عمره شيئا من هذا الشأن ... وسميته ((النفحات الربانية، على القصيدة المدنية)). فأردت أن أشرح تلك القصيدة إقتداء بمن سلك هذا الطريق.... «

وهكذا ليظهر جليا مقاصد وأهداف هذه الدراسة كما بينه المؤلف في هذه المقدمة.

-"مطلع السعود تشطيرة أدبية الشيخ المولود"، نشر هذا الموضوع بجريدة "الفاروق" الأسبوعية، العدد56، سنة 1914م. لصاحبها عمر بن قدور الجزائري وقد تأسست في الجزائر العاصمة سنة1332هـ/1913م. ويقول عمر بن قدور:"أصدرنا هذه الجريدة سدا لثلمة عدم وجود جريدة إسلامية بكل معاني الكلمة في هذه العاصمة بل في هذا القطر. وليست لنا هناك غاية إلا تنوير الأذهان بمعرفة حقائق القومية الإسلامية ومعرفة ما يحدث في العالم مما يهمها معرفته. وهناك غاية أخرى وهي خدمة اللغة العربية وأيضا خدمة تاريخ القومية الإسلامية بنشر اسم الفاروق (ض) وتذييل الجريدة بترجمته. ".

وتعد جريدة "الفاروق" أول جريدة وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة وكانت إسلامية وطنية محضة، طالما اهتمت بقضايا المسلمين وحللت واقعهم المرير....

ويقول عمر بن قدور أنه اختار لها اسم "الفروق" لتكون بمشربها الاعتدال فارقة بين الحق والباطل، وآمرة بالمعروف ناهية عن النكر.

واهتمت أيضا بواقع المجتمع الجزائري البائس، فحاربت البدع والمنكرات التي تروجها بعض الطرائق الصوفية، ودعت إلى الرجوع بالدين إلى منابعه الصافية الأولى. مقاومة كل دعاوي التحجر والجمود التي تقف أمام تطورالمجتمعات الإسلامية، منددة بافكار الشباب الجزائريين المتفرنسين للمدنية الغربية، متأثرة في كل ذلك بافكار محمد عبده الإصلاحية.

ومن هنا كانت تتوج صفحاتها بهذا البيت:

قلمي لسان ثلاثة بفؤادي.. ديني ووجداني وحب بلادي.

وقد عرفت "الفاروق" رواجا كبيرا ونالت شهرة واسعة وصلت إلى الشرق، وكان ينشر فيها كوكبة من العلماء بافكارهم الإصلاحية، واستمرت على هذا النحو يحف بها الأدباء الامعون آنذاك، ومن بينهم شيخنا إبراهيم العوامر، أبو اليقظان، توفيق المدني، حسين الجزيري والطيب بن عيسى من تونس. فكانت الجريدة الإسلامية الوحيدة بالقطر الجزائري، فاتحة صدرها للكتاب التو نسيين الذين كانوامعولين عليها في هذه الفترة لتعطل جرائدهم بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وبعد أن صدر منها حوالي خمسة وتسعين عددا، وبعد فترة دامت عامين إلا شهرا منعتها السلطات الحاكمة عن الصدور اثر مقال كتبة عمر بن قدور ينتصر فيه للعثمانيين ضد الحلفاء. أنظر: د. محمد ناصر، الصحافة العربية الجزائرية، من 1847 إلى 1939، الجزائر، 1980، ص. 36-37.

-" المسائل العامرية على مختصر الرحبية ". طبع بتونس، 1907.

وقد عرف عن الشيخ إبراهيم أنه شاعر يقظ ثاقب الفكر وحساس وله أعمال أدبية وشعرية كثيرة حيث ألف العديد من القصائد في الشعر الفصيح والملحون سواء في الحماس أو المدح أو الهجاء، أو الرثاء أو الغناء، وبعض أشعاره نشرت وبعضها الأخر لم ينشر والكثير من قصائده في الغناء بعد أن لحنها بنفسه صارة النسوة تغنيها في الأفراح ولم تزل تغنى إلى اليوم. ومن أهم قصائده في الحماس هي التي قالها الشيخ أثناء الغزو الإيطالي لليبيا ليشجع أهل

طرابلس وغريان ويحثهم على الصمود في وجه الغزاة والدفاع عن حمى الوطن، ومواصلة القتال ضد العدو الغاصب، وهي قصيدة طويلة نذكر منها الأبيات التالية:

يا ليت في غريان سمح الطلة   دورات تبري كامنات العلة

لحزان تذهب والدرك يجلهوتصير في نزهات كيف العيد

يا ليت في غريان لي رباعه   من الصغر ثاروا ملازمين الطاعة

الباجي العايط يبدروا فزاعه   يقسوا العدو عن رفعة التقعيد

يالندرا غريان باتش فايزفي المال يحمل والغنائم حائز

بابور دولي بالمراكز حايزمن غير توقيف ولا تحييد

يالندرا غريان باتش نايم وبات ضده في هموم يلايم

يصبح بحرنا بالبوارط عايم   فيه للبابر هاربة ابتبديد

يا لندرا غريان باتش عالي وبات ضده في هموم يكالي

مخذول بين الناس كالزواليما بنصراش رفيق بالتوديد

يا لندرا غريان فيكش نعرهفيكش جماعة حازمة بالنغره

شجعان ما يولوش وقت الدغره يصلو العدو وشعله بلا تبريد

نوصيك يا غريان صد اشوارهحصن عليه الباب عند ازواره

واسقيه من كأس العذاب امراره واصل عليه الحب بالتغريد

نوصيك يا غريان جيب امقايص واجمع القوم العاريا واللابس

واهجم على الحيطان هد طرابلساتحوز الظفر من غير ما تكويد

نتبيك يا غريان هذى أوصاية   راهي جميع الناس ليك امرايه

يحصوا الفعايل كاملة باشفايه   هذاي نصحي ليك بالتوكيد

وغيرها من الأشعار الحماسية التي تدغدغ العواطف وتلهب المشاعر الجياشة.

هكذا فإن الشيخ إبراهيم العوامر من العلماء المغمورين المطموسين والمجهولين في هذا الوطن، رغم ما قدمه من أعمال جليلة ما زالت آثارها وبصماتها واضحة على مجرى حياتنا الثقافية والفكرية.

وقد أيقن الشيخ منذ البداية بأن إنقاذ الشعب وخروجه من وضعيته الصعبة والمزرية، وفك الإرتباط من الإستعمار، ومحاربة الجمود والركود، والخضوع والخنوع، سبيله الوحيد هو نشر العلم وتنوير العقول، لذلك كرس حياته وأفناها في سبيل إيقاظ الناس للنهوض بمسؤولياتهم من أجل تغيير وضعهم وتصحيح مجرى حياتهم بطرد الغاصب المحتل.

ومهما يكن فقد تحققت أحلام الشيخ بعد ربع قرن من رحيله وذلك بإستقلال الجزائر سنة 1962م وإسترداد سيادتها وكرامتها.

وأخيرا نرجوا من هذه المحاولة تعريف الخلف برجال السلف، وإماطة اللثام على بعض جوانب هذه الشخصية الفذة والتي تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة لتمجيد أعمالها والإستفادة منها.

ذكريات..
عن العلامة الطاهر التليلي.

فقدت الجزائر في الأيام الأخير كواكب مضيئة من الأعلام وهم {{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}}، لأنهم من العلماء الذين رصعت أعمالهم سماء دنيا الثقافة والمعرفة في هذا الوطن العزيز، وقد برزوا بنشاطهم وعلمهم في أحلك الظروف التي عاشتها الجزائر، أيام الغطرسة والقهر الاستعماري، وبرزوا كذلك في عهد الاستقلال، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ محمد نسيب، والشيخ محمد الطاهر بن بلقاسم التليلي والشيخ أحمد سحنون، رحمهم الله جميعا.

ونخصص هذه القالة للشيخ محمد الطاهر التليلي، الذي توفي يوم الأربعاء 17 رمضان 1424هـ/12 نوفمبر 2003م، بمدينة قمار(وادي سوف) عن عمر يناهز 93 سنة، حيث رغبنا أن ندون هذه السطور تقديرا وعرفانا لهذه الشخصية التي تعد بإجماع أهل سوف والوسط الثقافي والديني والعلمي في الجزائر، من رجال الإصلاح والتقوى والتعليم. فهو أحد علماء المنطقة الذين ساهموا في نشر العلم والمعرفة بتواضع كبير منذ عهد بعيد. وبقدر ما كان الشيخ متواضعا زاهدا بقدر ما كان شامخا يحبه الناس ويقدرونه ويشتاقون للجلوس إليه وتقرب منه للاستفادة من علمه وحديثه الشيق.

ينتمي الشيخ محمد الطاهر إلى أسرة عريقة في العلم والدين، فتح عينيه بقمار وترعرع بها وحفظ القرآن العظيم ومبادئ العلوم الدينية والأدبية على يد

شيوخ المنطقة، غير أنه لم يكتف بهذه المعارف، لذلك توجه الفتى إلى جامع الزيتونة المعمور بتونس، سنة 1927م رفقة زميلين وعالمين من أعلام الحركة الإصلاحية في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهما:عبد القادر الياجوري، وعلي سعد خرن، وبعد حوالي سبعة سنوات تحصل الشيخ الطاهر التليلي على شهادة التطويع، فرجع إلى مسقط رأسه يحمل آمالا عريضة بما اكتسبه من معرفة وأفكار نيرة، إغترفها من الينابيع الصافية للعلم وأصول الدين، ولتنفيذ ذلك الهدف الكبير شرع الشيخ الطاهر في التدريس بقمار ثم حاول التدريس بإحدى قرى بجاية ضمن مدارس جمعية العلماء، وأخيرا بمدرسة النجاح للتعليم العربي التي أسسها بقمار ضمن التعليم الحر- دون أن تنضم إلى مدارس جمعية العلماء خوفا من الإغلاق من طرف الحكم العسكري الجائر بالوادي -، والجدير بالذكر أن هذه المدرسة من المدارس الأوائل في الجزائر التي تعلمت بها البنات وفي تلك المجتمعات المنغلقة خلال تلك الظروف القاهرة والحالكة.

لقد تدعم مشروع الشيخ التليلي بزيارة وفد جمعية العلماء المسلمين برئاسة الإمام عبد الحميد بن باديس إلى سوف في شهر ديسمبر 1937م، وقد خلد الشاعر محمد الطاهر التليلي هذه الزيارة بقصيدة قرأها أثناء استقبال الوفد بقمار مطلعها:

هيّ يا قرية الرمال وهيّ واجبات اللقاء إلى خير وفد

مرحبا بالذين هبوا لحق أهله ضيعوه عن غير عمد

نفخوا في البلاد روحا فأمست أمة تعرف الحقوق وتفدي

استمر الشيخ محمد الطاهر التليلي في مهمته النبيلة في ظروف شاقة وعاتية، وتعرض لصعوبات جمة في حياته ولم يجد في مجتمعه وبلدته ما كان يصبو إليه، وقوبل بكثير من الجفاء والجحود ونكران للمعروف من محيطه، رغم ما قدمه من مجهودات لتنشئة الجيل الصاعد وتحضير إطارات جزائر الغد، جزائر الاستقلال.

وبعد أن استرجعت الجزائر استقلالها وحريتها، لم يعترف له في فضائه بالجميل، بل عرف الإهمال ولا مبالاة، فكانت له صدمة كبيرة، غير أنه اندمج -الشيخ- في إطار المعلمين التابعين لوزارة التربية، مثل باقي معلمي جمعية العلماء وغيرهم.

تعرفت على الشيخ محمد الطاهر التليلي في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي، حينما كان الشسخ يتردد على المفتشية التربوية وعلى مدرسة المحطة بالوادي من أجل الاجتماعات والندوات التي تقام هناك، وقد كنت أراه دائما بشوشا مشرق الوجه، يجلب الانتباه ويلفت النظر بهندامه الجميل وخاص جبته الزيتونية مع سحنته الضاوية، وحديثه الهادي. وكانت بيني وبين الشيخ مودة ومؤانسة نلتقي من حين لآخر في هذه المناسبات نتبادل فيها الأفكار والآراء المختلفة، ونتحدث عن التعليم وعن الثقافة العربية الإسلامية، وأستفيد من أراءه وعلمه، وقد ازدادت بيننا الصداقة والود- رغم فارق السن- حينما شرعنا في تشييد نادي للمعلمين بالوادي باشتراكات سلك التعليم وأموالهم، فكنا نستخبر عن سير عملية البناء وجمع الاشتراكات في مقر المفتشية عند صديقنا عبد الرزاق بوطيب، كاتب التفتيش، وهكذا استمر اللقاء

إلى أن تم تدشين النادي في بداية السبعينيات – وهو اليوم شيء آخر للأسف–، تلك هي بعض الذكريات البعيدة، حسبي أنها طيف من خيال داعبت ذاكرتي.

تقاعد الشيخ سنة 1972م، ولازم بيته، وفضل العزلة والتفرغ لقراءة القرآن والتأليف والعبادة، و لم أراه منذ ذلك الوقت، ولأكثر من ثلاثين سنة خلت، لكنني كنت أتابع أخباره من بعيد، حيث كان الأستاذ سعد الله يحدثنا عنه وينشر عنه مقالات ودراسات منها مقالة((من ديوان "الدموع السوداء"))في مجلة الثقافة عدد 55 (يناير–فبراير 1980)يقول فيها على الخصوص:"...والشيخ محمد الطاهر التليلي القماري صاحب القصيدة التالية، جمع علوما شتى من العلوم التي نسميها اليوم "قديمة" فهو فقيه يعد مرجعا في أصول الفقه وفروعه، وهو مفسر ومحدث يعرف دقائق الآيات وأسرار الأحاديث، وهو أديب لغوي حافظ لا ينبو عنه شارد اللغة ولا نادر الشعر. إنه خزانة علم مضى على إعدادها سبعون سنة(ولد الشيخ بقمار سنة 1910م)من الجمع والانتقاء والتعهد. ...". أما الدراسة المنشورة لأبي القاسم سعد الله في كتابه، أفكار جامحة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص. 199–207. تحت عنوان – "شيخ علم ودين "– عرض فيها المؤلف شخصية الشيخ محمد الطاهر التليلي وعرف بإنتاجه الفكري الذي لا يراه هو شيئا ذا بال ونراه نحن كثير الأهمية والذي ما يزال مخطوطا حبيس خزانته. وهذه بعض أعماله:

- نظم متن الورقات في الأصول للجويني.
- أوليات تاريخية.

- نظم متن الاستعارات للسمرقندي.
- مسائل فقهية(فـــتاوي).
- الدرر الملكية في الدراري الفلكية.
- زهرات لغوية.
- إتحاف القاري بحياة خليفة بن حسن القماري. (مطبوع).
- رسالة في بعض الرموز الفلكية والفقهية.
- حديث المسامر من صروف ابن عامر.
- رسالة في الأذكار الشرعية.
- ديوان شعر سماه (الدموع السوداء).
- تجريد شعر مقامات الحريري.
- رسالة في الأمثال العامية.
- رسالة في الكلمات العامية الشائعة في لهجة أهل سوف(تقرب من أربعـــة آلاف كلمة حتى الآن).
- تلخيص كتاب الأضداد (للتوزي).
- مجموعة في تاريخ سوف منذ القدم (تواريخ، وفيات، شخصيات، شـــعر ملحون الخ).
- كشكول تاريخي أدبي عن سوف والصحراء عموما.
- قصة الشيخ العحوز (وهي نظم).

كما كنت أتابع أخباره من الأصدقاء في قمار، غير أن عزلته قـــد ازدادت خلال العشرية الحمراء، بعدما شاهدت المنطقة أحداث خطيرة ومؤلمـــة، وأراد

بعضهم إقحامه في ذلك الصراع الدائر بين الأشقاء بإصدار فتاوي معينة، فأبى ذلك، لأن الشيخ يؤمن بالآية الكريمة: {{أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين }} -صدق الله العظيم-(سورة النحل -الآية 165)، لهذا مكث في بيته لا يغادره، بل ورفض استقبال زواره، مهما كانت مكانتهم العلمية والاجتماعية، بالرغم من إلحاح بعض الشخصيات العلمية لمقابلته.

وخلال الندوة الفكرية الثانية للشيخ عبد القادر الياجوري، التي تنظمها الجمعية الثقافية للمركز الثقافي "محمد بجور" ببلدية قمار، ولاية الوادي. والتي شاركنا في فعالياتها، قررنا مع بعض الزملاء زيارة الشيخ، وفي مقدمة هؤلاء الزملاء الأستاذ د. مسعود كواتي أصيل البلدة وقريب الشيخ، ومعنا أيضا الدكتور محمد الأمين بلغيث ود. محمد الشريف سيدي موسى وذلك مساء يوم الأربعاء 10 أكتوبر 2001م، فاستقبلنا في بيته الخاص بالضيوف بكل حفاوة وترحاب من بعد صلاة العصر إلى آذان المغرب، فكانت جلسة تاريخية تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث، ومن جملة ذلك سألته، هل مازلت تذكرني يا شيخنا؟ فقال لي نعم وإني أتابع ما تنشره، وخاصة ما كتبته عن تاريخ منطقة سوف وأني أحتفظ بتلك الكتابات عندي، وكان لذلك وقع طيب في نفسي، ثم قرأنا له بعض الأبيات من آخر قصيدة له يريد تقويمها ويستمع لها بقراءة غيره، وكان يصحح لنا بعض اللحن والهفوات، ويقيم ما بها من أغلاط. ويظهر أنه في صحة جيدة وكان يتحرك بحيوية ونشاط كعادته، وكان يحمل في يده نظاراته السميكة وقلمه ليصوب به الأخطاء، وقد أكرمنا بأكواب الشاي مع

"الكاوكاو"، وكان يبدو عليه بعض الحياء والإحراج حينما نغوص في بعض القضايا الشائكة، وخاصة حينما تطلب منه أن يطلعنا على بعض مؤلفاته، فيقول: " سأعطيها إلى بلقاسم وهو يقدمها لكم"، وهو يقصد صديقه الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي كان في الأردن في ذلك الوقت، ويبدو أنه يثق فيه ثقة عمياء، وقبل أن يودعنا ويستعد لصلاة المغرب سمح لنا بزيارة حجرة مكتبته وفتح لنا خزانة مخطوطاته، فاطلعنا على بعضها ونحن على عجل لأن الآذان قد رفع، فودعنا على أمل اللقاء معه مرة أخرى. فقد رحل الشيخ عن هذه الدنيا دون أن نلتقي للآسف.

أقيمت للشيخ محمد الطاهر التليلي –حسب ما علمنا به– جنازة مهيبة حضرها جمع غفير من الناس وحتى من بعض خصومه وهي شهادة على أن الشيخ كان على حق أزهق به باطل متفش في مجتمعه. لقد كان الشيخ مثالا للأخلاق العالية والصدق في العمل، وهو من أعلام الجزائر الذين دفنوا وهم أحياء للأسف، حيث عاشوا وماتوا في الظل.

تبقى كلمة أخيرة يجب الإدلاء بها وهي أن على كل الدوائر الرسمية والشعبية والثقافية في البلاد أن تعمل على إخراج تلك المخطوطات وكل إنتاجه الفكري إلى النور حتى يستفيد منه كل المهتمين بالثقافة والتاريخ، وكل الأجيال الصاعدة في الوطن وخارجه، أثاب الله شيخنا صنيعه، وغفر له ذنوبه، ورحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فساح جنانه. آمين والحمد لله رب العالمين.

د. إبراهيم مياسي.

المحور الثالث

كتابة تاريخ الثورة الجزائرية

التقديم:

تعتبر الكتابة حول تاريخ الجزائر جد مهمة، وتزداد هذه الأهمية خاصة حول تدوين تاريخ الثورة، لما في ذلك من حفظ لوقائعها ومسارها وقيمها من ناحية ولمنحنياتهاومنعرجاتها من ناحية أخرى.

ذلك أن الثورة التحريرية الكبرى سعت منذ الوهلة الأولى وبكل ثقلها إلى تحرير الإنسان الجزائري من كابوس الاحتلال الفرنسي، وعملت على الدفاع عن الأرض والعرض، ودحض العدو الغاشم الذي جاء من وراء البحر لينشر الدمار والخراب وينهب خيرات وثروات هذا الشعب العريق، بل وعمل على طمس معالم حضارتنا وتراثنا الفكري والعلمي العظيمين، واجتثاث جذور شخصيتنا الوطنية بمحاربة الدين الإسلامي واللغة العربية، ونشر دياناتهم المسيحية وثقافتهم الغربية.

إن ذكرى أول نوفمبر الخالدة محطة بارزة من مسيرة الثورة الكبرى، وتاريخها المجيد، حيث مثلت هذه الثورة جملة التفاعلات الحقيقية لكل أفراد الشعب، وقضت على الفوارق الطبقية والاجتماعية وعلى الجهوية والإقليمية البغيضة، فكانت الثورة شاملة تغطي جميع القطاعات والمقاطعات الجغرافية للوطن، واحتضنها الشعب في حضنه الدافئ. لأنها بمثابة عقد ازدياد جديد

لشعبنا الذي لم يكن أي شئ قبل ذلك، فأصبح كل شئ أثناء الثورة، ورفع شعار " الثورة بالشعب وإلى الشعب"، و"لا بطل للثورة غير الشعب".

لاشك أن تاريخ الجزائر عموما وتاريخ الثورة خصوصا ما زال يعتريه الكثير من الضبابية ويكتنفه الغموض والتشويه في عدة جوانب، ولا سيما أن أغلب ما كتب كان بأقلام فرنسية ذاتية زودت المكتبات ومختلف دور العلم والمعرفة بكتابات ودراسات تحتوي على الكثير من المغالطات التاريخية التي تسئ إلى رموز الثورة وقادتها، في محاولة منها لتقزيم دورهم من جهة والتشكيك في نواياهم وأهدافهم الوطنية من جهة أخرى، وذلك بغرض ضرب الثورة في رموزها التي انتصرت أمام كل العالم في ميدان المعركة، على اعتى قوة ألاوهي القوة الأطلسية.

ضرورة كتابة تاريخ الثورة:

إن الثورة الجزائرية هي إحدى الثورات الكبرى في هذا العصر، وهي ثورة عظيمة، غير أن ما واكبها وقابلها من كتابات حولها لم يكن في مستوى عظمتها، حيث تعددت الكتابات في أساليبها وأهدافها من خلال تباين الأفكار، وتنوع المشارب، بين كاتب يحب الجزائر حتى الثمالة ويقدس ثورتها، وكاتب يحقد على الجزائر ويدس لها محاولا تحجيم كل إنجازاتها بما فيها الثورة المظفرة، وعلى العموم فان حقيقة ما أنتج منذ استرداد الاستقلال إلى يوم الناس هذا في حق ثورة عملاقة قليل جدا لا يتجاوز بعض العشرات من الكتب والدراسات.

و لتغطية هذا العجز أدرك أصحاب الفكر من المسؤولين والأساتذة والمجاهدين والمناضلين والإعلاميين الخلص لوطنهم مقدار ثقل هذه الأمانة، وشعروا بهذا الهم الكبير، فأسست مؤسسات عديدة من أجل تحقيق هذه العاطفة والغاية والرسالة، إما تابعة للرئاسة أو تابعة لوزارة المجاهدين أو وزارة الثقافة أو الجيش الوطني الشعبي، مثل المركز الوطني للأرشيف، والمتحف المركزي للجيش، والمتحف الوطني للمجاهد، ومتاحف أخرى، والمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وغيرها. كما أنشأت جمعيات وهيئات محبة في جمع وحفظ وكتابة ذاكرة هذه الأمة، مثل المنظمة الوطنية للمجاهدين، ومشعل الشهيد، وجمعية 11ديسمبر، والجمعية الوطنية الثقافية محمد الأمين العمودي، والجمعية التاريخية للشيخ العدواني بوادي سوف، أو الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية ببسكرة وغيرها.

ومنذ فجر الاستقلال بدأت المدرسة التاريخية الاستعمارية تدرك خطورة أن يكتب الجزائريون تاريخهم، وخاصة المعاصر منه، والدليل على ذلك أنه في أقرب فرصة بعد الاستقلال استطاع أحد الصحافيين البارزين والكتاب الممتازين أن يخرج لنا بمجموعة رهيبة من المعلومات والدراسات عن الثورة وهو " إيف كوريار" (YVES COURRIERE)، المولود سنة 1935 بباريس، وقد غطى منذ 1957م كل النقاط الساخنة في العالم، حيث تحصل سنة1966، على جائزة "البير – لوندر " (Albert-Londres) لأحسن تحقيق صحفي، ومن 1958 إلى 1962 اهتم بأحداث الثورة الجزائرية، وعمل على تغطية الجانب السياسي مباشرة على أرض المعركة.

ومنذ سنة 1957م بدأ في تحرير كتابه الأول بعنوان، أبناء جميع القديسين، الذي تحدث فيه بالتفصيل عن أحداث عشية اندلاع الثورة، ثم مجريات انطلاق الثورة ومسيرتها حتى عام 1955م. وتوج هذا الكتاب سنة 1970م بجائزة الأكاديمية الفرنسية، ولقي استقبالا كبيرا من طرف القراء والنقاد وبيع منه أكثر من 500ألف نسخة. وقد صدر لأول مرة في باريس سنة 1968م. أما الكتب الأخرى فهي كمايلي:

- الكتاب الثاني: وقت الفهود: تمتد أحداث هذا الكتاب من سنة 1955م حتى آخر شهر سبتمبر 1957م. صدر بباريس سنة 1969م.
- الكتاب الثالث:ساعة العقداء: يغطي أحداث الثورة خلال سنوات 1957–1960م. صدر بباريس سنة 1970م.
- الكتاب الرابع: نيران اليأس: تحدث فيه الكاتب بالتفصيل عن الأحداث الخطيرة والكارثية طوال سنوات 1960 – 1962م. صدر بباريس سنة 1971م.

ومعنى ذلك أنه كان يصدر كل سنة كتابا، بدون أن يرجع للأرشيفات، أو الوثائق الحية، فأعتمد على ما عايشه من وقائع وعلى شهادات من هنا وهناك، وخاصة من صانعي بعض الحوادث، منهم على الخصوص كريم بلقاسم الذي له صورة معه، وفرحات عباس وبعض الضباط الفرنسيين، وقد أدمج في هذه الكتب الأسطورة التاريخية مع الرواية الأدبية فجاء قريب من القصة منه إلى التاريخ، فهي إذن عبارة عن رواية رائعة متينة بلغتها الجيدة وأسلوبها الجميل السلس مع تنوع حكاياتها.

ونظرا للفراغ الرهيب في تاريخ الثورة، وعدم امتلاك الجزائريين لمادة مكتوبة فإن الرجوع إلى هذه المصادر والمراجع فيه خطورة بمكان، ورغم ذلك فعلى الباحثين في التاريخ الإطلاع على هذه الكتابات، بعد إخضاعها للغربلة والفرز والفحص والنقد الباطني.

رصد ما كتب عن الثورة:

يمكن تقيم ما كتب عن الثورة منذ الاستقلال إلى اليوم، على أنها في الغالب عبارة عن آراء ووجهات نظر للكتاب، لم تعتمد على المناهج العلمية والدراسات الأكاديمية وأهملت الوثائق الأرشيفية في أبحاثها، منها أرشيفات الثورة، والأرشيف الفرنسي الذي هو جزء من الذاكرة المشتركة بين عدوين يقعان على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، الغازي الفرنسي الذي اعتداء على بلدنا في 1830–1962، والمجاهد الجزائري الذي حرر الوطن وأعاد له كرامته وسيادته ورايته وإدارته، وبالتالي دولته الوطنية المستقلة.

ومن المصادر الأساسية للثورة الشهادات الحية للمجاهدين، وشهادات أناس بسطاء عايشوا الثورة، وسلط عليهم بعض العذاب وأدخلوا إلى مراكز التعذيب، وشاهدوا الأسلاك الشائكة في الشرق والغرب.

وقد أقيمت لهذه الشهادات ملتقى وطني هو الملتقى الأول لتاريخ الثورة لعام 1981م، وطبع أعمال هذا الملتقى في كتاب يحتوي على وثائق ومعلومات رائعة للغاية، يحتاج إليها المؤرخ ويستفيد منها فائدة جيدة في كتابة أبحاثه.

كذلك عرفت الجزائر خلال التسعينيات من القرن الماضي(القرن العشرين) ظاهرة إيجابية جدا تتمثل في سيل من المذكرات على اختلاف أحجامها

وألوالها وذاتيتها وإيديولوجيتها، ووثوق شهاداتها منها مذكرات الرئيس علي كافي، والرائد سي لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة، الجزائر، دار الحكمة، 1990، 273 صفحة. والهادي إبراهيم المشيرقي، قصتي مع ثورة المليون... شهيد. الجزائر، دار الأمة، 2000، 629. وغيرها من المذكرات مع غض النظر عن بعض القراءات المغلوطة والتفسيرات المغرضة، لبعض المعلومات لأن ذلك يدخل في الأمور الشخصية.

كما شارك في الكتابة عن الثورة أدباء متعددي المشارب من حيث تخريجاتهم وتأويلاتهم وصوروا بعض حوادث الثورة في قالب أدبي منهم الأديب الطاهر وطار في قصة "اللاز" ومولود معمري في "الربوة المنسية" التي تحولت إلى فيلم "الأفيون والعصا"، والتلي بن الشيخ في الأشعار الشعبية، ومحمد العيد آل خليفة في قصائده الرائعة، ومفدي زكريا في اللهب المقدس، ومحمد الأخضر السائحي في الشعر الثوري، وغيرهم ممن قالوا في الثورة.

وهناك الكتابات الجامعية وهي الكتابات الراقية، بحث تحاول الجامعة المشاركة في كتابة تاريخ الثورة عن طريق أساتذتها من جهة، وعن طريق الأشراف على الرسائل الجامعية من ماجيستير ودكتوراه، والتي تحرر بأسلوب علمي أكاديمي طبعا.

وفي الأخير الكتابات الصحفية وتحقيقاتها مثل جريدة الشعب والمجاهد، ومجلة أول نوفمبر ومجلة الجيش، ومجلة الثقافة والأصالة وحوليات الجامعة وغيرهاكلها ساهمت في تدوين المعارك التي عرفتها الجزائر في الأوراس وجرجرة والونشريس وفي الصحراء وفي أماكن نائية جدا.

ومن الكتب البارزة في تدوين تاريخ الثورة من قبل الأخوة الأشقاء العرب كتاب مسؤول المخابرات المصرية في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وهو:

– فتحي الديب، عبد الناصر وثورة الجزائر، القاهرة، دار المستقبل العربي، 1984، 736 صفحة.

يتضمن هذا الكتاب أحداث وأسرار مسيرة نضال أبناء الأمة العربية بدول الشمال الإفريقي مع تركيز خاص على الثورة الجزائرية ودور مصر الثورة في مساندة هذا الكفاح حتى تحقق لشعوب أمتنا في هذه المنطقة استقلالهم وفرض إرادتهم الحرة على أرضهم.

وأهمية هذا الكتاب لا ترجع إلى كم الوثائق والمستندات الذي يضمه فحسب والتي تنشر لأول مرة، بل للدور الهام الذي قام به كاتبه.. فقد تولى فتحي الديب مسئولية الشئون العربية منذ قيام ثورة يوليو وحتى وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وشغل مناصب سياسية وتنفيذية متعددة من بينها أمين الشئون العربية بالاتحاد الاشتراكي العربي، وأمين عام القيادة السياسية الموحدة مع العراق، وأمين عام ميثاق دول طرابلس، وكان دائما قريبا من صنع القرار ورسم سياسة مصر العربية، ولعب دورا خاصا حيال ثورة الجزائر حيث كان حلقة الوصل بين مصر الثورة، والثورة الجزائرية.

كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن المادة الأولية لكتابة تاريخ الثورة غزيرة جدا، وتحتاج إلى جيش من المؤرخين والعلماء المخلصين لرسالتهم، حتى يتم تنفيذ الغرض المطلوب والنبيل، وهو تغطية كل وقائع الثورة وكتابة تاريخها

المجيد بكل نزاهة وموضوعية، ليصل إلى الأجيال الصاعدة، نقيا نقاوة الثوب الأبيض من الدنس، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إبراهيم مياسي

بعض الإصدارات بالفرنسية:

YVES COURRIERE, La Guerre d'Algérie, 4 Tomes,

LES FILS DE LA TOUSSAINT- Préface de Joseph KESSEL de l'académie française ,Paris,Arthéme Fayard,1968-Alger, RAHMA, 1992,483 pages .

LE TEMPS DES LEOPARDS,Paris, ArthémeFayard,1969,697 pages .

L'HEURE DES COLONELS,Paris, Arthéme Fayard,1970,516 pages .

LES FEUX DU DESESPOIR, Paris, Arthéme Fayard,1971,795 pages .

FRANCIS ET COLETTE JEANSON, L'ALGERIE HORS LA LOI, Alger , ENAG,1993,353 pages .

Paul Aussaresses , Services spéciaux, Algérie 1955–1957, Paris, Perrin,2001,199 .

MOHAMMED HARBI , LE FLN MIRAGE ET REALITE , Des origines à la prise du pouvoir 1945- 1962, Alger, NAQD/ENAL ,1993,440 pages .

محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، سراب (وهم خادع) وحقيقة.

BENYOUCEF BEN KHEDDA ,Les Origines du premier Novembre 1954,Deuxiéme édition ,revue et augmentée,ALGER, Editions du Centre National d'Etudes et de recherches sur le Mouvement National et la Révolution du 1er Novembre 1954,2004,441 pages .

ابن يوسف بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954م.

SAAD DAHLAB , MISSION ACCOMPLIE , Alger, Dahlab, 1990, 347pages .

سعد دحلب، مهمة منجزة.

Mabrouk BELHOCINE ,Le Courrier - Alger – Le Caire,Alger, .CASBAH, 2000, 348 pages

مبروك بلحسين، بريد الجزائر – القاهرة.

Abderrezak BOUHARA , Les Viviers de la libération , Alger, CABAH,2001,334 pages .

عبد الرزاق بوحارة، أحواض التحرير.

– الشراقة في أول رمضان 1425هـ/15 أكتوبر 2004م.

مساهمة القل في هجوم 20 غشت 1955م
من خلال شهادة المجاهد بكوش صالح بن رابح

تقديم:

للجزائر أيام وأعياد وذكريات تاريخية خالدة في مسيرتها النضالية، نحتفي بها في كل مناسبة لنتذاكر أمجاد ماضينا، ونحول هذه الذكريات إلى معالم ومصابيح تضيء طريق الأجيال الصاعدة، بعد أخذ العبر منها.

ذلك أن الثورة التحريرية الكبرى سعت منذ الوهلة الأولى وبكل ثقلها إلى تحرير الإنسان الجزائري من كابوس الاحتلال الفرنسي، وعملت على الدفاع عن الأرض والعرض، ودحض العدو الغاشم الذي جاء من وراء البحر لينشر الدمار والخراب وينهب خيرات وثروات هذا الشعب العريق، بل وعمل على طمس معالم حضارتنا وتراثنا الفكري والعلمي العظيمين، واجتثاث جذور شخصيتنا الوطنية بمحاربة الدين الإسلامي واللغة العربية، ونشر ديانتهم المسيحية وثقافتهم الغربية.

إن ملحمة أوت 1955م محطة بارزة من مسيرة الثورة الكبرى، وتاريخها المجيد، حيث مثلت التفاعلات الحقيقية لكل أفراد الشعب، وقضت على الفوارق الطبقية والاجتماعية وعلى الجهوية والإقليمية البغيضة، فكانت الثورة شاملة تغطي جميع القطاعات والمقاطعات الجغرافية للوطن.

مقدمات حوادث أوت 1955م

عرفت سنة 1955م عدة وقائع تاريخية، منها استشهاد واعتقال عدد من أبطال الثورة وزعمائها، فاستشهد القائد البطل ديدوش مراد، قائد المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) في يوم 13 جانفي 1955م، وإلقاء القبض على الزعيم مصطفى بن بولعيد على الحدود التونسية – الليبية وأسره خلال شهر فيفري 1955م، واعتقال المناضل رابح بيطاط قائد المنطقة الرابع، بعاصمة الجزائر يوم 13 مارس 1955م ولكن الثورة لم تتأثر كثيرا و لم تتوقف عن سيرها وزحفها؛ غير أن السلطات الاستعمارية الفرنسية اعتقدت أنها قادرة على إبادة المجاهدين الأوائل والقضاء على الثورة، وذلك بضرب حصارا مشددا على منطقة الأوراس، فكثفت من عملياتها العسكرية على سكان الأوراس حتى تخنق أنفاس الثورة، إلا أن قادة الثورة في الأوراس وبالتنسيق مع القادة الآخرين عملوا على فك هذا الحصار حسب إجراءات عديدة منها:

السير نحو الجنوب قبل الشمال:

حيث دعت قيادة جيش التحرير الوطني المؤلفة من **بشير شيحاني** – الذي خلف مصطفى بن بولعيد بعد اعتقاله على الأوراس – وعباس لغرور والأزهر جدري إلى اجتماع عام بوحدات الجيش يوم 1955/07/29م بمركز الجيلاني بن عمر الكائن بأم الكماكم بالجبل الأبيض بالقرب من سكياس الذي يبعد عن بئر العاتر بحوالي 50 كلم. وكان جدول أعمال الاجتماع يتمحور حول التخطيط والتحضير لعمليات عسكرية واسعة النطاق في إقليم سوف بالجنوب الشرقي الجزائري.

ذلك أن هذه العمليات تعتبر من المقدمات والممهيدات للهجوم التاريخي ليوم 20 أوت 1955م بالشمال القسنطيني والذي يخلد الذكرى الثانية لنفي محمد الخامس العاهل المغربي إلى جزيرة مدغشقر من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية، وقد اختير هذا التاريخ لإبراز التضامن مع كفاح الشعب المغربي الشقيق، وغضب رجال الثورة عن أفعال الاستعمار الشنيعة وإظهار البعد المغربي للثورة.

وبعد أداء التحية العسكرية، طلبت القيادة في الولاية الأولى من الجيش التطوع من أجل التوجه إلى منطقة وادي سوف وهي طبعا مهمة صعبة وخطيرة باعتبار المنطقة صحراء مكشوفة وخالية من الشجر والمدر، فضلا على أن شهر أوت يمتاز باشتداد القيظ، فالإنسان معرض فيه دائما إما لضربة شمس أو إلى الظمأ الشديد أو حتى إلى لسعة حية وغير ذلك من الأخطار، فهي إذن مهمة إستشهادية (كاميكازية). ولهذا فإن القيادة لم تأمرهم و لم تعين أفراد البعثة بل طلبت منهم الترشح إليها برفع الأيدي. وفي هذه اللحظة الحاسمة تطوع أربعة وثلاثون مجاهدا.

وقد استندت مسؤولية هذه الفصيلة للقائد محمد الأخضر، نظرا لحنكته ولمعرفته للمنطقة وأهلها، فهو من سوف من أولاد عمارة بالدرميني فرع أولاد زيقزاوا فهو من الربايع الذين يجمعون بين عيشة البدو والحضر.

في صبيحة اليوم الثاني تم توديع الدورية بتحية عسكرية من إخوانهم المجاهدين،بعد أن سلم لكل واحد أربعون رصاصة طبقا لأوامر القيادة قائلين لهم

"إنكم مسبلون وعلى كل واحد منكم أن يقتل أربعين عسكريا للعدو وبـــذلك تجمعون منهم السلاح والذخيرة لتقاوموا بها وتسلحوا إخوانكم المجندين الجدد."

إن المهمة الأساسية التي كانوا مكلفين بها تتمثل في جمع السلاح باعتبـــار المنطقة مشهورة بتجارة الأسلحة منذ الحرب العلمية الثانية. وبها تجار أسلحة ما يزالون على صلة بالحدود الليبية- التونسية. كذلك المهمة الأخرى تتمثـــل في جمع المال والاشتراكات من أهل سوف و"فان-كانوا فقراء منه نسبيا-فـــانهم كانوا اغنياء روحيا ووطنيا، وكانوا متشبعين بروح الثورة كما إن من طبيعتهم الصبر على المكاره،وتحمل الجوع والعطش والحر والقر،وهذا ما جعلهم يوفرون المال للثورة ولو كانت بهم خصاصة. ". أما المهمة الثالثة فهي تجنيد الـــشباب للثورة،و قد تحقق لهم ذلك. فقدوم الثورة الى سوف كان كافيا لتجنيد النـــاس ولو نفسيا. حيث اشترك في هذه الحوادث العديد من الشباب والشيوخ والنساء والأطفال كل حسب دوره، وحتى الذين لم يشاركوا في هذه المعـــارك فقـــد التحقوا بالثورة فيما بعد حينما أتيحت لهم الفرصة.

إذن واصلت الدورية مسيرتها نحو وادي سوف وهي تحمل هذه المهام النبيلة لتدعيم شعلة الثورة. وفي اليوم 09 أوت ،تمت المواجهة منذ الـــصباح البـــاكر وكان يوما قائظا، تقدمت فيه القوات الفرنسية بقافلة من السيارات العسكرية من نوع"كات-كات" (4/4) مملوءة بالجنود تحت قيادة قائد المنطقة العسكرية ومجموعة من القياد الأهليين.

وانتهى الاشتباك الأول بانتصار كبير للمجاهدين جعل معنوياتهم ترتفع مع ازدياد الثقة بالنفس. هذا وقد شارك في المعركة بعض أفراد الشعب، وسط زغردة النسوة اللاتي عهد إليهن تضميد الجراح لبعض الإصابات.

ولم يكد الثوار يسترجعون أنفاسهم، حتى شاهدوا العدو يتقدم نحوهم من جديد من الجهة المعاكسة، لأن خطة القوات الفرنسية تقتضي وضع المجاهدين في فم كماشة بحيث تحيط بهم من الشرق والغرب، وهما الاتجاهان الصالحان للإمداد من مدينة الوادي. فقد شاهد الثوار تحرك العدو بآلة الناظور (جومال) قادما من الجهة الغربية هذه المر ة، حيث طريق بسكرة – قمار (المطار العسكري) – الوادي،فنصب لهم القائد محمد الأخضر كمينا أبادهم جميعا.

كان العدو يتألف من فصيلة كاملة من جنود "القومية" تحت قيادة الضابط الفرنسي، وكان عددهم ما بين 24 و27 نفرا. تركهم محمد الأخضر يتقدمون إلى نقطة يصبحون فيها محاطين بجنوده من جميع الجهات ثم يطلقون عليهم النار، ويقضون عليهم جميعا، ولذلك تركهم يتقدمون نحو "الصاباط" الذي هو عبارة عن غرفة تشبه الرواق أمامه ساحة واسعة مكشوفة بل أن القائد حم لخضر قد قام بحركات أوهمت العدو أنه منهم ، إذ أخذ قبعة أحد الموتى من الجنود الفرنسيين ، ولوح لهم بها لكي يتقدموا. فانطلت عليهم المكيدة وتقدموا نحو "الصاباط".

ويقال: أن العدو قد تقدم آمنا مطمئنا إلى أن وضع سلاحه أمام "الصاباط" وهناك قام الثوار بالهجوم الكاسح، فقتل حم لخضر الضابط بالرصاص، ورفع

الآخرون أيديهم ورفعوا الراية البيضاء علامة الاستسلام لأنهم محاصرين داخل "الصاباط".

استشهد سي علاوة على يد الضابط الفرنسي وجرح إثنان في صفوف الثوار وغنم المجاهدون كل سلاح العدو وأمتعته، فأصبح سلاحهم زائدا عن حاجتهم. فنادوا على كل من يستطيع حمل السلاح للكفاح ، فارتفعت قدراتهم القتالية، وأصبحوا مستعدين أكثر لمواجهة الخطر الذي ما زال يخيم عليهم، فقد نجحوا في القضاء على عدوهم مدفوعين بالحماس والإيمان والوطنية بتشجيع الشعب ولا سيما النساء اللائي يجلبن لهم الماء ويزغردن على المجاهدين ويضمدن الجراح. فخرجن إلى الميدان بكل شجاعة رغم قيود التقاليد المحافظة في المنطقة لأن القضية قضية جهاد مقدس ودفاع وطني مشرف، وقد خلدت الشاعرة والمجاهدة فاطمة منصوري هذه الأحداث في قصائد شعبية رائعة مثل قصيدة "الجيش الثائر" و"معركة هود شيكة" و"تتصقم الأيام" وغيرها.

ومن أجل الاستعداد للمعركة الكبرى، وتجنب الأهالي من قصف العدو لهم، طلب حم لخضر من مواطني الجهة أن يرشدوه إلى مكان منيع قصد التمركز به لاستئناف القتال. فنصحه السيد إبراهيم رحومة بالتوجه إلى غوط شيكة.

"وكان قائد هذه العمليات العقيد "باطايون" (Bataillon) الذي كان إسمه معروفا في الناحية، كممثل لوكيل الدولة وكان هو الذي يصدر الأوامر... ".

اندلعت نيران المعركة بكل شدة وضراوة طيلة اليوم، استعملت فيها جميع أنواع الأسلحة بما فيها المدافع والطائرات الحربية التي تطير إثنتين إثنتين. وشارك

في المعركة فرق اللفيف الأجنبي والجند السينغاليون وجنود المظلات و"القومية"، ورغم ذلك فإن الثوار مازالوا يتحكمون في زمام الأمور إلى أن أسدل الليل ظلامه، لأن سلاحهم الذي غنموه في الصباح كان جيدا ووفيرا، وعندما شعر العدو بضعف موقفه التجأت الطائرات إلى إلقاء الدخان المسيل للدموع، أجبر الثوار إثره على مغادرة أماكنهم في جنح الليل.

استمرت المعارك الضارية، حتى استشهاد القائد وأغلب رفاقه، بعد أن كبدوا العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

وخلد الشاعر مفدي زكريا مآثر هذه الوقائع في رائعته "إلياذة الجزائر" بما يلي:

يا وادي سوف العرين الأمين ومعقل أبطالنا الثائرين
ودرب السلاح لأوراسنا وقد ضاقت السبل بالسالكين
أتنسى ثلاثة أيام نحس وسوستال يندب في النائحين
وأخضر يحصد حمر الحواصل فيها ويقطع منها الوتين
وضرغاما الهاشمي الشريف يذيق بو از العذاب المهين
وكم كان سوف لضم الصفوف وجمع الشتات الحريص الضمين

الظروف التي سبقت الهجوم (حسب بكوش صالح بن رايح):

- في شهر أوت 1955م: كانت فرقة من المجاهدين من بين أعضاءها **سي عمار شطايبي وعلوش مبارك وسي بلقاسم لوراسي** وغيرهم تنشط ضمن لواء القائد **زيغود يوسف**، اتصلت هذه الفرقة بالمجاهد **بكوش صالح بن**

رابح، وهذا من أجل تشكيل فرقة تنشط بين أفراد المجتمع من أجل تحريضهم على الكفاح وتوضيح رؤيتهم الصحيحة اتجاه المستعمر.

- 18 أوت 1955م: اتصل القائد يوسف زيغود بأعضاء هذه الفرقة بالمكان المسمى الزرقة ناس الأربعاء أم الطوب وأبلغهم بأن هناك أمر مهم يتعلق بتنظيم مظاهرات وهذا من أجل التخفيف عن منطقة الأوراس وإبطال الهجوم المزمع شنه على هذه المنطقة.
- 19 أوت 1955م: تم لم شمل جميع المناضلين وهذا انطلاقا من مناضلي منطقة زروبة ثم قرقورة واحزايم واغبال وزقار ولعنيبب وقرروا المسيرة ليلا اتجاه مدينة القل.
- وقد فر المدعو صافي رابح بن محمد عند القائد رابح سعدالي وأخبره بالأمر وذلك من أجل إبلاغ المستعمر. وقد تم ذلك فعلا، فأخذ المستعمر كل احتياطاته قصد ردع هذا الهجوم ؛ وعند مرور الوقت المحدد ولم يحدث أي شيء، فاعتقد العدو أن الأمر مجر كذبة فعاد إلى مراكزه.
- أما المجاهدون والمناضلون فكانوا نياما في المكان المسمى واد لمساسخة (بومهاجر) وعند طلوع النهار قام مناضلوا مدينة القل بتزويدهم بالأكل والشرب، وبعدها قام أعضاء الفرق بتقديم مسدسات لمناضلي القل وطلبوا منهم أن يطبعوا إشارة على كل باب منزل أجنبي، غير أنه عند وقوع الهجوم تبين أن هؤلاء قاموا بخيانة النظام ولم يضعوا أي إشارة على أي باب.

عدد المناضلين وكيفية توزيعهم:

كان عدد المناضلين والمجاهدين حوالي 133 شخصا، قسم هذا العدد إلى 11 فرقة وبقي اثنان في الاحتياط.

- أرسلت فرقة إلى قطع طريق عين أم القصب وفرقتين إلى داخل المدينة عبر هذا الطريق.
- كلفت ثلاث فرق بالدخول من **كدية الطبانة**، بينما كلفت خمس فرق بالدخول من "**راس البلاد**". وهذه الخمس فرق موزعة على النحو التالي:
- فرقة القتال (مزودة بالسلاح).
- فرقة خاصة بإحراق الفلين.
- فرقة خاصة بإحراق البنزين.
- فرقتين مكلفتين برفع العلم.

معلومات إضافية:

أشرف على هذا الهجوم بعض الشخصيات نذكر منها: بكوش لخضر – بكوش صالح بن رابح – بوحدبية الشريف – هدام محمد بن المكي – مزدور صالح.

وفي 28 أوت 1955م، تم جمع أسلحة يتجاوز عددها 200 قطعة من دوار الكركرة.

وفي سنة 1956م تم عقد ملتقى بين قياديين من جيش التحرير من بينهم مصطفى بن بولعيد وعمروش وسي الحواس وعبد اللطيف بالمنطقة المسماة بوالزعرورة، وهذا لتقسيم البلاد إلى نواحي.

-أهم نتائج هجمات 20 أوت 1955م.

أهم نتائج هذا الهجوم: يمكن استخلاص عدة نتائج هامة من هذه الأحداث نذكر منها على الخصوص:

1)-كان شهر أوت 1955م مرحلة جديدة للمعارك الضارية والشرسة للغاية، وغير متكافئة، ورغم ذلك عرفت الثورة طفرة نوعية في زحفها وتقدمها، ففي سكيكدة قام المناضلون والمجاهدون بإلقاء القنابل على محلات الكولون، ونظموا هجوما ضد الخونة وغلاة الاستعمار وأحرقوا وأتلفوا العديد من المزارع. خاصة مزارع الكروم. انتقاما من المجزرة الرهيبة التي ارتكبها الاستعماريون في سكيكدة، عندما ساقوا مئات من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال إلى ملعب المدينة البلدي واعدموهم بصفة جماعية، وكانت مذبحة فضيعة اهتز لها الرأي العام العالمي كله.

ونتيجة لاشتداد الثورة وانتشارها، قامت السلطات الاستعمارية باعتقالات جماعية واسعة، وأعدمت العديد من المناضلين، علها تضع حدا لزحف الثورة، ولكن كل ذلك بدون جدوى.

2)- أظهرت هذه الأحداث التلاحم الرائع بين الشعب وثورته وكانت تعبئته وتدعيمه لصفوف جيش التحرير الوطني كما وكيفا بلا حدود. لأن هدفهم هو أن يسجلوا نصرا معنويا في هذه الدنيا أو الاستشهاد والفوز بالجنة في الآخرة.

3)- برهنت هذه الأحداث على اشتداد لهيب الثورة وامتدادها إلى كل شبر من أرض الوطن. وإظهار العنف الثوري لارهاب المصالح الاستعمارية وأعوانها واذيالها.

4)- تيقن الجميع بأن أصحاب الثورة ليسوا "كمشة" أو "فلاقة" خارجين على القانون، بل هم ثوار أحرار تحت لواء ثورة منظمة وكفاح وطني يهدف إلى نشر الحرية والعدالة والقيم الإنسانية النبيلة لكل أفراد الشعب.

5)- برهن هؤلاء الثوار أنهم لم يكونوا يحاربون من أجل المال أو الجاه أو الشهرة، ولكنهم كانوا يحاربون من أجل وطن غال مغتصب. وهي قضية سامية ومبدأ عالي يستحق الفداء بأعز ما يملك الإنسان.

6)- لا شك أن هذه الأحداث تدخل ضمن اطار فك الخناق على جبال الأوراس الاشم، وتشتيت جهود الاستعمار في الجنوب وفي الشمال وفي كل مكان من أرض الوطن، حتى لا يطيب له المقام في أي بقعة من الجزائر.

تلكم هي اللمحة المضيئة عن الهجومات العسكرية الجريئة لشهر أوت 1955م في أكثر من أربعين مدينة منها:سكيكدة، وعين عبيد، وقسنطينة، وعنابة والقل، ووادىالزناتي، وعزابة والخروب، والميلية وغيرها، نسجلها على صفحة خالدة من تاريخ ثورتنا المظفرة ونقف بها وقفة إجلال وإكبار لهؤلاء الذين صنعوا مجد الجزائر.

الجهاد المشترك الواحد الجزائري الليبي

تقديم:

عرف العرب في تاريخهم المعاصر عدة ثورات تحريرية للانعتاق والإستقلال، ومن أبرزها الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962 التي حضيت بتأييد شامل وبصدى واسع ونالت من الدعم والمناصرة من قبل الأمة العربية والإسلامية ما لم تنله ثورة أخرى، وخاصة من طرف شعوب المغرب العربي التي ساهمت بالقسط الوافر، وتحولت أراضيهم إلى مراكز خلفية للثوار وقواعد للتدريب وعمق إستراتيجي للعمل الثوري، بحيث أصبحت تمثل جسور إمداد حقيقية لداخل الجزائر.

ومن أجل كتابة تاريخ ثورة أول نوفمبر الخالدة بكل أمانة وموضوعية وبأقلام نزيهة يجب علينا الإستفادة من الشهادات الحي ة ومن وثائق كل الذين شاركوا وأسهموا من قريب أو من بعيد في أحداث الثورة الجزائرية سواء داخل الجزائر أو خارجها حتى نبرز بكل وضوح هذا التاريخ المجيد الذي يعتز به كل عربي ويفتخر. ذلك أن هذه الثورة كانت فريدة من نوعها في تاريخنا، لأنها صنعت لأول مرة ملحمة شعبية بهذا العنف والعمق في الجهاد.

وما معركة إيسين يوم 03 أكتوبر 1957 م ثم يوم 25 سبتمبر 1958 م إلا ومضات مضيئة من هذا التاريخ المشترك للشعب الواحد في القطرين الشقيقين الجزائري والليبي.

الخلفية التاريخية لمعركة إيسين:

إن الكفاح المشترك للإخوة في الجزائر وليبيا متجذ ر في عمـــق التـــاريخ، ويمكن أن نقف في هذه العجالة على بعض المحطات التاريخية التي خلدت هـــذا الجهاد نذكر منها ما يلي:

أولا مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني -الظالم- في طـــرابلس الغرب 1835-1855. وأمام الضغط الموجه ضده، من داخل الجبل الغـــربي، لم يبق أمام غومة وزمالته إلا التوجه إلى جنوب تونس، فوجد الدعم والعـــون في البداية، غير أن الأوضاع تبدلت ومورست ضده عدة ضغوطات من أطـــراف عديدة- يضيق المقام لذكرها هنا. فواجه صعوبات جم ة جعلت الثائر غومـــة يلتجأ إلى الجزائر ويستقر بوادي سوف في شهر ربيع الآخر 1274 هـــ- الموافق لشهر نوفمبر 1857 م، لأنه فقد معظم أنصاره في كل من ليبيا وتونس [1].

لقد وجد الشيخ غومة الحماية والرعاية والعون والدعم مـــن أهـــل وادي سوف الذين ناصروه وعز روه لهذا أعجب غومة بهذا الموقف النبيل والشجاع، فخلد تواجده بسوف بتسمية أحد أحفاده الذي ولد في سوف من ابنته فجرة باسم « سوف» والذي أصبح فيما بعد من أبطال ليبيا وفحولها الذين قـــاوموا الإحتلال الإيطالي لبلاده الشهيدة- لأن أهل الوادي أكرموا مثـــواه وعظمـــوا منزلته وبقي مستترا عندهم زمنا [2].

لم يطمئن الجنرال « ديفو» (Desvaux) الحاكم العسكري بإقليم الجنـــوب الشرقي الجزائري والمستقر بمدينة باتنة بوجود الشيخ غومة في سوف فأسرع إلى الإلتقاء به في مدينة الوادي. فرحب به شريطته أن يلقي سلاحه وأن يسلمها له

مع أسلحة رفاقه وجميع الثائرين والهدف من ذلك هو الحيلولة دون دمج الجهاد المشترك وتقديم المساعدة إلى متاريس سـوف، لأن المنطقـة لم تخـضع بعـد للإحتلال الفرنسي وهي في حالة هيجان وغليان ضد التوسـع الإسـتعماري. فاستثار هذا الطلب الشيخ غومة ورفاقه ورأوا فيه إهانة لهم وغدرا بهم. وأبت عليهم شهامتهم القبول بهذا الطلب فأقروا العـودة إلى بلادهـم [3] ليواصـل جهاده، وبعد مسيرة نضالية طويلة وشاقة تشتت أقوام غومة في أخر الأمر بعد أن مات منهم جم غفير، وفر هو ناجيا بنفسه حتى إتصل ببعض النوايل الـذين أبلغوه إلى صحراء سوف " فراسل جماعة من الوادي الذين يعرفهم فأتاه بعضهم وتوجه بهم إلى نواحي غدامس فغزا قالمقاميتها وضيق عليه وأخذ كـثيرا مـن مهماته وذخائره وزبر بعض النخيل ونفر عاملها إلى العراء."

إتصل خبره إلى والي الإيالة فوجه إليه عثمان باشا في عساكر طميمة ومعه علي بك رئيس الإزبابودي والحاج أحمد الأذغم. فالتقوا في محل يوقال له –واي وان– وحمي الوطيس بينهم ومات من كل الفريقين أعداد كثيرة. وفي الختام قتل غومة هناك، فتفرقت جموعه، وتأسف أهل الوادي لفقدانه تأسفا عظيما حيث كان بعضهم من قبيلته وعصبيته. وكان ذلك في أواخر عام 1274هـ– الموافق لسنة 1858 م.

ومن مآثر هذه الواقعة ما خلده الشاعر الشعبي من جنود غومة حين ضيقوا عليه المجال وأرادوا قتله وقد أشار عليه بعض أصحابه بالهروب لينجو من ذلك، فقال لهم [4]:

يا نفس رومي للرصاص الطايب وهروبك قدام لعداء خايب

الرب يقتل والرصاص اسبايعمر اللي قصر ماطولته ذله

ثانيا: تآزر الإخوة في ساعات المحن، فعندم تعرض الشعب الليبي إلى العدوان من طرف القوات الإيطالية. تألم شقيقه في الجزائر ويقال أن أجنادا كثيرة جندت من طرف الهاشمي الشريف رئيس الزاوية القادرية بسوف أرسلت إلى طرابلس للدفاع عنها مع اخوانهم المجاهدين الليبيين. وفي هذا الإطار بعث العلامة الشيخ ابراهيم بن محمد الساسي العوامر السوفي بقصيدة من الشعر الشعبي يشجع فيها المكافحين على صد العدوان وحماية الأوطان وهي قصيدة طويلة يحث فيها أهل طرابلس وأهل غريان خاصة على الصمود في القتال وطرد الغزاة خارج الوطن. فانتشرت القصيدة هنا وهناك حيث كان لها وقعها وصداها العميق في نفوس الليبيين، والجدير بالذكر هو أن هذه القصيدة ما زلت إلى اليوم يتغنى بها نسوة سوف في الأعراس لتبقى عبرة لمن يعتبر. ونورد منها ما يلي:

يا ليت في غريان سمح الطلة   دورات تبري كامنات العلة

لخزان تذهب والدرك يجلهونصير في نزهات كيف العيد

يا ليت في غريان لي رباعه   من الصغر ثاروا ملازمين الطاعة

الباحي العايط يبدروا فزاعه   يقسوا العدو عن رفعة التقعيد

يالندرا غريان باتش فايزفي المال يحمل والغنائم حائز

بابور دولي بالمراكز جايزمن غير توقيف ولا تحييد

يالندرا غريان باتش نائم وبات ضده في همموم يلايم

يصبح بحرنا بالبرارط عائم   فيه للبابر هاربة ابتبديد

يا لندرا غريان باتش عالي وبات ضده في همموم يكالي
مخذول بين الناس كالزواليما بنصراش رفيق بالتوديد
يا لندرا غريان فيكش نعرهفيكش جماعة حازمة بالنغره
شجعان ما يولوش وقت الدغره يصلو العدو وشعله بلا تبريد
نوصيك يا غريان صد اشوارهحصن عليه الباب عند ازواره
واسقيه من كأس العذاب امراره واصل عليه الحب بالتغريد
نوصيك يا غريان حيب امقايض واجمع القوم العاريا واللابس
واهجم على الحيطان هد طرابلسانحوز الظفر من غير ما تكويد
تنبيك يا غريان هذى أوصاية   راهي جميع الناس ليك امرايه
يحصوا الفعايل كاملة باشفايه   هذاي نصحي ليك بالتوكيد (5)

ثالثا: وهي ابراز التلاحم الاخوي وقت الشدائد، ونذكر عينة من ذلـــك، يتتبع مراحل جهاد وكفاح المناضل والمجاهد مصطفى الجزائري الذي ينحدر من أسرة عريقة تنتمي إلى المجاهد الأمير عبد القادر، فهو مصطفى بن عبد القـــادر الاحول التفراوي. وكان ميلاده بناحية معسكر سنة 1892م.

وفي نوفمبر 1914 قدم إلى طرابلس استجابة كما يقول بحـــق: " لـــداعي الجهاد والتطوع في سبيل الله ولنصره ليبيا والوقوف مع أهلها اخواننا في العروبة والإسلام". ويقال أيضا: "أنه جاء إلى طرابلس مع جماعة قاصدا الحج، وكانت ليبيا تتعرض للعدوان الإيطالي. فقال لأصحابه: واصلوا طريقكم إلى الحج. أما أنا فسأجاهد هنا. حيث العدو وما زلت في مقتبل العمر فسأحج فيمـــا بعـــد، وهذا ما حصل فعلا".

إذن انتمى المجاهد مصطفى الجزائري إلى أحدى الاسر الليبية في زوارة، والتحق بالمجاهدين حيث حارب وعمل تحت رئاسة وفي معية كل من القادة الأتراك نورى باشا قائد عام شمال افريقيا. إذ ذاك وأمير اللواء اسحق باشا والقائد تمسكت ثم ضابطا نظاميا مع المجاهد رمضان السويحلي، وفي خدمة الجمهورية الطرابلسية بعد تخرجه من مدرسة الضباط في مصراته حتى عام 1923م عندما توقفت المعارك في الشق الغربي من البلاد وقد اكتسحتها قوات العدو بما تتوفر عندها من أسلحة حديثة للدمار والفتك. فاضطر المجاهدون إلى مغادرة البلاد بعد فارغ جعبتهم من وسائل المقاومة.. وفي خلال ذلك شارك مصطفى ببسالة نادرة في العديد من المعارك الضارية التي خاضها المجاهدون في مصراته وزليتن والزاوية وغيرها، وتنقل في أرجاء البلاد تبعا لمقتضيات العمل الجهادي والمهمات العسكرية.

ثم التحق بشيخ الشهداء عمر المختار في الشق الشرقي من البلاد حوالي سنة 1930م. بعد أن بقي في مصر ملتحقا بالأزهر الشريف يتحين الفرص لمعاودة الجهاد في سبيل الله، وفي خضم الجهاد كلفه عمر المختار بسفارات هامة قام له بها في مصر مع حكومتها ومع الأمير عمر طوسون والملك السابق محمد ادريس السنوسي وغيرهم. كما كان يتسوق من أسواقها لرفاقه المجاهدين ما يحتاجون إليه في نضالهم المرير. وبقي ملازم لشيخ الشهداء حتى اغتالته يد الغدر والعدوان في 16 سبتمبر 1931 م -رحم الله الشهداء-.

عاد الحاج مصطفى إلى الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية 1939 وقد أدى فريضة الحج- فأقام بين ذويه طيلة سنوات الحرب ثم رجع إلى مصر، ومنها

عاودته الحنين إلى طرابلس، فرجع إليها سنة 1948 وتوظف حتى عام 1962م حيث طلب إعفاءه من العمل الوظيفي فقدم استقالته وصرفت له مستحقاته.

وكان –رحمه الله– يلقى طوال عمره من إخوانه الليبيين في جميع العهود كل مظاهر التقدير والتكريم والاحترام، وقد روى لي صديقه السيد الهادي ابراهيم المشيرقي– حينما التقينا مؤخرا بمدينة غات– أنه تربطه بالمجاهد مصطفى الجزائري أواصر الاخوة والمحبة والصداقة منذ زمن طويل وقال فيه: "انه رجل فاضل، حسن العشرة والمعاملة، له أخلاق عالية وفي المدة الأخيرة إلتزم بيته فكنت أزور ه من حين لآخر في طرابلس" وسألته هل أنجب ذرية فقال لي: "انه لم ينجب وعاش مع زوجته واستبنيا بنت قاما على تربيتها"

وقد انعم عليه بمدالية عمر المختار عام 1957م، وبوسام الجهاد في عهد الثورة المجيدة للفاتح، ومنح الجنسية الليبية في 16 جويلية 1970م، وملكته ثورة الفاتح العظيمة المنزل الحكومي الذي كان يقيم فيه– مثل باقي أفراد الشعب الليبي الشقيق وخصصت له راتبا شهريا قدره مائة دينار ظل يتقاضاه حتى لقى وجه ربه الكريم. في منتصف ليلة الجمعة 16 شوال 1391 ه– الموافق ل– 06 أوت 1982 بمدينة طرابلس الغرب [6].

تلك هي المعالم البارزة لحياة حافلة بالامجاد تبرهن على الجهاد المشترك للشعب الواحد في القطرين الشقيقين. فرحم الله الحاج مصطفى رحمة واسعة وطيب ثراه. آمين.

رابعا: لم يكن الهجوم الجوي على ايسين هو الأول، بل سبقه هجوم آخر على غدامس، ففي يوم من أيام نوفمبر 1942م، وقبل رحيل جحافل الايطاليين

من ليبيا. جهز الحاكم الايطالي بغدامس العقيد "زاني" ثلاثمائة جندي هاجم بهم حامية (فرسان) التونسية التي تبعد عن غدامس حوالي 13 كلم واستولى عليها. وعاد إلى غدامس من نفس اليوم ومعه 25 أسيرا عربيا أكثرهم من المرازيق المجندين في الجيش الفرنسي وخمسة فرنسيين، ثم هاجم بعد أيام حامية (ماركسان) الجزائرية الواقعة على بعد حوالي 20كلم شمال غرب غدامس، ولم يجد بها مقاومة تذكر وعاد في نفس اليوم أيضا ومعه بعض الأسرى.

إن هذه الأعمال الجنونية التي قام بها العقيد وهذه الرعونة جلبت الدمار بغدامس، إذا قام الفرنسيون بغاره جوية على غدامس يوم 2 محرم 1362 هـ الموافق ل- 28 ديسمبر 1942 م، ودمرت على ما يزيد عن مائتي منزل استشهد تحت أنقاضها أربعون مواطنا أما الجرحى فلم يقع حصرهم من كثرتهم، في الوقت الذي لم يصب فيه أحد من الإيطاليين ولم تقنبل منازلهم ولم تنهدم لهم إدارة واحدة، إذن صب الجيش الفرنسي حم غضبه على الابرياء العزل ليظهر عضلاته ويخيف الشعب المسالم لكن هيهات.

وبعد إلحاق الهزيمة بالمحور تسابقت بريطانيا وفرنسا لاقتطاع أكبر جزء من الأراضي الليبية فابتلت البلاد في جزء هام من الوطن بالاستعمار الفرنسي فاحتلت المناطق الجنوبية والجنوب الغربي بعد أن زحفت القوات الفرنسية المتواجدة في الجزائر وتشاد لاحتلال فزان ومنها سارعوا إلى احتلال غدامس. وبقي بها من سنة 1943م حتى سنة 1954م.

وكان أول عمل قام به الحاكم الفرنسي بغدامس "دي بزاك" استدعاء رئيس البلدية وأعضاء المجلس البلدي والأعيان البارزين، وأبلغهم أن فرنسا

سوف تملأ البلاد ر خ اء او ع د لا لذا يجب أن يتعاون المواطنون معها [7] غير أن الشعب كان واعي لدسائس النفوذ الفرنسي وقاومه مقاومة باسلة لأن الاستعمار ملة واحدة.

والاستعمار تلميذ غبي "لايفهم الدرس من الوهلة الأولى حيث طرد الاستعمار الفرنسي من غدامس ليحاول الرجوع إلى إيسين فيما بعد.

خامسا: وهو ذكر الموقف الرائع للشعب الليبي تجاه جهاد الشعب الجزائري خلال ثورته الكبرى 1954-1962 فالوقائع والوثائق العديدة تكشف لنا مدى المساهمة الفعالة والمساندة الجبارة التي قدمتها الهيئات المختلفة للثورة الجزائرية وللدلالة عن ذلك نذكر نموذجين فقط وهما

I - دور المناضل يوسف سليمان مادي في دعم الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962.

بدأ يوسف مادي نشاطه على هذه الساحة سنة 1955م وقد ساهم مع بعض الاخوة العرب الليبيين في تمويل الجيش الجزائري بالأسلحة التي كانوا يقومون بتهريبها عن طريق الحدود الليبية الجزائرية ثم عن طريق الحدود الليبية التونسية. وماكان يحصل معهم من صعوبات في البحث عن هذه الأسلحة.

لقد قام هذا المواطن أيضا بتربية عدد من أبناء وبنات شهداء الثورة الجزائرية. حيث جاؤوا إلى ليبيا ووفر لهم الإيواء والغذاء، ومكنهم من التعليم أيضا بفتح مدارس لهم كمدرسة عميروش للذكور ومدرسة جميلة بوحيرد للبنات وبقوا في ليبيا حتى إستقلت الجزائر، وعادوا إلى ذويهم في أمن وسلام

ولا زالت تربطهم به صداقة ود وحنان أبوي وشـارك إلى جانـب ذلـك في الأعمال السياسية لنصره الثورة الجزائرية (8).

II – عمل المناضل الهادي ابراهيم المشيرقي، الذي عمل طـوال مرحلـة الكفاح الجزائر 1962-1954. كمكتب اعلام أو مكتب علاقات، بحيـث لا يترك فرصة تمر دون أن يذكر الملوك والرؤساء العرب، والهيئـات والمنظمـات الدولية، والصحف والإذاعات، بالقضية الجزائرية وضرورة تحرك هؤولاء الملوك والرؤساء وتلك الهيئات والمنظمات للقيام بعمل ما لصالح القضية الجزائرية، وقد ساعدته أحواله المادية الميسرة للقيام بكل هذا النشاط والقيام باسـفار بعيـدة، وأداء مهام خارج ليبيا لصالح الثورة.

ولعل أهم وثيقة تاريخية نستشهد بها على نبل مشاعر المشيرقي تجاه الجزائر هي الإعلان الذي نشره بتاريخ أول شوال 1370هـ- الموافق لـ- 11 ماي 1956 م في جريدة "طرابلس الغرب" في صفحة حوادث وأخبار محلية ذلك أنه حرم من قبل من نشر دراسة كاملة على الثورة الجزائرية في هذه الجريدة فاغتنم فرصة عيد الفطر المبارك وقدم الاعلان على هيئة تهنئة بالعيد للشعب الجزائري، وكان المسؤول على هذه الصفحة إيطالي لا يفقه العربية، فمرر هذا الاعـلان الذي يحمل مضامين سياسية وانسانية عميقة الدلالة. وهذا نص الاعلان:

"إلى أبناء وأمهات وأبناء وبنات واخوة واخوات وأرامل الشهداء الأحـرار من اخواننا الجزائريين الأبرارنرفع أصواتنا عالية للإشتراك معهـم في أحـزانهم ومآسيهم الكبيرة معبرين لهم بأننا لسنا في عهد سعيد بل ه م مديد لما أزهـق

من أرواح الأعزاء أبناء القطر الشقيق ولكن في سبيل الكرامة والعزة والجهاد المجيد نصر من الله وفتح قريب.

إذا احتفلنا بيوم العيد... فانما نحتفل بذكرى كل بطل صنديد.. فصبرا أيها الشعب الكريم. إن التاريخ قد سطر لكم ولأرواح شهدائكم الغر الميامين كل فخر واعتبار. فإن شهداءكم المخلصين قد تكرموا بدمائهم الزكية نحو الوطن العزيز، ليكتب به هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال، ولهذا يتقدم إليكم بالتهاني الطيبة، مشاركة معكم بكل اعتبار في هذا العيد. "

الهادي ابراهيم المشيرقي. (9)

تلكم هي المشاعر الخالصة، والاحساس اللطيف النبيل الفياض لهذا المناضل البار وهو يعكس بحق شعور كل أفراد الشعب العربي الليبي في هذه المناسبات السعيدة.

وما زال هذا المناضل الهادي المشيرقي على هذا الاحساس إلى اليوم وقد استقبلنا مع بقية اخوانه في غات بكل دفئ وحنان وحب، وما زال على نشاطه وحيويته رغم تقدمه في السن. ونحن على موعد معه في أول نوفمبر 1999 م بالمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 الكائن بالأبيار الجزائر العاصمة، لنتناول المعلومات حول نضالاتنا المشتركة.

معركة ايسين:

ايسين قرية هادئة بالقرب من غات لا يتجاوز عدد سكانها 50 عائلة. امتد لها لهيب الثورة الجزائرية عن طريق جيش التحرير الوطني بجانت الذي هاجم مركز " تين -ألكم " وهو أكبر مركز عسكري بالجهة. وقبل ذلك قام

المجاهدون بتدمير قافلة تموين عسكرية من أربعة شاحنات باحراقها كلية ومـا زال آثار هذه العملية قائم على أرض الواقع إلى اليوم بجانب قرية إيسين.

لهذا عزم الفرنسيون على ترويع المنطقة وارهاب سكانها وذلـك بالقيـام بهجوم كاسح على ايسين بالتراب الليبي الشقيق، ليثنوا سـكان المنطقـة مـن جزائريين وليبيين عن تأيد ومساندة الثورة الجزائرية ونصرتها وليفكـوا ذلـك التآزر الأخوي القائم منذ زمن بعيد.

إذن قامت معركة إيسين على الحدود قرب غات في 03 أكتـوبر 1957م. وقد أذاعت الحكومة الليبية الاتحادية يوم 05 أكتوبر بلاغا رسميا ونشرته صحيفة "طرابلس الغرب" في طرابلس اليوم التالي جاء فيه: "في صباح يوم الخميس 03 أكتوبر 1957 م قامت قوة فرنسية من القوات المرابطة بجنوب الجزائر مكونة من بعض الدبابات والسيارات المصفحة والجنود تؤيدها الطائرات بمهاجمـة قريـة ايسين الواقعة على الحدود الليبية. وقد اضطرت حامية غات أن تتصدى بإحدى سراياها إلى القوات المعتدية للدفاع وكرد للعدوان في الأراضي الليبيـة، وقـد أسفرت المعركة عن جرح جنديين ليبيين وقتل أحد المدنيين وإلحاق أضرار مادية بالقرية. وقد أصيبت احدى الطائرات الفرنسية المعتدية... "

وجاء في تعليق محرر صحيفة "طرابلس الغرب " الحكومة من عددها رقـم 228 بتاريخ 06 أكتوبر 1957. الذي نشرت فيه نص بلاغ الحكومة وتفاصيل المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الخارجية يوم 05 أكتوبر حول هذا العدوان، تحت عنوان "بلاغ وبيان" أن الصحافة تلتزم الصمت.. لكنه لا يكـون غـير صمت الحداد.. وصمت الأسى.. وصمت العزاء.. " وقد علل وزير الخارجية

تأجيل الإعلان عن نبأ العدوان لغاية يوم 05 أكتوبر، حتى تم استكمال المعلومات، وقد نشرت صحيفة فزان الأسبوعية بعددها بتاريخ 08 أكتوبر 1957م بعض تفاصيل هذا العدوان، ونشرت صحيفة طرابلس الغرب في عددها بتاريخ 09 أكتوبر 1957 م تفاصيل أخرى تتعلق بزيارة وزير الدفاع إلى فزان لمتابعة تطورات الموقف [10].

أما أحمد توفيق المدني فقد أورد في مذكراته "حياة كفاح" وقائع أخرى هي أنه تقابل مع وزير الداخلية الليبي السيد عبد الجليل سيف النصر، ليستفسره حول مجريات القضية فأخبره بما يلي:

"أن الكمندان "ايدير" اتفق معه على الاخص، أن تقع العملية في سرية تامة. دون ضوضاء وأن يباشر المجاهدون عملهم بحيث لا تدري فرنسا أين هو مركزهم، وأنت تعلم أن فرنسا كانت منتدب على فزان وأنها تعتقد أنه مجالها الحيوي في الصحراء وكانت تحتله فعلا فما خرجت منه إلا بجهد جهيد... "

" دخل مدينة مرزق العاصمة، على رأس قافلة من المجاهدين، يرفعون أعلام الجزائر ويرفعون الصوت بالأناشيد والهتافات، والتفت كل أهل القرية بهم وطلبوا التطوع إلى جانبهم، وبقوا هناك في هرج صارخ ، وفرنسا ترى وتسمع وتسجل: إلى أن انتقلوا إلى مراكز خصصناها لهم على مقربة من الطريق الصحراوي الفرنسي، الواقع على الحدود مباشرة.

"واستمرت مثل هذه الأعمال إلى يوم كانت فيه قافلة فرنسية متجهة إلى الجنوب، فأمر الكمندان بمهاجمتها من ترابنا بفزان، ووقعت ملحمة وسقط الموتى، وهددت فرنسا حكومة ليبيا باحتلال مراكز من فزان من أجل حماية

الطريق الحيوي، و لم نستطع أن نقول كلمة، لأن مكان الواقعة معروف ومحدد، فعندما خاطبنا إيدير في الأمر قال: نحن هنا جيش التحرير الجزائري، نباشر أعمالنا كما نريد، ونحن مسؤولون في كل شيء.

"ليست لنا في فزان إلا نحو مائة وخمسين من الجند، فلو هاجمت فرنسا مراكزنا لم يكن لدينا ما تستطيع به الدفاع عن أنفسنا. فهل يرضيكم أننا نشترك معكم في الجهاد ونمكنكم من مواطن تضربون منها العدو، فتكون النتيجة أن العدو يحتل أرضنا ويمتهن وطننا؟.... "(11).

لهذا سارع توفيق المدني إلى تونس لمعالجة الموقف مع لجنة التنسيق والتنفيذ، وقابل عباس فرحات، وكريم بلقاسم، وابن طوبال، ومحمود الشريف، واوعمران، وقدم لهم تقريرا شفويا وآخر مكتوبا عن حوادث فزان، واقترح عليهم ما يلي:

أولا: تنظيم مركز ليبيا على قاعدة سليمة بحيث يكون هناك مسؤول للجبهة له نفوذ.

ثانيا: تجميد قضية فزان لمدة شهر على الأقل، ريثما تهدأ الحالة وتنطفي نار الاستفزاز.

ثالثا: تغيير القيادة فورا، فالكمندان ايدير رجل تقي متدين، وطني، لكنه لم يخلق لمثل قيادة تلك الناحية التي تلزمها مهارة سياسية إلى جانب الحنكة العسكرية.

رابعا: إعادة النظر في كامل الموقف...

وبعد أن تذاكر جماعة اللجنة طويلا نحو ثلاثة أيام، أعطوا الموافقة على تلك المقترحات، على أن يقع تنفيذها تدريجيا، وكلفوا الأخ أحمد توفيق المدني بأن يبلغ رسالتهم إلى السيد الأخ بشير بلقاضي، ممثل الجبهة بطرابلس، لينفذ تلك الإجراءات باعتباره المسؤول السياسي والمالي للجبهة بليبيا، وذلك بتاريخ 13 أكتوبر 1957. (12)

وقد استمعنا للأخ قاضي بشير خلال يوم دراسي بالمركز الوطني للدراسات والبحث بالأبيار، لشهادته حول تنظيم العمل الثوري على الساحة الليبية وكيفية تمرير السلاح عبر الحدود بواسطة شبكة من المناضلين على رأسهم محمد البشير ميهي المدعو "محمد بلحاج السوفي" وكذلك در العدوان الفرنسي على مختلف الجبهات لمواصلة الكفاح.

والواقع أن الاعتداء الفرنسي على قرية ايسين عام 1957 لم يكن الاعتداء الوحيد، فقد أصبحت منطقة الحدود تتعرض باستمرار لاعتداءات القوات الفرنسية، ولعل أخطر هذه الإعتداءات هي الغارة الجوية بالطائرات الفرنسية يوم 25 سبتمبر 1958م على نفس القرية. مما تسبب في قتل مواطن ليبي والحاق بعض الضرار بالممتلكات وقد رفعت الحكومة الليبية مذكرة احتجاج حول هذا العدوان للامين العام للامم المتحدة ،وتناول وقائعها مندوب ليبيا الدائم في الأمم المتحدة في كلمته أمام الجمعية العامة ،التي نشرت نصها صحيفة "طرابلس الغرب" في عددها بتاريخ 12أكتوبر 1958

لقد ادت معركة إيسين الاولى عام 1957 م إلى تعكير العلاقات الليبية-الفرنسية ، والى تفجير الاوضاع الداخلية في ليبيا حيث عاد الى السطح من

جديد موضوع المعاهدات العسكرية الاجنبية وضرورة التخلص منها وكما عبرت عن ذالك الإحتجاجات الشعبية في س ب ه ا، وطرابلس وبنغازي وقد عبر المؤتمر الشعبي الذي عقد في بنغازي يوم 06 أكتوبر على أثر الإعتداءالفرنسي على قرية إيسين، عن تضامن الشعب كله ووقوفه صفا واحدا لرد العدوان الفرنسي ، وضرورة زيادة التلاحم الشعبي مع الدعم المعنوي والمادي لثواري جبهة التحرير الجزائرية، وقد جاء في قراراته:

– استنكار العدوان الذي ارتكبته القوات الفرنسية على قرية إيسين بولاية فزان واعتبار هذا العدوان عدوانا جديدا أو مؤامرة آخرى ضد القومية العربية.

– تأيد الحكومة الليبية في كل الخطوات التي تتخذها ضد فرنسا ردا للعدوان وآنتصارا لعزتنا وكرامتنا القومية.

– مطالبة الحكومة الليبية بقطع جميع العلاقات الدبلومسية والإقتصادية والثقافية مع حكومة العدوالغادر.

– إلغاء المعاهدة الليبية الفرنسية غير المتكافئة التي أثبت هذا العدوان بصفة قاطعة مدى الضر الذي يحيط بسلامتنا من أمثال هذه المعاهدة.

– استنكار موقف أمريكا وبريطانيا الذي دلل بوضوح كل تواطؤ سابق ،و تدبير مشترك بين قوى الشر الثلاث.

– مطالبة الحكومة بإعادة النظر في المعاهدتين المعقودتين بين الحكومة الليبية وبين كل الولايات الامركية وبريطانيا، وآعتبار مشروع إيزنهاور للشرق الأوسط مشروعا استعماريا لا يرد عن العدوان وإنما هو قناع لتحقيق منافع الإستعمار وأعوانه.

- تأكيد الإرادة الشعبية في دعم حركة التحريرالجزائرية ، وذلك لبذل الجهود لمساعدة الشعب العربي في الجزائر المناضلة بكل الإمكانيات المادية والمعنوية.

- تكتيل الجبهة الشعبية وذلك باعلان التعبئة العامة وفتح مكاتب التطوع وتدريب الشعب لحمل السلاح حتى يكون مهيئا لرد أي عدوان جديد. (13):

استنتاج

نستخلص من كل هذه الحقائق التاريخية المخزونة في الذاكرة الجماعية عدة استنتاجات هامة منها أن المسار التاريخي للشعب العربي الواحد في القطرين الشقيقين الجزائري والليبي مشترك يهدف الى التحرر والإنعتاق والدفاع عن الأرض والعرض، ودحض العدو الغاشم الذي جاء من وراء البحر لينشر الدمار والخراب وينهب خيرات وثروات هذه الأمة العريقة، بل ويعمل على طمس معالم حضارتنا وتراثنا الفكري والعلمي العظيمين، واجتثات جذور شخصيتنا الوطنية لمحاربته للدين الإسلامي واللغة العربية ، ونشر دينالهم المسيحية وثقافتهم الغربية.

إلا أن احدث المنطقة وانتشار الوعي بمخططات العدو زاد من لهيب الثورة وإقبال المجاهدون على القتال في سبيل الله والوطن ،فأحبط مسعاهم ، وعجلت بانتصار الثورة الجزائرية، ثم قيام ثورة الفاتح العظيمة التي خلصت كل المنطقة من الإستعمار ومن بقايا القواعد العسكرية وقيود المعاهدات غير المتكافئة والجائرة ، وبالتالي تحرير البلاد والعباد ، وهو دليل آخر على أن جهادنا مشترك وأن مصيرنا ومستقبلنا واحد.

و الجدير بالذكرهو أن وفدا جزائري شارك اخوانوالهم في غــات لإحيــاء الذكرى الثانية والأربعين لهذا العدوان الغاشم على قرية إيسين الشهيدة، وقــد ارتحنا كثيرا من الإستقبال الرائع الذي خصصه لنا الإخوة في ليبيا رغم تعــب السفر الطويل، وحضرنا لفعاليات الإحتفال ببلده أليركت)ضاحية غات(و عشنا تلك الإستعراضات الشيقة والمنظمة والمنضبطة من قبل كل فئات الشعب. كما تجولنا في غات وبهرتنا المدينة بجمالها الساحر، ونظافتها الفائقة ورائحتها الطيبة وماءها العذب وكرم أهلها الحاتمي، كما ألفت نظرنا منجازات الثــورة بهــا لضمان مستقبل الأجيال الصاعدة.

وقد القيت العديد من الخطب والمحاضرات لإبراز هذا الحــدث التــاريخي واظهار تلاحم الشعب الواحد في القطرين الشقيقين في السراء والضراء وامتزاج دمائهم على ميدان الجهاد.

إذن فإن تخليد ذكرى هذه الاحداث يعني احياء امجاد الماضي ليعرفها ويعتبر بها الاجيال الصاعدة ويعتز بها ويسير على دربها ، ولمحاربــة ذاكــرة النــسيان وتنشيط اصحاب الذاكرة المبتورة، فالتبقى معركة ايسين رمزا للاخوة والجهاد والاتحاد.

والله ولي التوفيق.

الإحالات

(1) محمد امحمد الطوير، مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العماني في إيالة طرابلس الغرب 1935-1858 م-طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبين منذ الغزو الإيطالي، 1988، ص 284.

(2) ابراهيم بن محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلالي بن ابراهيم العوامر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، 1977 ص24 2.

(3) الطوير، مقاومة الشيخ غومة، ص 284- 285.

(4) العوامر، الصروف ، ص 244.

(5) نفس المصدر، ص 245، 246.

(6) محمد ميلاد مبارك، "المجاهد مصطفى الجزائري"، ترجمة وتوطئة لمراحل جهاده. مجلة الشهيد،طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبين. العدد الخامس، 1984،ص305-307.

(7) بشير قاسم يوشع "ملامح الإدارة العسكرية الفرنسية بغد امس". مجلة الشهيد، العدد الخامس 1984 ص87.

(8) دور يوسف مادي في حركات التحرر العربية ، اعداد وتقديم مصطفى حامد رحومة-احمد محمد العاقل-دور الشعب العربي الليبي بمنطقة طرابلس في مساعدة الثورة الجزائرية 1962-1954

(9) من خلال وثائق احد اعضاء لجنة دعم الثورة الجزائرية بطرابلس. مقالة لم تنشر.

(10) د. حبيب رداعة الحسناوي، "دور الشعب العربي الليبي بمنطقة طرابلس في مساعدة الثورة الجزائرية 54/62 من خلال وثائق أحد أعضاء لجنة دعم الثورة الجزائرية بطرابلس" مقال لم ينشر.

(11) نفسه.

(12) 11 – احمد توفيق المدني حياة كفاح، مذكرات، الطبعة الثانية الجزء الثالث، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1968، ص314.

(13) 12 – المدني حياة كفاح ،ص 315-316.

(14) 13 – الحسناوي، "دور الشعب العربي الليبي".

في ذكرى "عيد الجمهورية"

19 سبتمبر 1958م

تقديم:

للثورة الجزائرية معالم بارزة، ومصابيح مضيئة في مسيرتها المظفرة، لـذلك نتوقف اليوم عند أهم محطاتها التاريخية، وهي الـذكرى الـسابعة والأربعين لتأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في يوم الجمعة 19سبتمبر 1958م، وهو الحدث الذي عبر عنه الشعب الجزائري المكافح بفرحة كبيرة وأطلق عليه "عيد الجمهورية".

إذن نتذكر اليوم هذا المعلم التاريخي المجيد لنعطي بعض الحق لرجال عظماء صنعوا مجد الجزائر الحبيبة في ظروف داخلية وخارجية حالكة الظلمة، وحتى لا ننسى، ونتصالح مع تاريخنا علينا أن نذكر الجميع وخاصة الأجيال الـصاعدة بمسيرة هؤلاء الأبطال، ولنحي ذكراهم ولنأخذ منها العبرة حتى يبقى مـشعل الثورة مرفوع وتحافظ على مكتسبات هذا الوطن الغالي.

الخلفية التاريخية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية:

انطلاقا من أرضية الصومام في 20 أوت 1956م، والتي انبثق عنـها عـدة تنظيمات، منها تأسيس المجلس الوطني الثورة الجزائرية، ولجنة التنسيق والتنفيـذ وغيرها من القرارات، وبعد مسيرة سنة كاملة من الكفاح المـستمر، ولتقيـيم ذلك عقد المجلس الوطني للثورة مؤتمره بالقاهرة في صيف 1957م، ومن أهـم

قراراته التحفظ على بعض نقاط أرضية الصومام، كما أسندت لكل عضو في لجنة التنسيق والتنفيذ مسؤولية معينة، حيث تولى كل من:

- عبد الكريم بلقاسم: منصب الشؤون العام لجيش التحرير الوطني.
- عبد الحفيظ بوصوف: التموين بالسلاح والاستخبارات.
- لخضر بن طوبال: الشؤون والتنظيم الإداري.
- محمود الشريف: الشؤون المالية.
- عبد الحميد مهري: الشؤون الاجتماعية.
- فرحات عباس: مكلف بالصحافة والإعلام.
- محمد الأمين دباغين: مسؤول عن العلاقات الخارجية.
- عمر أوعمران: مسؤول عن التسليح.

والملاحظة البارزة هنا هو تهميش العضو القيادي في لجنة التنسيق والتنفيذ عبان رمضان مهندس اللقاء التاريخي في إفري، بأزلاقن ناحية بجاية، حيث سقط اسمه من قائمة الزعماء القياديين للثورة.

وأمام صعوبة مهام هذه اللجنة، وتعرضها لأزمات حادة سببها طمع قادتها إلى الانفراد بالسلطة ومحاولة فرض السيطرة، وبذلك فشلت في تأدية مهامها على أحسن وجه، ويرجع السبب الرئيسي إلى قلة عدد أعضائها مما أدى إلى طرح مشكل الزعامة، وبذلك تم توسيع هذه اللجنة لتشمل أكبر عدد ممكن من الأعضاء من مختلف الاتجاهات السياسية المشاركة في الثورة بإعلانها إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. لشرح القضية الجزائرية وتوضيح أهداف

الثورة وعدالة مطالبها سعيا وراء كسب المزيد من التأييد لها في هيئة الأمم المتحدة عند عرضها في دورة 1958

وكانت جبهة التحرير، بالتشاور مع الحكومتين الشقيقتين التونسية والمغربية في مؤتمر طنجة (28–30 أفريل 1958) قد قررت تأليف حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في المنفى على أن يتم ذلك في الظروف المناسبة، وعندما جاء ديغول إلى الحكم بعد تمرد 13 ماي 1958م قررت الجبهة تشكيل هذه الحكومة وأعلنت عنها في داخل الجزائر وفي عواصم البلدان العربية يوم الجمعة 19 ديسمبر1958 بعد صلاة الجمعة.

وأمام هذه المبررات وبتوفير الظروف الداخلية والخارجية التي سوف تساهم في نجاح هذه الحكومة لأداء مهامها على أحسن ما يرام، ومن أجل توحيد القيادة وتمثيل الجزائر في الساحة الدولية والعمل عل تحقيق الأهداف الأساسية للثورة تقرر تأسيس هذه الحكومة تنفيذا لقرارات المجلس الوطني للثورة الجزائرية في اجتماعه المنعقد بالقاهرة من 22 إلى 28 أوت 1958، حيث قررت لجنة التنسيق والتنفيذ عقد اجتماع لها في 09 ديسمبر 1958 بالقاهرة بحضور كل من فرحات عباس، لخضر بن طوبال، كريم بلقاسم، محمود الشريف، محمد الأمين دباغين، عبد الحميد مهري، عمر أوعمران، بغرض مناقشة مسألة إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية، وبعد عرض للموقف السياسي والعسكري على ضوء التقارير الواردة من داخل الوطن، وكذا تطور الأحداث على الساحة الفرنسية ذاتها بعد مجيء الجنرال "ديغول" إلى الحكم، والظروف الدولية السائدة جراء الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي. تم الإعلان عن إنشاء

الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، في 19 سبتمبر 1958م، وتــألف هــذه الحكومة من 19 عضوا، وهم على التوالي:

أعضاء الحكومة الأولى:

1- عباس فرحاترئيسا للحكومة.

2- كريم بلقاسم نائب للرئيس ووزير للقوات المسلحة

3- أحمد بن بلة نائب ثاني للرئيس

4- الأخضر بن طوبال وزير الداخلية

5- عبد الحفيظ بوصوف وزير الأخبار والاتصال

6- الدكتور الأمين دباغين وزير الاتصال والأخبار

7- محمود الشريفوزير التسليح

8- عبد الحميد مهري وزير شوون شمال إفريقيا

9- ابن خدة بن يوسف وزير الشوون الاجتماعية

10- أحمد توفيق المدني وزير الشوون الثقافية

11- أحمد فراشين وزير المالية

12- محمد يزيدوزير الأخبار

13- محمد بوضياف وزير دولة

14- حسين أيت أحمد وزير دولة

15- محمد خيضر وزير دولة

16- رابح بيطاط وزير دولة

17- الأمين خان كاتب دولة

18- عمار أوصديقكاتب دولة

19- مصطفى اسطنبولي كاتب دولة

وقد تم تعيين فرحات عباس على رأس هذه الحكومة لأسباب استراتيجية وسياسية باعتباره محنكا في ميدان المفاوضات ومن الزعماء المعتدلين، وله شوط طويل في الحقل السياسي. ومن القاهرة تلا فرحات عباس نص بلاغ تشكيلها بالفرنسية ثم تلاه عبد الحميد مهري بالعربية، واعترفت بها في الحين بعض الدول منها الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة. وهذا نص البلاغ:

بسم الله الرحمان الرحيم

جبهة التحرير الوطني جيش التحرير الوطني

باسم الشعب الجزائري

نظرا للسلطات التي خولها المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلى لجنة التنسيق والتنفيذ (لائحة 28 أوت 1957) فإن لجنة التنسيق والتنفيذ قد قررت تكوين حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية.

إن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مسؤولة أمام المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وهي تباشر مسؤولياتها ابتداء من هذا اليوم الجمعة الساعة الواحدة بعد الزوال بتوقيت الجزائر.

تحفظ الحكومة المصرية عن تعيين فرحات عباس على رأس هذه الحكومة، خوفا من انحرافها نحو الغرب، لكن فرحات عباس قامنذ اليوم الأول بزيارة جمال عبد الناصر وتحصل على أثرها عن مقر للحكومة المؤقتة بالقاهرة وبعدها دعاه للعشاء، وقابل وقتها رؤساء عدة دول كانوا في زيارة لمصر، شرح

له أن هذه الحكومة مسؤولة أمام المجلس الوطني للثورة الذي يعتبر بمثابة برلمان يشرع القوانين، وهي تقوم بجميع مهام الحكومة كسلطة تنفيذية له، فهي التي تناقش الميزانية وتصوت عليها، وتقوم بتعيين كبار الموظفين والضباط، وتتمتع بصلاحيات إقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف الدول وعقد الاتفاقيات والمعاهدات بعد استشارة المجلس الوطني للثورة، وصلاحيات الوزراء يحددها مرسوم يصدره رئيس الحكومة بعد مشاورات المجلس الوزاري، والرئيس هو الذي يعين رؤساء البعثات الدبلوماسية ويوقع مرسوم استدعاء مجلس الثورة لعقد اجتماعاته.

وكان لنبأ إعلان إنشاء الحكومة المؤقتة صداه لدى الشعب الجزائري الذي استقبله ببالغ الفرح وأطلق على ذلك الحدث بـ" عيد الجمهورية" لأنه يشعر بأن له كيان يدافع عنه ويمثله ويسعى لتحقيق أهدافه وطموحاته في الاستقلال.

أما بالنسبة للخارج فقد كان لها صدى واسع بخلاف ما كانت تتوقعه فرنسا إذ سارعت مختلف الأقطار العربية والإسلامية والدول الإفريقية والأسيوية إلى الاعتراف بها ومساندتها، رغم أن الجمهورية الفرنسية بادرت فور تشكيلها إلى إبلاغ جميع الدول أنها ستعتبر الاعتراف بحكومة الجزائر عمل غير ودي.

فعلا فقد كان نبأ هذا الإعلان ضربة قوية لفرنسا الذي جاء في وقت كان على رأس حكومتها ديغول الذي يسعى إلى دمج الجزائر نهائيا مع فرنسا مستخدما جميع الأساليب.

أهداف الحكومة المؤقتة واستراتيجيتها في العمل.

رسمت هذه الحكومة لنفسها خطة عمل لتحقق أهدافها المتمثلة في النقـــاط التالية:

1. تتولى تسيير شؤون الثورة، وتسعى لتحقيق الاستقلال الوطني، وإقامـــة الدولة الديمقراطية في إطار المبادئ الإسلامية وفقا لما جاء وحـــدده بيـــان أول نوفمبر 1954م، وهو الهدف الأساسي.

2. توحيد وتقوية جيش التحرير الوطني: باعتباره القوة التي يمكن للحكومة المؤقتة الاعتماد عليها في مفاوضاتها مع فرنسا من مركز القوة، ولهذا نجـــد أن الحكومة المؤقتة جعلت من أولوياتها الاهتمام بالشؤون الحربية، لذا قامت بإنشاء وزارة للقوات المسلحة وعينت على رأسها كريم بلقاسم، الذي قام في مطلـــع أكتوبر 1958 بإعداد خطة تقضي بإرسال الوحدات العسكرية المتواجدة علـــى الحدود إلى داخل الجزائر وتحقيقا لهذا الغرض قام بعقد اجتماع مـــع محمـــدي السعيد رئيس العمليات العسكرية (comité d'organisation militaire) حيث طلب منه إرسال وحدات جيش الحدود إلى داخل الجزائر قبل 25 أكتوبر 1958 لتدعيم الثورة في الداخل، كما شارك في هذا الاجتماع كل من العقيد نواورية مسؤول الولاية الأولى والرائد عواشرية الذي يشرف على القاعدة العـــسكرية المتواجدة على الحدود التونسية الجزائرية، لكن الأمر الـــذي حـــدث هـــو أن نواورية وعواشرية رفضا التعامل مع محمدي السعيد.

واجهت الحكومة المؤقتة في الشهور الأولى مشاكل داخلية للقيـــادات في جيش التحرير أدى إلى الحكم بالإعدام على بعض منهم مثل محمد لعموري.

قامت الحكومة بهيكلة الجيش ماديا وبشريا بعد أن تم إنشاء هيئة الأركان العامة للجيش (E. M. G) بقيادة هواري بومدين. كما قامت بعدة اتصالات مع لدول الصديقة والشقيقة للحصول على الأسلحة والمعدات الحربية.

3. كسب الاعتراف والتأييد الدولي: نظرا لما يحققه اعتراف الدول من أهمية في عمل الحكومة المؤقتة ومساندتها في قضيتها العادلة وإعطاء واقع خارجي أكثر رسمية. أصبحت الحكومة المؤقتة تعامل وكأنها تمثل دولة مستقلة تتمتع بنفس ما تتمتع به مختلف الحكومات، وبذلك أصبح للشعب الجزائري حكومة تمثله على الساحة الدولية وتدافع عنه، وتسعى لإقامة علاقات ديلوماسية مع مختلف الدول المستقلة والأعضاء في هيئة الأمم المتحدة، والقيام بزيارات إلى مختلف الدول في القارات الخمس لكسب الاعتراف والمساندة وللضغط على الحكومة الفرنسية.

4. تمثيل الجزائر في المحافل الدولية: يعتبر من الأهداف الأساسية التي تسعى الحكومة المؤقتة لتحقيقها، لما لهذه المؤتمرات الإقليمية والتكتلات الجهوية والعالمية من دور فعال في التأثير على الساحة الدولية، والضغط على فرنسا للجلوس على مائدة المفاوضات.

5. تهيئة إطار رسمي للتفاوض: وذلك بإقناع الرأي العام الدولي أن المفاوض للجزائري موجود، وهو يظهر رغبته في الاتصال والتفاوض مع فرنسا ضمن مفاوضات رسمية على مقتضى الشروط التي أعلنتها الثورة. كما قامت بكشف وإفشال المخططات التي جاء بها "ديغول" للقضاء على الثورة.

أجتمع المجلس الوطني للثورة بطرابلس من 16 ديسمبر 1959 إلى 18 جانفي 1960م لمناقشة البيانات المتعلقة بنشاط الحكومة، إلى جانب بحثه للوضعية

العسكرية، وأثناء هذه المباحثات اكتشفت الحكومة المؤقتة أن الجنرال "ديغول" قام باتصالات مع قادة الولاية الرابعة بهدف ضرب الثورة ووحدتها وتفجيرها من الداخل والضغط على الحكومة المؤقتة حتى تقبل شروطه حول وقف إطلاق النار. وبعد كشف المؤامرة أصدرت الحكومة عقوبات صارمة بشأن قادة الولاية الرابعة وعزل قائد الولاية العقيد صالح زعموم، وإرساله إلى تونس للمحاكمة، غير أنه استشهد في الطريق خلال معركة مع العدو.

الحكومة المؤقتة الثانية والثالثة:

بتاريخ 18جانفي1960م تم تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، واستمرت في نشاطها إلى غاية أوت 1961م، وهي تتشكل ممايلي:

1- عباس فرحات رئيسا
2- كريم بلقاسمنائب رئيس وزير الخارجية
3- أحمد بن بلة نائب ثاني
4- عبد الحفيظ بوضياف وزير دولة
5- الأخضر بن طوبال وزير الداخلية
6- عبد الحفيظ بوصوف وزير الاتصال والاستعلامات
7- أحمد فراشينوزير المالية
8- عبد الحميد مهري وزير الشؤون الاجتماعية
9- محمد يزيد وزير الأخبار
10- محمد السعيد وزير دولة
11- محمد خيضر وزير دولة

12- حسين أيت أحمد وزير دولة

13- رابح بيطاط وزير دولة

أما الحكومة الثالثة فقد أنشأت عندما اجتمع مجلس الثورة بطرابلس من 09 إلى 27 أوت 1961م قصد دراسة نتائج المفاوضات وتقييم مسار الثورة الجزائرية وبعد نهاية الاجتماع أصدر بيان دعا فيه إلى تكثيف العمليات العسكرية، وتم تغيير تشكيلة الحكومة المؤقتة باستبدال فرحات عباس بالسيد بن يوسف بن خدة على رأس الحكومة، وصرح السيد ابن خدة أن استقلال الجزائر يجب أن يتم قبل مرور سنة عن هذا الحدث، وهذا ما تم فعلا. فقد بذلت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كل ما في وسعها من أجل توحيد قيادة جيش التحرير الوطني بإنشائها لهيئة الأركان العامة للجيش، وعملت على تجهيزه وتقويته بالأسلحة التي تشتريها وتتلقاها من مختلف الدول الشقيقة والصديقة المساندة للثورة الجزائرية منذ اندلاعها، خاصة مصر بفضل ما تقدمه من مساعدات مادية وعسكرية، ومساهمة كل من ليبيا وتونس والمغرب من أجل إيصالها إلى الجزائر باعتبارها قواعد خلفية للثورة الجزائرية، وهدف الحكومة من تقوية الجيش هو تحقيق النصر العسكري على فرنسا حتى تخضع لمطالب الحكومة المؤقتة والجلوس أمام طاولة المفاوضات لإجراء المباحثات حول القضية الجزائرية العادلة.

3- كسب الاعتراف:

نظرا لما يحققه اعتراف الدول من أهمية عمل الحكومة المؤقتة ومساندتها في قضيتها العادلة، وإعطاء واقع خارجي أكثر رسمية وتمحيص موقف الدول الشقيقة والصديقة، إذ بمجرد الاعلان عن الحكومة المؤقتة سارعت الأقطار

العربية إلى الاعتراف بها، وتقديم المساعدة لها وقد لقيت في البداية اعترافا من قبل كل من مصر وتونس والعراق والمغرب وليبيا والمملكة العربية السعودية والسودان وغيرها.

وأصبحت الحكومة المؤقتة تعامل وكأنها تمثل دولة مستقلة تتمتع بنفس ما تتمتع به مختلف الحكومات، وبذلك أصبح للشعب الجزائري حكومة تمثله على الساحة الدولية وتدافع عنه، وتسعى لإقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف الدول المستقلة الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة مما كان له الأثر على السياسة الفرنسية تجاه الجزائر، واستطاعت الحكومة المؤقتة تكوين بعثات دبلوماسية تتمتع بالحصانة مثل كل البعثات الأخرى، ولتحقيق هذا الهدف قامت الحكومة المؤقتة بتكثيف نشاطها الدبلوماسي والقيام بعدة زيارات إلى مختلف الدول في القارات الخمس لكسب اعترافها ومساندتها للضغط على الحكومة الفرنسية، حتى ترضخ لمطالب الثورة، والعمل على فضح السياسة الفرنسية الرامية إلى إدماج الشعب الجزائري في فرنسا، كما ضاعفت من مذكراتها إلى مختلف الدول والمنظمات الدولية كما أكدت الجامعة العربية دعمها ومساندة كفاح الشعب الجزائري والوقوف إلى جانب قضيته العادلة، واستمرت مصر في تدعيم الثورة وحكومتها المؤقتة بالرغم من القرار الذي اتخذته الحكومة المؤقتة بنقل مقرها من القاهرة إلى تونس إذ أكد الرئيس جمال عبد الناصر لفرحات عباس عند اللقاء به في 06 فيفري 1959 من أن مصر تدفع معونتها على شكل سلاح ومعدات وذخيرة وعملة صعبة ومحلية، وسوف تسلم بصورة مستمرة وطبقا للميزانية المحددة

وهذه مواقف مشرفة للرئيس جمال عبد الناصر، لا ينساها الشعب الجزائري الحر وتبقى منحوتة في الذاكرة الشعبية لأنها مواقف شجاعة ونبيلة.

علاقة الحكومة المؤقتة لجيش التحرير الوطني:

(أزمة 1962 وسقوط الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية)

على الرغم من الأهداف التي حققتها الحكومة المؤقتة إلا أنها وقعت في أزمات حادة مع هيئة الأركان العامة للجيش والتي تم إنشائها من أجل قيادة جيش التحرير الوطني تحت إشراف اللجنة الوزارية للحرب إلا أن هذه اللجنة لم تقم بدورها نتيجة اهتمام أعضائها بمسائل أخرى وبذلك تركت هيئة الأركان تشرف وحدها على الجيش، فوقع الصراع واتهمت هذه الأخيرة الحكومة المؤقتة بالتقصير في أداء واجبها اتجاه الجيش وبأنها لا تولي اهتماما بالمسائل العسكرية التي أوصاها بها المجلس الوطني للثورة والتقصير في تقديم المساعدات المادية والمالية لجيش التحرير، إلا أن الحكومة المؤقتة أكدت منحها كل المساعدات المالية والأسلحة التي كانت تخزنها هيئة الأركان بدل تقديمها وإدخالها إلى الولايات التي كانت تعاني من نقص الأسلحة، وذهبت تشغل نفسها بمسائل سياسية بعيدة كل البعد عن مهامها. واشتد الصراع إثر التوقيع على اتفاقيات إيفيان/ حيث رفضت هيئة الأركان التوقيع عليها رغم مشاركة أعضائها في جميع مراحل المفاوضات معتبرة هذه الاتفاقيات خيانة لمبادئ الثورة.

واستمر الخلاف والصراع بعد وقف إطلاق النار وخروج الزعماء الخمسة من السجن وافترق الشمل الذي جمعته الثورة واشتد التنافس على السلطة وانتهى بإنهاء مهام الحكومة المؤقت في صيف 1962م.

إذن يبقى تاريخ الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بمنعرجاته وإلتباساته مجهولا لدى العامة، ولم يدرس بكيفية معمقة رغم المحاولات القليلة هنا وهناك من طرف بعض الباحثين من خلال أطروحاتهم الجامعية، مع العلم أن الوثائق الأرشيفية لهذا الموضوع لم تكشف كلها بعد، وتنتظر الولوج إليها والله ولي التوفيق.

الشراقة، 16 سبتمبر 2005م

د. إبراهيم مياسي.

الثورة الكبرى وبعض مآثرها

تقديم:

تعتبر ثورة أول نوفمبر 1954م نقلة نوعية في الجهاد الجزائري، الذي جاهد بكل بسالة لمدة طويلة تجاوزت السبعين عاما بالسلاح، في المدن والأرياف والجبال والصحاري، عبر ثورات شعبية منظمة وغير منظمة، حيث مست هذه الثورات والانتفاضات كل جهات الوطن، غير أن التنسيق فيما بينها وتوحيد القيادة قد أثر سلبًا على تحقيق أهدافها العسكرية، فغير الشعب أسلوب كفاحه خلال القرن العشرين بوسائل أخرى، من معارضة سياسية وهجرة خارجية وأدب شعبي، وتقديم العرائض الاحتجاجية ؛ كما تدعم الموقف الوطني بالمستجدات الدولية ومنها ظهور ألمانيا كقوة منافسة لفرنسا في العالم الإسلامي، وانتصار الثورة البلشفية والرواج الكبير للمبادئ الأربعة عشر التي أعلنها الرئيس الأمريكي "ولسن"، خاصة المبدأ المتعلق بحق تقرير المصير لجميع الشعوب، حيث قدم الأمير خالد عريضة سنة 1919م إلى الرئيس "ولسن"، لكن لم يكن لها صدى كبير على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وقد تضاعف نشاط الوطنيين الجزائريين خلال فترة ما بين الحربين مع ظهور الصحافة الوطنية، ونشاط كتلة المحافظين وجماعة النخبة وانبثاق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 05 ماي 1931م، والتي نشرت أفكارها وغرست المبادئ الأساسية للأمة من خلال برامجها ومخططاتها التي تم تنفيذه على يد كوكبة من والعلماء والفقهاء والصلحاء، نذكر منهم على الخصوص لا

الحصر الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، محمد الأمين العمودي، محمد العيد آل خليفة، أحمد توفيق المدني، محمد الصالح خبشاش، أحمد بن الحاج يحي(من وادي ميزاب)، ومصطفى حلوش، محمد الهادي السنوسي، صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، الربيع بوشامة، محي الدين قدور الحلوي، أبو يعلى الزاواي، وغيرهم من الذين مهدوا للثورة بأشعارهم وكتاباتهم الأدبية الهادفة لتهيئة النفوس والتي أضاءت دروب الثورة.

ذلك أن تطور الاتجاه الاستقلالي في الحركة الوطنية ممثلا في برنامج نجم شمال إفريقيا الذي كان نشاطه في المهجر، ثم تحول إلى الجزائر على شكل حزب سياسي وهو "حزب الشعب الجزائري" منذ مارس 1937م والذي عبد الطريق للثورة.

وهكذا لعبت الحركة الوطنية من خلال اتجاهاتها الثلاث:الاستقلالي – الإصلاحي-الاندماجي دورا كبيرا عبر مختلف أشكال النضال الوطني داخل الجزائر أو خارجها؛ وعملت الأدبيات السياسية خاصة جمعية العلماء وحزب الشعب الجزائري على دحض أطروحة المدرسة التاريخية الاستعمارية وواجهتها بوسائل النضال السلمي للتأكد إلى وجود الأمة الجزائرية قبل الغزو الفرنسي. وتجلت أدبيات الحركة الوطنية ذات الاتجاه الثوري في الكراسة التي نشرتها تحت عنوان:"تحيى الجزائر" وزعت عشية نهاية الحرب العالمية الثانية، وتحتوي الكراسة على مقدمة وقسمين، يشير الأول إلى أن الشعب الجزائري يتوفر على جميع مقومات الأمة، ويعالج الثاني كيفية إعداد الشعب لمعركة التحرر من الاستعمار؛

وبذلك فقد مهدت هذه الأطروحة الوطنية الأصيلة للطريق الصحيح للخلاص من كبوس الاحتلال وهو اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954م، والتي كان من بين أبعادها رفع التحدي الذي وقع على البلاد، والذي أوقف حركة التطور الطبيعي للمجتمع الجزائري من جهة، وإعادة الاعتبار للواقع التاريخي الذي كانت عليه الجزائر قبل الغزو الفرنسي من جهة أخرى.

لقد جاءت ثورة نوفمبر 1954م كرد فعل عنيف على عقم النضال السياسي الذي استغرق أكثر من نصف قرن، دون أن يتمكن من تحقيق مطالب الشعب الجزائر، حيث وصل إلى الطريق المسدود، رغم تقديم المصالح الاستعمارية بعض الإصلاحات الرامية إلى تحسين أوضاع الشعب، والتي فشلت، وبذلك أصبح العمل المسلح الطريق الأمثل لتحقيق الحرية والاستقلال.

الأبعاد الوطنية والقومية في بيان أول نوفمبر

ومن أهم أدبيات الثورة التحريرية والتي استخلصت العبر من الماضي، نجد بيان أول نوفمبر الخالد، الذي يؤكد على إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية. ومعنى هذا أن الموقف الوطني بقي ثابت رغم البعد الزماني، والذي لم يهضم فكرة اختفاء الدولة الجزائرية أبدا. لقد ظلت فكرة استرجاع الجزائر تعتمل وتختمر في الوجدان الوطني منذ إلغاء الكيان الدولي للجزائر يوم 05 جويلية 1830م، ذلك أن الجزائر لم تستسلم في نظر الجزائريين لمجرد الانهزام في معركة اسطاوالي وتسليم مفاتيح القصبة لأن الكيان الجزائري الدولي كان قائما عشية العدوان الفرنسي، وكان للجزائريين الشعور الوطني المشترك بالمقومات القومية للأمة.

ويؤكد بيان أول نوفمبر أن الهدف الأساسي من الثورة هو الحرية والاستقلال الوطني، وأن السيادة على الجزائر تمارس من طرف أصحابها الأصليين وهو الشعب الجزائري، الذي لم يكن أي شيء قبل الثورة، فأصبح كل شيء، حتى رفع شعار "الثورة بالشعب وإلى الشعب"، كما يضع البيان وسيلة الكفاح المسلح منطلقا لتحقيق أهدافه، معتمدا في ذلك على القوى الوطنية، وأن التفاف الشعب الجزائري حول قيادة جبهة التحرير الوطني ساعد على تجسيد المبادئ الثورية الثابتة الواردة في البيان وفي تحقيق الانتصارات العسكرية والسياسية في الداخل والخارج.

كما تهدف الثورة –حسب البيان– "إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي "معتبرا الأحداث القائمة في تونس والمغرب تعميقا للكفاح التحريري المغربي المتكامل أو مذكرا بالموقف الإستراتيجي للحركة الوطنية فيما يتصل بوجوب العمل في جبهة مغربية موحدة لإنجاز هدف الاستقلال بنصه التالي: "...ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا كنا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل، هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاثة...". ليتجه كل قطر إلى العمل بصفة منفردة وهو الأمر الذي يريد بيان نوفمبر أن يكرسه على الساحة المغربية إذ أكد تمسك جبهة التحرير الوطني بالرؤية الإستراتيجية للحركة الوطنية مغربيا من خلال ربط النضال الجزائري بما يجري في تونس والمغرب مقررا وجوب تجاوز المأزق الذي آلت إليه الحركة الوطنية والدفع بها "إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين". ونص البيان صراحة على أن الأهداف الخارجية للثورة

الجزائرية: " ...تحقيق وحدة الشمال الإفريقي في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي...".

من وثيقة الصومام – 20 أوت 1956م –

لضمان انتصار الثورة الجزائرية في الكفاح من أجل الاستقلال الوطني، لابد من وقفة تقييمية وتحديد موقف الجبهة بصفة عامة في مرحلة حاسمة من مراحل الثورة. لقد خرج جيش التحرير الوطني من أول اختبار في القتال موفقا فائزا في وقت قصير نسبيا، فقد أحبط التطويق والإبادة التي شنها عليه جيش قوي عصري هو في خدمة النظام الاستعمار لدولة من أكبر دول العالم.

ذلك أن جيش التحرير الوطني يحارب من أجل قضية عادلة، إنه يضم وطنيين ومتطوعين ومجاهدين عازمين مصممين على الكفاح والنضال باذلين النفس والنفيس إلى أن يتم تحرير الوطن الشهيد.

إن هذا الجيش ليتمتع بحب الشعب الجزائري حبا عميقا وتأييده المتحمس الشديد وتضامنه الفعال المعنوي والمادي، التام الكامل المتين. فمن الأمور التي لا ينكرها أحد أن نشاط جيش التحرير الوطني قد قلب الجو السياسي في الجزائر، وأحدث صدمة نفسية أيقظت الشعب من سباته وخلصته من روعه وأزالت عنه ريبته. وبعث في الشعب الجزائري الشعور بكرامته القومية. وكون اتحادا روحيا وسياسيا بين جميع الجزائريين فحصل ذلك الإجماع الوطني الذي يغذي الكفاح المسلح ويجعل انتصار الحرية حتما لا بد منه.

اتحاد شمال إفريقيا

ستعنى الجزائر الحرة المستقلة بتحطيم الحواجز العنصرية التي أقيمت على الحيف الاستعماري وتعزيز الوحدة والإخاء على أسس جديدة في الشعب الجزائري الذي ستسفر نهضته عن إشعاع شخصيته المزدهرة. غير أن الجزائريين سوف لا يتركون حبهم للوطن — وهو تلك العاطفة النبيلة الكريمة — يستحيل إلى وطنية ضيقة عمياء. فهم شمال إفريقيون مخلصون يتعلقون تعلقا شديدا ومتبصرا بالتضامن الطبيعي الضروري بين بلدان المغرب الثلاثة. إن شمال إفريقيا مجموعة كاملة تؤلفها الجغرافية والتاريخ واللغة والحضارة والمصير. ومن ثم يجب أن يفسر هذا التضامن بالطبع عن تأسيس اتحاد لدول شمال إفريقيا الثلاث.

وإن من مصلحة الشعوب الشقيقة الثلاثة تبدأ بتنظيم دفاع مشترك واتجاه ونشاط ديلوماسي مشترك وحرية المبادلات وخطة مشتركة ومفيدة في التجهيز والتصنيع وسياسة نقدية مشتركة والتعليم وتبادل الأركان الفنية والاختصاصية والمبادلات الثقافية واستثمار مخبآت الأرض والنواحي الصحراوية لكل بلد.

البحث عن الأنصار:

يعتمد الجزائريون أول ما يعتمدون في تحرير بلادهم على أنفسهم.

والنشاط السياسي يوصي بعدم إهمال أي عامل من العوامل ولو كان ظاهره قليل الأهمية لتحقيق النصر. ومن أجل هذا شرعت جبهة التحرير الوطني وكانت موفقة في تعبئة جميع العزائم الوطنية ولكنها لن تدع العدو الاستعماري يستند إلى جميع الاقليات ويحرمنا من تضامن الدول معنا.

لقد فشل الاستعمار وفشلت مشروعاته وتصميماته فشلا ذريعا أمام تشدد جبهة التحرير الوطني ومواصلة جيش التحرير الوطني لكفاحه القوي الشديد.

ومن جهة أخرى فإن حكومتي تونس والمغرب قد وقفتا بفضل ضغط الشعبين الشقيقين ... موقفا صريحا من هذه المشكلة التي يرتهن بها التوازن في شمال إفريقيا وهذا ما يدعوا جبهة التحرير الوطني إلى الحفز والتشجيع على:

1- تنسيق السعي الحكومي في البلدين الشقيقين للضغط على الحكومة الفرنسية في الميدان الدبلوماسي.

2- توحيد النشاط السياسي بإنشاء لجنة تنسيق بين الأحزاب الوطنية الشقيقة وجبهة التحرير الوطني.

أ) إنشاء لجان شعبية لتأييد الثورة الجزائرية.

ب) التدخل بمختلف الوجوه في جميع المناطق.

3- الاتصال الدائم بالجزائريين المقيمين في المغرب وتونس (القيام بعمل إيجابي ملموس لدى الرأي العام والصحافة والحكومة).

4- التضامن بين الهيئات النقابية المركزية: الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد المغربي للشغل والاتحاد العام للعمال الجزائريين.

5- التعاون بين الاتحاديات الثلاث للطلبة.

6- تنسيق نشاط الهيئات الاقتصادية المركزية الثلاث.

الجزائر أمام العالم

أن الكفاح الجبار الذي يقوم به جيش التحرير الوطني وانتصاراته الباهرة التي أثبتت للجميع أنه جيش لا يقهر بفضل إجماع الشعب الجزائري على التعلق بالحرية مثله الأعلى الذي يسعى من أجله قد أخرج القضية الجزائرية من النطاق الفرنسي الذي قيدها فيه الاستعمار الفرنسي. ويرجع الفضل إلى هدم هذه الأسطورة القائلة "الجزائرية الفرنسية" إلى مؤتمر باندونغ وإلى الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وهكذا عززت جبهة التحرير جانب الوفد الجزائري القائم بالمأمورية الخارجية وقد أصبح لها:

أ- -مكتب دائم لدى هيئة الأمم المتحدة وفي الولايات المتحدة.

ب- - وفد في البلاد الآسوية.

ت- - وفود متنقلة لزيارة العواصم والمشاركة في التجمعات العالمية الثقافية، وتجمعات الطلبة والنقابات وغيرها.

ث- - دعاية مكتوبة قائمة على وسائلنا الخاصة من تنظيم مكاتب صحفية ونشر التقارير وعرض الصور والأفلام.

تصريح الحكومة المؤقتة

أن حروب تصفية الاستعمار هي حروبا دولية، في نظر ميثاق الأمم المتحدة ولذا فإنه طبقا لذلك يعتبر الكيان الدولي للجزائر قد أعيد إلى الوجود بموجب التصريح الذي أصدرته لجنة التنسيق والتنفيذ بتفويض السلطات من المجلس الوطني للثورة الجزائرية في 19 سبتمبر 1958م والذي تضمن الإعلان عن

تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سائر أنحاء الجزائر والرباط وتونس والقاهرة.

وقد جاء في التصريح الذي وزع على العديد من الدول مع الإعلان عن إنشاء الحكومة المؤقتة ما يلي: " تم الإعلان باسم شعب يكافح منذ أربع سنوات من أجل استقلاله ...إن الجزائر في هذا الكفاح لم تعد وحدها وعلى المسؤولين الفرنسيين أن يفكروا أن خلفنا تونس والمغرب اللذين ارتبط مصيرهما بمصيرنا عبر العصور، ومن المنطقي أن تكون الجزائر جزءا لا يتجزأ من المغرب العربي وأن تبني مع هذين البلدين اتحاد إفريقيا، فندوة طنجة قد دخلت التاريخ وستبقى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وفية لروح هذه الندوة، ... هناك أيضا التراث الرائد للحضارة العربية الإسلامية، فالشعب الجزائري المتعلق بحضارته ينتمي إلى الوطن العربي ... وبفضل التضامن الفعال للشعوب الشقيقة وحكوماتها اصبح الشعب الجزائر قريبا من بلوغ هدفه ... كما نذكر أيضا جميل الشعوب المتحررة (في مؤتمر أكرا) والشعوب التي تزال ترزح تحت قيود الاستعمار والتي تتطلع إلى استقلالها ... إن الجزائر ليست وحدها فهناك معها آسيا وكل الشعوب التي هزت الهيمنة الاستعمار ... وبهذا الصدد فان الاعتراف بالحكومة المؤقتة من قبل جمهورية الصين الشعبية الذي سيتبع باعتراف دول آسيوية أخرى له مدلوله الخاص، فلكل الشعوب التي جمعها مؤتمر باندونغ حول حق الشعوب في تقرير مصيرها، تتوجه الجزائر المجاهدة لها بشكرها وتؤكد لها تمسكها بمبادئ باندونغ ... لقد سجلت الحكومة المؤقتة منذ الإعلان عنها بكل ارتياح الاعتراف بها من قبل عدد من

الدول الكبرى... إن الدولة والحكومة الجزائريتين اللتين يشرفنا طلب الاعتراف بهما لا تشكلان كيانات قانونية جديدة ولكنهما مؤسستان قديمتان بعثتا من جديد، فلا يتعلق الأمر بالاعتراف بدولة جديدة وإنما بتكريس الإحياء الشرعي لدولة سابقة الوجود...".

وعند الإعلان عن هذا التصريح، وصل عدد الدول التي اعترفت بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلا اثنتا عشرة دولة ليصل إلى واحد وثلاثين دولة غداة وقف إطلاق النار. ويظهر أنه لم تمض أيام معدودة حتى حصلت الحكومة المؤقتة على اعتراف كل البلاد العربية وبعض الدول الصديقة، غير أن الاعتراف غير الرسمي كان أسبق في كثير من الحالات الاعتراف الرسمي هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة قد أثار السلطات الاستعمارية الفرنسية باعتباره إجراء يعبر عن التكامل في إظهار الكيان الدولي المستقل للجزائر، ولذلك اعتقدت فرنسا أنها لا تزال قادرة كدولة عظمى على فرض إرادتها على المجتمع الدولي، فعملت غداة الإعلان عن تشكيل حكومة مؤقتة على تحذير جميع الحكومات التي تتبادل معها التمثيل الديلوماسي، إذ ذكر "ديغول" أثناء حديث له في جريدة "صوت وهران" في 30 أفريل 1959م: "إن فرنسا ستقطع علاقاتها فورا مع أي حكومة تعترف بالحكومة المؤقتة. "ولكن هذا التهديد تجاوزته الاعترافات التي جاءت بعد سنة 1960م من غانا، ليبيريا، الطوغو، مالي، الكونغو والاتحاد السوفياتي، وظلت بعض البلدان مترددة تجاه الاعتراف بها إما لارتباط مصالحها بفرنسا أو لأن الظرف الدولي لم يكن ملائما لمصلحة الجزائر، وباستثناء حلفاء فرنسا الطبيعيين من الدول الاستعمارية

في الحلف الأطلسي، يمكن القول أن البلدان الأخرى أخذت في التعامل مع الحكومة المؤقتة كواقع له وجوده ولو أنها لم تعترف بها رسميا بصفة قانونية، وهذا لم يقلل من أهمية نتائج الاعتراف. وكان من شأن ذلك مشاركة الحكومة المؤقتة في المؤتمرات الدولية لتسمع صوتها أو لتنقل وجهة نظرها أو أن ترسل وفودا دائمة عن جبهة التحرير الوطني بموافقة حكومة البلاد التي تستضيف تلك المؤتمرات. وقد أخذت طريقة الاعتراف شكل تظاهرة إعلامية كان من شأنها تأمين دعم معنوي كبير للثورة الجزائرية بقيادة جبهة التحرير الوطني، وكان هذا الدعم كذلك جزءا من الرصيد المعنوي الذي كان عاملا من عوامل انتصار الثورة.

وهكذا جاء تأسيس الحكومة المؤقتة ليؤكد على الثقة المتينة بين القيادة الجماعية والقاعدة الشعبية للثورة الجزائرية من جهة، وليضع لبنة في أسس إعادة بناء الدولة الجزائرية العصرية ذات السيادة الممثلة للشعب الجزائري من جهة أخرى.

الخلاصة:

توجت الثورة المظفرة بنصر مبين، هذا النصر الثمين الذي جاد لنا به الدهر مرة واحدة في يوم أغر من منتصف 19 مارس 1962م، ورغم كل الملابسات فإنه سيبقى خالدا في تاريخ الجزائر، وقد قيل في ذلك الوقت أن الذي انتهى هو الجهاد الأصغر رغم التضحيات الجسام، وينتظرنا الجهاد الأكبر بالتوجهات الإيديولوجية والسياسية التي شكلت أسس قيام الدولة الجزائرية، وكان يمكن أن يكون هذا الانتصار منطلقا لانتصارات أخرى في البناء والتشييد، لكن

الاستعمار الجديد كان للدولة الوطنية بالمرصاد بالتواطؤ مع دفعة "لاكوست"في إجهاض مبادئ الثورة.

وللأسف، فكلما تقرر إثراء إيديولوجية الثورة بالمبادئ الإنسانية النبيلة، إلا ونجد - في المقابل- بعض الاستئصاليين يسخرون أفكارهم لإرساء قواعد الانحراف ولإخراج القطار عن السكة التي وضعه فيها مؤسسو جبهة التحرير الوطني

ورغم ذلك فإن ثورة نوفمبر تبقى ثورة ديموقراطية، بالشعب وللشعب، كمصدر للسيادة، والعدالة الاجتماعية وعلاقتها بالفكر الاشتراكي، والمبادئ الإسلامية كإطار للدولة الوطنية، وتثبيت الهوية في إطار الانتماء العربي والإسلامي والوحدة المغربية، ونشر مبادئ السيادة والمواطنة ضمن جزائر الأصالة أي جزائر العروبة والإسلام وهي الجزائر التي بشرت باسترجاعها جبهة التحرير الوطني ليلة أول نوفمبر 1954م.

فهرس الموضوعات

الإهداء 5

تصدير 7

مقدمة 9

المحور الأول

المقاومة الأولى لأهل متيجة 15

ثورة الأمير عبد القادر 31

حلفاء الأمير عبد القادر بالزيبان 51

مقاومة الحاج أحمد باي 93

المقاومة في بلاد الزواوة - (القبائل) 105

وقفة عند الذكرى المائة وخمسين لـ: معركة مقارين 137

ثورات 1871م (ودور عائلتي المقراني والحداد) 149

المحور الثاني

الأشعار الشعبية في المقاومة الوطنية 165

المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر خلال القرن XIX م محاولة اجتثاث جذور الشعب الجزائري 187

دور الزوايا في نشر التعليم الأصلي 211

مساهمة العلامة إبراهيم العوامر في النهضة الجزائرية 239

ذكريات..عن العلامة الطاهر التليلي 255

المحور الثالث

كتابة تاريخ الثورة الجزائرية 263

مساهمة القل في هجوم 20 غشت 1955م من خلال شهادة المجاهد بكوش صالح بن رابح 273

الجهاد المشترك الواحد الجزائري الليبي 285

في ذكرى "عيد الجمهورية" 305

الثورة الكبرى وبعض مآثرها 319

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية . بن عكنون

الجزائر